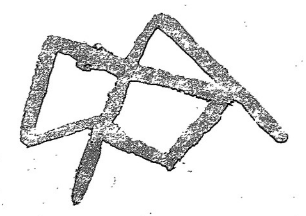
تجربتى فى الفن والحياة



راتب صديق



اهداءات ٢٠٠٣

أسرة أ.د/رمزي ذكي

القاهرة

تجربتى فى الفن والحياة

الجزء الثانى

تأليف
راتب صديق



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٤

الاخراج الفنى :

أميمة على أحمد .

وصلت السفينة الاسكندرية فى صباح اليوم التالى كما ذكر القبطان فى المساء ، وكنا نرى المدينة من بعد والجميع يتهللون فرحا ... لم آكن أنا منهم : أولا .. لم آكن قد شعرت بأى نوع من الخوف سواء أكان هناك خطر ما أو لم يكن .. ثانيا اننى كنت أفكر جديا فيما يمكن عمله فى مصر .. سأذهب الى قريتى ـ المنيب ـ حيث ولدت ولى فيها بيت ورثته مع اخوتى من والدتى ولى فيها بضعة أفدنة من الأرض الزراعية ... ولى فيها اخوة ووالد وأقارب ... أين سأعيش ؟ ... انى أبغى الوحدة التامة...لا أريد أقارب ولا أصدقاء .. انى أود أن أتفرغ تماما للدرس : التصوير باللون الذى لم أمارسه بنجاح حتى الآن ، ثم القراءة والقراءة . أين سأعيش .. وأين سأجد الوحدة والسكينة ؟ .... كان هذا محور تفكيرى لما اقتربت السفينة من مرساها ثم ها هى قد رست فعلا وبدأت عملية انزال الحاجيات والجوازات والجمرك والخروج ...

قبل أن تطأ قدمى أرض مصر فاجأتنى كلمات جورج حنين الذى كان يلاحقنى على سلم الباخرة : سأراك يا راتب فى مصر ، أرجو أن تعطينى عنوانك ، وأرجو أن تتصل بى . ها هى بطاقتى مدون بها عنوانى ورقم تليفونى ..

وهكذا وجدت قدمى تلمس أرض مصر للمرة الأولى بعد مرور ما يقرب من السنوات الأربع . شعرت بهزة خفيفة تعترينى .. ثم صحوة غريبة من ذلك الحلم اليقظ .. حلم التفكير فى المستقبل . ثم عرتنى دهشة خفيفة عندما سمعت العربية ولا شىء غير العربية تسود على لسان الجميع . لم آكن أسمع منها شيئا طوال اقامتى بباريس . حتى جورج حنين الذى كان يتكلم العربية والذى لقيته بضع مرات فى باريس كان يتكلمها بلكنة خفيفة ولم تكن هى اللغة التى أسمعها الآن..الكل يتكلمها .. هذا طبيعى ولكن لماذا هذا الصياح ؟ .. الكل يتكلم بصوت مرتفع ... اننى عجبت قليلا ولكنى تذكرت أن هذه عادتنا فى مصر ... بعد غيبة طويلة .. كنت قد نسيتها ... وقلت فى نفسى اننى سأعتاد

على ذلك · ولكن لم يحدث هذا ، فكان الصوت المرتفع يضايقنى تماما بالرغم من أن صـــوتى كان يرتفع فى بعض المناسبات « التناقشية » اذا كان الموضوع يستدعى ذلك ولكنى كنت أتحاشى ذلك دائما ·

بت ليلتى فى فندق قريب من « محطة مصر » هكذا كان يسميها أهل الاسكندرية · واستقللت القطار الى القاهرة فى صباح اليوم التالى · ومن القاهرة الى قريتى··المنيب حيث ولدت وحيث لنا بيت فيها ···

كان الباب الحديدى موصدا ··· ووقفت أمام الباب بعد أن أنزلت حاجياتى من السيارة مترددا ··· ولكن سريعا ما سمعت صوتا ينادينى ··· كان عمى ··· لم أكن قد أخطرت أحدا بقدومى ··· احتضننى عمى وأخبرنى أن أخى وأختى رحلا الى مدينة الجيزة ·· لكى يكونا بالقرب من المدارس ···

« كانت عادة أمى وأبى أن يرحلا الى القاهرة فى موعد الدراسة فى المدارس ثم يعودا بنا أنا واخوتى الى المنيب فى فترة الاجازة ·· » ·

وهكذا أخذنى عمى الى بيته فى حفاوة وحب صادق ·· وجلست مع الأسرة على مائدة الغذاء وأخذ هو يروى لى كل الأحداث التى مرت فى غيبتى ·· كل أخبار العائلة سواء من كان منهم ما يزال يقيم فى المنيب أو من رحل منهم الى القاهرة ···

وبعد الغذاء الفاخر الذى أعد لى والذى لم أذق منه سوى بعض الأرز والسلاطة الأمر الذى كان موضع استغراب عمى واستيائه ، ولكنى أفهمته أننى لا آكل اللحم منذ فترة وأفضل الغذاء النباتى ، ولا بأس من أكل البيض والجبن · واقتنع عمى على مضض ··· ناصحا لى بأكل اللحم وخصوصا وأنى شاب على وشك الزواج ! قالها عمى وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة ·

لم أكن أفكر فى الزواج على الاطلاق فى هذه الفترة ·· ولكن ماذا يقصد عمى؟·· هل ابتسامته تعنى أكل اللحم أم الزواج والزواج ممن؟·· هل اختاروا لى عروسا بالفعل ··· وطبعا من العائلة ، وكانت هذه هى العادة عندنا ··· « زيتنا فى دقيقنا » كما يقول المثل ·· لم يخرج على هذه القاعدة الا عدد قليل جدا ····

أعطانى عمى عنوان أخى وأختى فى الجيزة وذهبت اليهما مباشرة وهناك بعد الاستقبال العاطفى من الأخت الكبرى والأخ الأصغر علمت من أخى أن بيتنا فى المنيب غير معد للاقامة ، فهو مهجور منذ مدة ، ولكن يمكن اعداده فى وقت قريب لا يتعدى بضعة أسابيع · وعندما أخبرته

أننى أرجو مكانا هادئا تماما وبعيدا عن الناس بقدر الامكان حتى يمكن أن أباشر عملى فى الرسم والقراءة ٠٠ فنصحنى بأن أقيم مع « جدتى » عمة أمى وخالة والدى وكانت تقيم فى أطراف المنيب فى بيت فسيح ذى حديقة فسيحة حيث كانت تقيم معها أختها التى جاوزت المائة عام ومعها خادم مسن يقضى حاجاتهما الملحة ٠٠٠٠

وفعلا ذهبت مع أخى اليها ٠٠٠ قابلتنى بدمع غزير وبكلام كثير عن المرحومة والدتى٠٠٠٠٠وأفردت لى على الفور غرفة فسيحة بحرية شرقية ، بها سرير مريح و «فوتى» كبير وكنبة «استنبولى» تحت الشباك البحرى ثم « دولاب » كبير كان يخصها هى ٠ أفرغت جانبا منه لحاجياتى ، ثم جاءتنى بمنضدة متوسطة الحجم ٠ وكنت سعيدا جدا بهذا التوفيق ، غرفة فسيحة ، وتلك النافذة البحرية التى كنت أرقب منها الحقول الخضراء على مدى ما تراه العين ٠٠ لا يعوقها أى عائق ٠٠ وهاتان السيدتان اللتان جاوزت صغراهما الخامسة والسبعين ٠٠٠ وذلك الخادم الذى كان فاقدا للسمع تقريبا ٠٠٠ ثم باقى المنزل ٠٠ حجرات كثيرة فى الدور الأرضى ثم سطح المنزل الذى تغطيه تكعيبة كبيرة لكرمتين كبيرتين قد دبلت أوراقهما فى ذلك الفصل من السنة ٠٠٠

ولم يكن يضايقنى شىء ما سوى ذلك الصوت الذى يحدثه خشب الأرضية من قرقعة عند السير ، ولكنى تعودت عليه بعد ذلك ٠

بدأت فى اخراج بعض الكتب والكراسات التى كنت أدون فيها ملاحظاتى ٠٠ ورتبتها على جانب من المنضدة ٠٠ ولكنى تركت رسوماتى ودراساتى مغلقة كما هى الى حين ٠

فى اليـوم التـالى لاستقرارى فى المنزل « البحرى » زارنى كامل التلمسانى صديقى وزميلى فى المدرسة الثانوية السعيدية وفنان تشكيلى ممتاز « وانسان » قبل كل شىء ، وصحبه جورج حنين ٠ لم يمكثا كثيرا عندى وطلبا منى الذهاب معهما لزيارة فنانة مصورة هما على موعد معها لزيارتها فى منزلها « ١٦ شارع نجيب الريحانى » ٠

ذهبنا فى سيارة جورج حنين الى منزل الفنانة ، وعلى باب الشقة استقبلتنا « عايدة » وكان هذا اسمها ٠ ولم أر منها شيئا سوى تلك الابتسامة الرقيقة والرقيقة جدا « هكذا وجدتها » ٠ كانت ترحب بنا ولكن رقة الابتسامة كانت أكثر ترحيبا من كل ترحيب آخر ٠

دخلنا الى الشقة وفى غرفة منسقة جلسنا جميعا على الكراسى وهى ما زالت ترحب بنا فى استحياء ظاهر ، وهى تلقى على بين حين وآخر نظرة جانبية من طرف عينها ٠ لم أنبس « ببنت شفة » كما يقال ، فقد كان الصمت هو السـائد عندى معظم الوقت ، وكنت لا أتكلم الا عند الضرورة وفى مواقف معينة ٠٠ لقد نحل منى الجسد فى تلك الفترة التى

عشتها فى أوروبا ··· سوء التغذية من ناحية والتركيز الفكرى الدائم ، وتلك الأزمات الروحية التى كانت تهب على من حين الى آخر فتسلب منى كل شىء ، سوى التأمل العميق داخل النفس · وفى معظم هذه الأزمات كنت أخرج بلا جواب شاف أو هكذا خيل لى ·····

طلب كامل التلمسانى من عايدة بعد أن شربنا الشاى أن ترينا بعضا من أعمالها فى التصوير · أحضرت عايدة بعضا من لوحاتها ، وكانت تذهب وتجىء ولا تفارق شفتيها بل عينيها ووجهها كله ابتسامة رقيقة تشف عن حياء ودماثة لمست جانبا من نفسى فى ذلك الحين ···

تركت المقعد الوثير وجلست على الأرض ··· لكى أشاهد لوحة طبيعية صامتة ··· وطلب منى التلمســـانى رأيى فى عملهـا وكان هو متحمسا لها ··· فالتفتت الى عايدة كى تسمع ما أقول ·· فلم أقل أكثر من أن هذه اللوحة بالذات جيدة التركيب ، والاحساس بالفورم الممتلىء يذكرنى بسيزان فى تفاحه الرائع ····

فرادت ابتسامة عايدة ···· ثم زدت بأن احساسها بامتلاء الفورم هو فى ذاته أقرب الى النحت ··· ثم سألت ··· هل جربت النحت ؟ وكان هذا أول سؤال أوجهه رأسا الى عايدة · وأجابت وهى متوجهة تماما الى ··· أجابت بالنفى ، ولكنها تعتقد أنها ستمارس النحت فى القريب العــاجل ··· لمحت عينى عايدة فى هذه اللحظة ··· انهما أكثر من رائعتين ··· ولكنى لم أتوقف الا لحظة قصيرة عند هذا · ثم استأذنا بعد أن شكرناها على حسن استقبالها ، وودعتنا عند الباب ، ثم وجهت حديثها الى كامل التلمسانى ، وكانت تتكلم الفرنسية بطلاقة وتعود الى العربية فى بعض الأحيان فى استحياء · قالت لكامل انها يهمها كثيرا رؤية أعمالى أو بعضا منها اذا ما سمحت بذلك ، فأجبتها متخطيا كامل بأن هذا متاح لها ولكامل اذ أنه لم ير أعمالى بعد . أما جورج حنين فقد رأى معظم أعمالى فى باريس · وقلت سأرتب موعدا لكما فى القريب ···

وتركنا عايدة وذهبنا سويا الى مقهى « الأميريكين » لنشرب شيئا ما ··· كانت عينا عايدة وقد صوبتهما نحوى تماما فى اصغاء لما أقول كانت هاتان العينان هما بداية الصلة الرائعة التى وصلتنى بعايدة فيما بعد والى النهاية ··· ذلك الصفاء ··· الصفاء المملوء بالحنان ·· الحنان الذى لا نهاية له ·· الحنان الغامر الذى يتدفق ويظل يتدفق رغما عن كل شىء ···· ذلك الحنان الذى كنت أفتقده طوال حياتى والذى لم أجده الا الآن وفى هاتين العينين بالذات · لقد شعرت براحة ··· شعرت بدفء عجيب يملأ جنبات نفسى من استعادة تلك اللحظات السريعة ، التى مرت فى خيالى متأملا تلك العينين فى حنانهما الدافق ···

مرت الأيام وأنا أقيم فى المنيب فى البيت « البحرى » كما يسمونه ··· الى أن اشتدت الغارات الايطالية على القاهرة وبدأ بعض الأقارب يتركون منازلهم فى قلب القاهرة ويلجئون الى المنيب وبعضهم الى البيت البحرى بالذات ·· فوجدت أن من الأنسب لى أن أنتقل الى غرفة مستقلة فى أعلى المنزل حيث يظلل السطح « تكعيبة » عنب كبيرة ، وقد كانت الغرفة والسطح معزولين الى حد كبير عن باقى المنزل وسكانه . اذا ما أغلقت بابه من جهتى · فكان على كل من يريد الدخول عندى أن يستأذن بالدق على الباب ، وكان الجميع تقريبا يحترمون رغبتى فى العزلة ··· فما كان يصعد منهم أحد الا للضرورة القصوى أو لاحضار الطعام لى الذى لم أكن أتناول منه الا القليل · وكنت قد عزفت عن أكل اللحوم وكذا التدخين فى هذه الفترة بالذات ، وكانت استمرارا للفترة التى عشتها فى باريس ·· بغير تدخين أو لحوم ··

فى تلك الحجرة الصغيرة فى أعلى المنزل « البحرى » بالمنيب بدأت أول تجاربى الجادة فى التصوير بالألوان الزيتية Painting كانت دراستى فى لندن ومع أوزنفانت انحصرت فى الرسم بالقلم ، والتجربة الوحيدة التى حاولتها مع أوزنفانت كانت فاشلة·ونالنى من أوزنفانت ما جعلنى أزهد تماما فى معاودة الكرة · وفى باريس ومع فرناند ليجيه حاولت مرة ثانية ولكنى وجدت الفرشاة تسير فى سهولة أكثر من اللازم حتى ان زملائى فى أكاديمية ليجيه نبهونى الى مقدرتى فى استعمال الفرشاة · ومن هذا المنطلق شعرت بأن هناك خطأ ما فى هذه المحاولة ··· ان هذه السهولة فى جريان الفرشاة باللون للتعبير عن الشىء المرسوم تزعجنى ·· انها لا تقول الا ما تراه العين ··· ! وهذا لا يزيد عن مجرد مهارة لا أعرف كيف اكتسبتها بهذه السرعة ، وهى ليست من الابداع الفنى فى شىء · ولقد ذهبت الى حجرتى بالمنزل بعد هذه التجربة والتى نالت استحسانا من زملائى فى الأكاديمية · ذهبت أعيد الفكر فيما فعلت فى جلسة واحدة ··· وهل هذا ما أريده ··· ! ان الرسم بالقلم كان يقول شيئا ما متكاملا من داخل النفس ملتحما مع الطبيعة ··· مع الخارج المشاهد ، أما التصوير باللون كما جرت فرشاتى به اليوم فهو مجرد شىء أتى من الخارج وذهب الى الخارج ···

كان هذا التفكير يأخذنى طوال ساعات وأنا جالس فى مقعدى المريح ، حتى أتت سيمون فى المساء ووجدتنى فى حالة صمت تام مع نفسى وبعد تبادل بضع كلمات عرضت عليها مشكلتى ، لا لتقول لى رأيها ولكن لأعرضها بصوت عال حتى أصل الى قرار ·· وفعلا وصلت الى قرار ··· فقد أتلفت فى اليوم التالى كل ما عملته بين صيحات بعض الزملاء لأنهم كانوا معجبين بما عملت ···

هكذا بعد مرور وقت طويل منذ عودتى من باريس بدأت التجربة من جديد ··· لأنى كنت أشعر أن الرسم بالقلم له حدود وأن ··· اللون ··· هو غايتى ، وليس اللون كلون ، ولكن لأبنى به رسومى وأجعلها تمتد وتمتد وتبقى ··· ربما ···

فى غرفتى الصغيرة فوق السطح بدأت الرسم باللون ··· وكانت معركة طويلة بينى وبينه ··· انى أستذكر ما حققه الأساتذة الكبار ··· ولكن هيهات ··· انه مشوار طويل حتى أدرك ما وعيته فى دراساتى لهؤلاء الأساتذة ، ثم لأجد طريقى الى ما أريد أن أحققه · بدأت بالرسم رأسا بالفرشاه ·· باللون ·· « وجهى » فى المرآة ·· على الورق المقوى ·· بغير تحضير ·· فامتص الورق اللون وأوقفت العمل · وبدأت محاولة أخرى بعد أن استعملت لونا بنيا فى طلاء وجه الورق ، وبعد جفافه تماما بدأت التجربة من جديد ·· فامتنع الورق عن امتصاص الألوان بعد أن تشبع بالطلاء الأول وبدأت الألوان تظهر فى غنى واضح ··· وكان هذا مشجعا لى · وبدأته أجرب الخشب ·· وبنفس الطريقة استعملت اللون البنى فى طلائه ثم بدأت الرسم بعد جفافه ··

كان الرسم القوى – اللون والنور – يداعب حسى ···ان رمبرندت كان طاغيا فى هذا المجال ·· وكنت فى ذلك الحين أتمنى أن يكون لى قبس صغير من ألوانه المضيئة ، وتلك الاضاءة الشاعرية التى يضفيها على أعماله ··· كنت أشعر أن هذا هو الطريق الحق للتصوير بالألوان الزيتية ، ولكن أين أنا من هذا ··· !

لقد صممت أن أذهب الى النهاية فى هذا العمل · وكان « لتورسو » امرأة – : جزع وفخذين ويدين ونهدين · وبعد فترة من المحاولة الجادة انتهيت من هذا العمل الصغير ، وكنت أشعر ببعض الراحة لما وصلت اليه فى هذه التجربة الأولى الناجحة ·· نعم اعتقدت فى تلك اللحظة أنها تجربة ناجحة ·· كان الرسم قويا والاضاءة لا بأس بها · ولو أن اللون لم يعزز كما ينبغى ، بل كان مساعدا خفيفا للرسم والضوء ، ولم يكن بالقوة ولا المعرفة ليجعله فى صف واحد مع باقى العناصر ··· يتكامل معها ···

ومع ذلك فتلك التجربة الأولى الناجحة فى رأيى لازلت أحتفظ بها حتى الآن ·· ومازلت أشعر بأنها كانت بداية فتحت الطريق أمامى للتصوير الزيتى · كان هذا فى بداية الأربعينيات ···

جاء الى نفس المنزل ·· منذ بضعة أسابيع بعض من الأقرباء ··· هربا من الغارات الجوية التى توالت بعض الشىء على القاهرة ظنا منهم

أن قرية المنيب التى تبعد عن القاهرة بضعة كيلو مترات والتى تخلو من أهداف عسكرية تغرى بضربها — هى ملاذ أمن لهم · ازدحم المنزل أكثر من ذى قبل وكنت قد صعدت الى تلك الغرفة المنعزلة فى سطح المنزل هربا وافساحا لفوج سبق أن حضر ··

كان سطح المنزل مغطى « بتكعيبة » عنب يتدلى منها عناقيد كثيرة ·· لها بهجة فى كثرتها ، ثم بهجة أخرى فى تأمل العنقود على حدة ، وناك الأوراق الخضراء الجميلة تلطف بعضا من حرارة وضوء الشمس · كنت أستمتع كثيرا بالقراءة والاستماع الى الموسيقى تحت هذه العناقيد المدلاة وتلك الأوراق الخضراء التى كانت تظللنى أثناء النهار ثم فى الليل ··· كان المنظر يتغير كثيرا ··

ضوء القمر يتخلل تلك الأوراق ثم ينعكس بعض منه على العناقيد المدلاه ، ثم من بين كل هذا ينفسح المنظر أمامى وأنا فى عل · مسافات بعيدة من الخضرة والصفرة التى تتغير أطيافها تبعا لنوعيتها · كان هذا المنظر الليلى القمرى يروق لى كثيرا فكنت أسهر معه ساعات طويلة ، متأملا تلك المشاهد المفتوحة أمامى الى ما لا نهاية · وفى كثير من الأحيان كنت أدير « الفونوغراف » « أبو زمبلك » فى ذلك الوقت وعليه « توكاتا » لباخ · كانت الموسيقى تلتحم التحاما رائعا مع انفتاح المشاهد الممتدة ··· كان هذا باخ وهذه هى الطبيعة ··· كنت استمتع استمتاعا رائعا بتلك اللحظات كانت تعترينى نشوات متعاقبة ·· متلاحقة ·· ثم احساس روحانى غنى · يصاحبه فرح دفين · أكاد أستشعر القدسية فى تلك اللحظات الروائع ·· تفيض وتفيض ·

نعم انه فيض مقدس ·· كان يملأ نفسى تماما ··· كنت أتمنى أن يستمر هذا ولو لبضع لحظات من الزمن أكثر ···

استمرت تجاربى فى التصوير الزيتى فى تلك الحجرة زمنا ما ··· وكنت أندمج فى العمل تماما نهارا حتى الظهيرة ، عندما ينادوننى لتناول الغذاء · ولما كنت لا أميل الى الاختلاط خصوصا واننى كنت لا أتناول اللحم على الاطلاق فى تلك الفترة من حياتى — فكنت أطلب من أهل المنزل أن يرسلوا الى طبقا من الأرز وآخر من السلاطة ··· وكان هذا هو غذائى المعتاد مع بعض من « الأوملت » أو البيض المقلى ، وكنت سعيدا بهذا · اذ كان فكرى يصفو دائما مع هذا الغذاء الخفيف الذى كان يساعدنى أيضا على عدم العودة الى التدخين · واستمر الحال على هذا حتى جاء يوم وأنا منهمك فى عملى داخل الغرفة — سمعت فيه صوتا رقيقا يغنى أغنية ما ، فأعجبنى الصوت اذ كان يأتى فى همهمة خفيفة · وكانت اذا ما ارتفعت قليلا ، عاد صاحبها يخفضها كأنه يشعر بوجودى وبحاجتى الى السكون

التام فى عملى · ولكن الصوت أعجبنى فخرجت من حجرتى لأرى مصدر هذا الصوت فوجدت فتاة ما زالت فى السادسة عشرة من عمرها أو تزيد قليلا · وجه صبوح جميل ، وشعر أسود فاحم يتدلى على كتفيها وهى فى ثوب أبيض ، رق حتى كاد لا يخفى تماما ما ستره من ملامح قوامها الصغير ··

أقفلت فاها وصمتت عن الهمهمة الخفيفة ··· واعتراها خجل خفيف عندما رأتنى أظهر أمامها فجأة : أرادت أن ترحل وتختفى بعد أن احمر خداها حياء ، ولكنى بادرتها بالتحية وأعربت عن اعجابى بصوتها وطلبت منها الاستمرار فى الغناء . ولكنها أبت ، واعتذرت عما اذا كانت قد سببت لى مضايقة ما · ولكنى قلت لها اننى فعلا مسرور برؤيتها وبسماع صوتها ، ورجوتها أن تعود الى زيارتى كلما شاءت ··

كانت هذه الفتاة من أقاربى ، وكانت لصيقة بى وهى فى سن العاشرة ، وكان اخوتها وأهلها جميعا يرجون أن تكون زوجة لى فى المستقبل بعد انتهاء دراستى فى أوروبا ·· كانت جميلة ورقيقة فى هذه السن ، ولكن أين أنا الآن من فكرة الزواج على الاطلاق ان فكرى بل كيانى كله كان مكرسا للدراسة الجادة لكل ما هو ممتاز من التراث العالمى ، سواء فى الفن التشكيلى أو فى الأدب والعلوم الانسانية أو الموسيقى · وكنت ألتهم كل ما أجده من مناهل الثقافة المختلفة ، مجتازا بذلك تلك الأزمة الروحية التى أمسكت بى منذ بدأت أسأل نفسى ··· أين أنا والى أين أنا ذاهب ؟ ·

كانت الفتاة جميلة وجمالها حسى . وكان جسدها البض يمكن أن يكون سكنا لطيفا آوى اليه فى هدأة الليل عندما أخلص من أعباء الفكر والأسئلة التى لا أستطيع الاجابة عليها رغم كل المحاولات المستمرة والدؤوبة · بل لعلى كنت أتمنى أن يكون الاستمتاع الغريزى بهذا الجسد المشحون بالاغراء الجنسى والحسى فيه فرجة لآلامى النفسية التى صاحبتنى وما زالت تصاحبنى ··· كانت هذه الأحاسيس والأفكار تأخذ بعضا من وقتى بين فترة وأخرى ···

خفت ·· ان هذا الجسد يغرينى أكثر من اللازم بل كاد أن يسيطر على تفكيرى ··· حتى وصل بى الأمر أن تساءلت ·· لماذا لا أتزوج فعلا بهذه الفتاة · انها ترغب فى ذلك وأهلها يتوقعون منى أن أتقدم لخطبتها · نعم انها جاهلة وليس لها أى نصيب من الثقافة ، ولكن ربما يكون هذا أدعى لقبولها · وجه وجسد ·· جميل فيه من الاغراء ما يغنى عن أى ثقافة ···

هكذا كان هـذا الخاطر يمر بى بين وقت وآخر ····· ولكنى

صحوت ذات يوم ... وقد حزمت الأمر ، وقررت الرحيل من هذا البيت كله . ان هذا الجسد ليس لى وهذا الفكر شيطانى فلأغالبه بعيدا .. بعيدا . والى حلوان قررت الانتقال الى شقة فى أعلى منزل ولها شرفة كبيرة تطل على حقول خضراء ممتدة الى أطراف الصحراء برمالها الصفراء ... وتلالها المتناثرة .. وقد جذبتنى اليها ... شعرت بحنين شديد الى تلك الرمال والى تلك التلال وذلك الاتساع الملىء بالروعة والرهبة ....

فى الصباح الباكر والمبكر جدا فى الخامسة ولما تبزغ الشمس بعد ـ كنت أذهب الى جوف الصحراء ... بعيدا ... بعيدا عن العمران ... بعيدا عن الخضرة .. بعيدا عن الانسان ... الى الجماد الحى .. كى يحدثنى وأحدثه عن خفايا النفس وما كمن فى حناياها من حب ورهبة ورغبة فى أن أعرف ... لقد قالت لى الصحراء الكثير ... بصمتها الرهيب وجبروت لا محدوديتها ... وبتلالها التى حدثتنى كثيرا عن الجمال وبديع التكوين كلما اقتربت منها . واذا بعدت عنى حدثتنى حديثا آخر .. تداعب به فكرى وحسى ولكن اذا بعدت أكثر وأكثر كان حديثها يختلف تماما .. كان يحفر فى نفسى الكثير من الرهبة والخوف .. كان يحفر فى نفسى رغبة شديدة .. رغبة ملحة فى الاقتراب من هذا اللامحدود ...

هذا اللامحدود الذى يبعث فى نفسى الرهبة ... ثم النشوة ... كلما حاولت الاقتراب منه .

كان يومى فى حلوان ينقسم تلقائيا الى أربع مراحل : الأولى فى الصباح المبكر من الخامسة حتى الثامنة والتاسعة فى الصحراء ... محاولات لتسطير بعض الخطوط بالقلم عن تلك الصحراء ـ الفارغة ـ الزاخرة ـ ولكن هيهات ... ان قلمى ليعجز دائما عما استشعره من تلك الرائعة الغنية .. الصحراء . أعتقد أننى سأعود اليها دائما انها تشدنى اليها ... حبات الرمل التى ترسم تلك التموجات التى تسبح فوق سطحها الى مسافات لا نهاية لها ... انها موسيقى الشكل تدق ألحانا رومانسية تمسك بتلابيب النفس فتنحنى فوقها تلثمها ، فى استسلام لنشوة رائعة ... ثم لسلام لحظى مثير ثم أفيق من نشوتى وتأملاتى عائدا الى بيتى ... كنت أسير رافعا رأسى تارة وخافضا اياها تارة أخرى فى تأمل لكل ما استشعرته فى تلك اللحظات ...

وفى البيت وقد أيقظتنى ضجة خفيفة .. ضجة الحياة فى المدينة حيث أقيم فأرتقى السلم الى أعلى . وهناك أجلس فى مقعدى أمام النافذة أشاهد المدينة بشوارعها وبيوتها وفى نهايتها تلك الصحراء الرابضة خلفها .... ثم أعود الى « المطبخ » لأعد فنجانا من الشاى وقليلا من

الخبز والجبن لأتناول افطارى ٠ وعندئذ نبدأ المرحلة الثانية ٠٠٠ فبعد فنجان من القهوة ٠٠٠ أبدأ محاولاتى فى التصوير ٠ وما تمر ساعة أو ساعتان حتى أكف عن العمل وأبدأ فى تأمل ما حققته على اللوحة ٠٠٠ وغالبا ما أبدأ العمل من جديد بعد محو ما صورته ٠ ان تجربتى فى التصوير باللون كانت طويلة ومريرة ٠٠٠ لم يكن لى أستاذ بالذات فى هذا المضمار لارشادى ٠ حاولت أن أكون أستاذا ومرشدا لنفسى مستعينا بما رأيته فى المتاحف من كبار المصورين فى الماضى والحاضر المعاصر ٠٠ كان رمبراندت الهولندى يملك كل حواسى سواء فى اللون ٠٠ الضوء أو العظمة والروعة فى حسه الانسانى ٠٠ وكان تشيان الفينيسى الايطالى يشدنى الى كتله اللونية تسبح فى فضاء مظلم مشع شفاف وذلك فى أعماله الأخيرة ، ثم سيزان بألوانه ، ولمساته التى تبنى الشكل فى حس رائع لما تحت السطح ٠٠٠ ان تفاحاته كانت تحيرنى ٠٠٠ ان لها حضورا وثقلا ٠٠٠

بضع لمسات لونية أصبحت تنم عن التفاحة فى جوهرها ٠ فى اعتقادى أن سيزان أعظم من استعمل اللون واللون فقط فى بناء الشكل ٠٠٠

هكذا كان يمر بفكرى هؤلاء المصورون العظام والذين أحاول استعادة ما شاهدته من أعمالهم وأستعين به فى رسم طريقى فى التصوير الزيتى ٠ وبعد تناول الغذاء : نصف رغيف من الخبز ٠٠٠ صحن سلاطة من الطماطم والخيار والجرجير وثلاث بيضات مقلية ٠٠ ثم فنجان من القهوة ٠٠ أضطجع قليلا للراحة نصف ساعة ثم أعود للعمل ٠٠٠٠٠

قبل حلول الظلام بقليل كنت أحب أن أرقب غروب الشمس من الشرفة حتى يحل الظلام ٠٠٠ كانت أمسياتى مكرسة للقراءة ٠٠٠

وفى تلك الحقبة بالذات كان فى يدى كتاب ممتاز : محادثات « جيته » « لايكرمان » ٠٠ وكان لهذا الكتاب أثر طيب فى حياتى ٠٠ فقد فتح لى آفاقا واسعة للمعرفة والتأمل ، فيما كانت محادثات جيته تتناوله فى عمق وفكر واسع الأفق والثقافة — وفى العديد من المجالات ٠ كانت القراءة تستغرق أكثر من ساعتين فى المساء ٠ وفى أثناء النهار عندما تصادفنى العقبات فى التصوير كنت ألجأ الى القراءة ٠٠٠ فالتصوير عطاء ، والقراءة استقبال لعطاء وهو الأسهل ٠٠٠

والمرحلة الرابعة والأخيرة فى يومى تحل قبل منتصف الليل بقليل : فى الشرفة أراقب تحرك القمر فوق الحقول والأشجار حيث ترمى ظلالها فتحركها مغيرة مواضعها تبعا لتحرك القمر نحو المغيب ٠٠ كانت هذه متعتى كل ليلة ٠

في أحد الأيام وبعد أن استرحت قليلا من عملي بعد الظهر زارني كامل التلمساني ومعه عايدة شحاته ، وكنا قد تقابلنا في أحد المعارض في القاهرة ووعداني بالزيارة في حلوان وقد وصفت لهما البيت بدقة ...

وفعلا وصلا الى في سهولة ما ، وقد سررت كثيرا بتلك الزيارة وكانا يرجوانني التعرف على أعمالي في لندن وباريس ولكن للأسف لم يكن في حلوان الا القليل منها . وبعد أن تناولنا الشاي سويا استعرضنا بعضا من رسومي بالقلم مما رسمته تحت اشراف « أوزنفانت » . وكان تأثير هذه الرسوم عليهما غريبا الى حد ما ، فلقد كان كامل التلمساني الذي كان يعرفني قبل سفري الى لندن - اذ كنا طالبين بالمدرسة السعيدية في نفس الوقت . وكان يسبقني بعامين ، ولكن ظل بعد تخرجه من المدرسة ملازما لنا وصرنا صديقين منذ ذلك الحين ... وحتى وفاته في لبنان - .

كان كامل يتوقع شيئا آخر ... غير ما رأى . كان يتوقع أحجاما أكبر ورسوما أزخر في موضوعها ، ولكن رسما « لتورسو » امرأة ، أو لعين واحدة كاملة والعين الأخرى لم تكتمل ، أو لرأس ونهدين ثم كتف مدلى ... انها لم تكن أعمالا متكاملة هكذا صرح لي كامل لأول وهلة ، ولكن عايدة كانت تتأمل وهي صامتة .... ثم مضى وقت وكامل لا يزال يتأمل الرسوم ، ثم بدأ يتكلم بلسان آخر تكلم كامل في همس كأنما يكلم نفسه .. وكان همسه تساؤلات مع نفسه أولا ثم بدأ يفصح قليلا : ان العين ليست مجرد عين ... ان ذلك التجويف العميق الذي احتضن العين هو بمثابة كهف مشيد بمعمارية وهندسية - توافقت معها هندسية العين ... نعم يا راتب انك أردت أن تبني - في معمارية - تلك العين وليس مجرد رسم العين .. أعتقد أنني قد وجدت المفتاح الحقيقي لرؤية وفهم أعمالك ... ثم صمت كامل متأملا رسما آخر ، وكانت عايدة صامتة تصغي باهتمام الى كلمات كامل وهي تتأمل الأعمال في اهتمام واضح ..

سألتها ما رأيك أنت ؟ فقالت مبتسمة في رقة .. ان كامل قد عبر أخيرا عما رأيته أنا ، واضافت ان الجزئية الصغيرة من وجه انسان ... العين .. تنم عن الكثير المركز في الجزئية . كانت تتكلم عايدة في صوت خافت خجول ، والكلمات العربية تتعثر قليلا بين شفتيها وتستعين ببعض كلمات فرنسية ... ولكن ... كانت تلك الكلمات القليلة التي قالتها مضيفة الى كلام كامل التلمساني - كانت تنم عن ذكاء وفهم معمق للقيم ..

لقد أعجبتني ملاحظة عايدة عن « الجزئية » ، ولفت انتباهي تلك الطريقة التي كانت تتكلم بها وذلك الصوت الخافت الخجول مصحوبا بابتسامة رقيقة . نعم ان عايدة منذ ذلك اليوم في حلوان قد دخلت في

تفكيرى وصرت أعاود التفكير فى هذه « البنية » ذات الخفر والحياء الشرقى الأصيل ، مع ثقافة فرنسية وسلوك بين الشرقى والأوروبى ، ولكن فى تكامل تام مع شخصيتها التى تطبعت بهذا السلوك النابع من ثقافتها الأوروبية وأصالتها الشرقية ٠

استحوذت هذه الشخصية على تفكيرى تماما ، بعد أن رحلت وكامل من عندى ٠

كانت عربيتها غير طليقة ، بل كانت تتعثر فى نطق بعض الكلمات ، بالرغم من أنها أفهمتنى فيما بعد بأنها درست العربية فى مدرسة الراهبات بطنطا على مشايخ متخصصين فى اللغة العربية ، وكانت تذكر دائما اسمين هما : الشيخ جودة والشيخ سعد ٠ أما فرنسيتها فكانت طليقة ممتازة ، تتخير ألفاظها فى نطق ممتاز ٠ كانت صورتها فى حيائها وخفرها وهى تنبس بكلماتها فى همس تمر فى خيالى من حين لآخر تبعث فى سرورا ما ، فأجد نفسى أبتسم بالرغم من أن الابتسامة كانت عزيزة جدا بالنسبة لى فى هذه الحقبة من حياتى ٠ وفى يوم ما طلبنى كامل التلمساني تليفونيا بواسطة تليفون الجيران أصحاب المنزل ليدعونى لافتتاح معرض تشكيلى كبير لمجموعة ضخمة من الفنانين المصريين والأجانب المقيمين فى مصر ، وذلك تحت عنوان :

« الفن والحرية ــ المعرض الأول » ٠

وفى اليوم التالى جاءنى التلمسانى فى حلوان ٠٠ حدثنى عن المعرض الذى يضم العشرات والعشرات وأخذ يعد لى الأسماء ، ولم أكن أعرف الا القليل منها ، وكان من بينهم عايدة شحاته ٠ وذكر لى أن المعرض عبارة عن مهرجان كبير لحركات الفن المعاصر فى مصر وأن النزعة السيريالية تغلب عليه ، وذكر أنهم قد وزعوا أكثر من عشرة آلاف دعوة لافتتاح المعرض ، وقام أنور كامل وآخرون بتوزيعها ٠ وكان القسم الأكبر منها يوضع فى صناديق الخطابات الخاصة فى المنازل والعمارات ٠٠ وان الحماس لهذا المعرض كبير من الفنانين العارضين والمنظمين للمعرض ٠٠ وأن المعرض سيختلف تماما عن كل المعارض السابقة ، وقد طلب منى الاشتراك ببعض أعمالى ولكنى قلت له اننى لست مستعدا للعرض فى هذا المعرض الآن ، وخصوصا وانى استعد لعمل معرض شخصى لعرض أعمالى ، وأرجو منك يا كامل أن تتولى أنت ترتيب ذلك ، سواء بايجاد صالة العرض أو بالدعوة له٠٠الخ٠٠أما بعد هذا المعرض الفردى لشخصى سأشترك فى كل معارض الفن والحرية اللاحقة ٠٠٠٠

وقد أعطانى دعوة للافتتاح ٠٠ ووعدته باننى سأكون هناك فى الموعد المحدد ٠٠٠

وفعلا نزلت من حلوان الى حيث معرض الفن والحرية الأول ٠٠٠ فى قاعة عرض كبيرة بل رائعة ٠ يحتلها الآن مكتب الطيران الفرنسى ٠ كان مدخل المعرض ينبض بالحياة ٠٠ ولكنها كانت حياة من نبض خاص ، نبض كان جديدا على القاهرة فى ذلك الحين ٠٠

كانت هناك « دمى » ألبسها الفنانون ألبسة خاصة وطلوها بالألوان ، لتعبر عن نبض دخيلتهم نصف الواعية ٠ وكانت بعض هذه الدمى تتلألأ تحت لمعان الأضواء وأخرى تكاد تختفى فى الظلال ٠٠ صامتة ؟ لا ٠٠ انها تهمس وتهمس وتكرر الهمس ، حتى لتشعر أنها تهمس لك أنت بالذات ٠ ان هذا التباين بين واحدة وأخرى من تلك الدمى كان يحفر فى دخيلة نفسك أخدودا من الانفعالات لاتعرف حدودها فى هذه اللحظة ، ولكنها ستستمر معك مع اللحظات القادمة وربما مع الأيام القادمة ٠٠ انها تعيش معى حتى هذه اللحظة فى عام ١٩٨٤ ٠

دخلت المعرض بعد هذا المدخل الرائع : صالة فسيحة ، امتلأت بالأعمال التشكيلية من صور ورسوم وتماثيل ، وكان معظمها يميل الى « السيريالية » ،ويخلق جوا عبقا بالخيال المختزن لارهاصات وانفعالات نفسية دقيقة ظهرت على السطح من الأعماق اللاواعية ، بالتداعى اللاواعى حينا وبوعى غير كامل حينا آخر ٠

وشارك الفنانين التشكيليين الشعراء والكتاب ، وكنت تلمح قصائد الشعر وقد سطرت على لوحات علقت بجانب بعض اللوحات تشاركها فى انفعالاتها ، والبعض الآخر كان يسطر أحاسيسه على الأرض الرخامية مباشرة ٠٠٠

وكان هناك ساتر (برفان) من الخشب ذو أربعة أجنحة أهدتــه عايدة شحاته للمعرض لكى يكون سجلا لتوقيعات الزائرين ٠ امتلأ هذا الساتر بأجنحته الأربعة من الوجهين بتوقيعات الزائرين فى اليوم الأول فقط ٠ لقد امتلأت القاعة تماما بالزائرين ٠٠٠ انها صحوة للفن التشكيلى فى مصر ٠٠٠ صحوة من نوع جديد مثقف ٠ انها صحوة للفنان المبدع سواء كان بالتشكيل أو بالكلمة ، كما أنها كانت صحوة للمتذوق ٠ وفى نفس الوقت كان المعرض بجزئياته وكلياته صدمة كهربائية ــ لمن لم يستطع قبوله فى ذلك الحين ٠٠٠ ولكن على مدى السنين القادمة كانت تظهر ملامح هذه الصحوة فيمن صدموا للمرة الأولى ٠

كنت سعيدا فى زيارتى لهذا المعرض ، وخصوصا وقد قابلت كثيرا من الأصدقاء ٠٠٠ أذكر منهم عايدة شحاتة ــ كامل التلمسانى ــ جورج

حنين ·· رمسيس يونان ·· فؤاد كامل واستاذنا يوسف العفيفى وغيرهم كثيرين ·

هكذا بدأت جماعة الفن والحرية بمعرضها الأول باعطاء الصدمة ·· ثم الشحنة المركزة للفنان التشكيلى ··· الشاعر والكاتب ثم الجمهور ، الذى خـرج من المعرض وهو مستغرق فى مشـاحنات كلامية امتدت الى الصحف · فمنهم من يمجد ومنهم يقدح ويكفر ، ولكن الفن الحر لم يفتر لحظـة ··

بعد المعرض ودعت الأصدقاء ، وجاءنى كامل التلمسانى وقد لمحنى متجها نحو باب الخروج حيث كان منهمكا فى بعض المناقشات مع الزملاء · خطا مسرعا نحوى وقال ان عايدة شحاتة ذهبت مبكرة الى بيتها وأنها دعتنى أنا وأنت لزيارتها فى مرسمها ـ أو منحتها فيما بعد ـ فى شارع عـدلى ، وأنه سوف ينتظرنى فى المعرض فى اليوم التالى بعد الظهـر وسنتوجه نحن الاثنان الى زيارة عايدة ·

قابلت التلمسانى فى الموعد المحدد فى قاعة المعرض ثم ذهبنا سويا الى مرسم عايدة ، وكان التلمسانى يحدثنى طوال الوقت عنها ، وكان حديثه يتسم بالحماس والاعجاب والتقدير لها كانسانة وفنانة ، وكان التلمسانى يتكلم وأنا أسمع حتى وصلنـا الى شارع عـدلى ومنه الى حيث المرسم ··

كانت تنتظرنا بابتسامة رقيقة وقد فتحت لنا الباب · كان المرسم عبارة عن حجرة ليست كبيرة فى شقة كلها مكاتب لمحامين ومحاسبين · وكانت هذه الحجرة منعزلة تماما عن باقى الحجرات ··· كانت مطبخ الشقة ، ولكنها كانت تطل على منور ، وبها نافذة كبيرة تضىء الحجرة تماما ·

لم يكن بالحجـرة سـوى « اسـتراد » وضعت عليه بعضا من « المخدات » ثم حامل للرسم ومكتبة صغيرة ملئت بكتب الأدب الفرنسى والفن التشكيلى العالمى ·· ثم مقعدين اثنين بينهما طاولة عليها تمثال ذو حجم كبير ·· تمثال نصفى لأختها من الطين الأسوانى مغطى ببعض القماش المبلل بالماء حتى يحتفظ الطين بطراوته حتى يحين عمل قالب له من الجبس ·

جلست على كرسى وجلست هى والتلمسانى على الأريكة (الاستراد) وطلبت لنا القهوة من عامل البوفيه ·

فى ذلك الوقت ·· كنت مستمعا ·· لا أتحدث الا قليلا ، وكان الهدوء الظاهر يحتوينى تماما ، بينما الفكر يشتعل فى الداخل · وهذا

ما كان يتيح لى اذا ما تحدثت أن أزن كل كلمة قبل أن انطق بها ، وهذا ما جعل جل الأصدقاء يهتمون بما أقول ·

كانت عايده ترقبنى بطرف من عينيها وهى تخاطب التلمســـانى بالفرنسية وببعض من العربية فى نفس الوقت ·· تسأله رأيه فى التمثال ، وعما اذا كان فى وسعه أن يدلها على شاب يمكنه عمل قالب لصب نسخة من الجبس له ·

كنت أرقب التمثال وفى نفس الوقت استمع الى حديثهما · كان التمثال النصفى لأختها « أليس » بالحجم الطبيعى تقريبا وكانت به ملامح من « القدرة النحتية » ·

كان التمثال من الطين كما ذكرت ونحت الطين يختلف عن نحت الحجر · ففى نحت الطين·· يضيف الفنان الى الكتلة دائما ولا يأخذ منها . فهو فى داخلها على الدوام يدفع من الداخل بالاضافة من الخارج ، وهذا هو المنهج السليم لجعل الكتلة تنمو فى قيمة نحتية قوية تعبر عن فكر الفنــان ·

أما فى نحت الحجر فالفنــان يقطع ويأخذ من ســطح الكتلة كل الاضافات غير اللازمة ، حتى يصل الفكر المرسخ فى الكتلة المنحوتة ، بعد ازالة كل ما يعترض الكتلة حتى تنطق بفكر الفنان ····

جعلت أتأمل التمثال الطينى بعد ازالة الخرق المبللة من حوله ·· وكان ما ذكرت يشغل ذهنى ··

كان التمثال يحمل قيما طيبة ·· ولكن هل كان الأجدر بعايدة شحاتة أن تتعامل مع مادة أخرى غير الطين ·· الحجر مثلا ؟ ··

ان تعاملها مع الطين يفقدها فى اعتقادى بعضا من القيم النحتية التى يستجيب لها الحجر أكثر · كان هذا يدور فى خلدى وأنا أتأمل التمثال ثم أراقب عايدة بغير تعمد ··

أناملها دقيقة للغاية ·· رسغاها لا يزيد محيط أحدهما عن بوصتين · هل يمكن لهذا الرسغ وتلك الأنامل أن تحمل المطرقة والأزميل تحطم كتل الصخرة ··· ؟ توقف تفكيرى قليلا عند هذا ···

ـ ولكن عايدة كانت تشكو من الرطوبة والبلل فى معالجتها للطين ، وكان هذا يؤثر على صحتها ··· فكانت تلزم الفراش فى أحيان كثيرة من تأثير الرطوبة ·· هكذا سمعت من التلمسانى ····

توجهت الى عايدة قائلا ·· لماذا لا تعالجين الحجر بدلا من الطين ؟ ··

ان لك حسا ممتازا بالكتلة والقيم النحتية ، والنحت المباشر للحجر سيعطيك شعورا جميلاً فى «تنطيقك» للحجر ٠٠ وسيعفيك من البلل والرطوبة التى تقاسين منها ٠

ابتسمت عايدة وكانت متوجهة الى كلية ، وقالت مجيبة بصوت خافت ٠٠ انها تفكر فى ذلك فعلا ٠٠ وأنها ستطلب من أخيها الأصغر المهندس ألبير شحاتة توفير قطع الحجر والأدوات اللازمة ، ولو أنها تتوقع صعوبات كثيرة فى هذا المضمار ٠

شعرت أن فكرة معالجة الحجر مباشرة قد راقت لها أكثر عندما اقترحتها ، خصوصا وقد كانت ماثلة فى تفكيرها من قبل٠٠بدأت عايدة توجه الى الحديث معظم الوقت الذى قضيناه فى مرسمها ، خصوصا وقد دعتنى أن أزورها كلما نزلت من حلوان الى القاهرة ، وأعطتنى رقم تليفونها فى البيت اذا لم أجدها فى المرسم حتى نلتقى ، منذ ذلك التاريخ وأنا ألتقى بعايدة مرة على الأقل أسبوعيا ٠٠ بدأت الصداقة تتوطد بيننا ٠٠

عدت من حلوان الى المنيب ثانية بعد ما يقرب من عام قضيته فى شبه عزلة تامة الا فى مناسبات قلائل كنت أزور فيها المنيب والقاهرة ٠٠ كانت فترة ملائمة ٠٠ لمحاولة الفهم ٠٠ الفهم لأشياء وقضايا كثيرة مازالت عالقة فى ذهنى منذ أمد طويل ٠٠٠ سنوات أربع مضت وأنا دائب التأمل والتفكير فى هذه القضايا الروحية التى لازمتنى فى لندن وباريس ، والتى مازالت تحتل تفكيرى دوما وفى كل مكان ٠٠ ، انها « القضية » التى لم يحلها التفكير أو السلوك أو العمل ٠٠٠ حتى استيعاب الخبرات السابقة الرائعة من تولستوى وغاندى ثم الغزالى « ابو حامد » الذى ألهب فكرى وروحى ٠٠ بخبرته وكتاباته ٠٠ ولكن ٠٠٠ ان النفس ما زالت حائرة ٠٠

ان الاقناع العقلى شىء والهداية الى الطريق شىء آخر ٠٠٠ كيف ؟

فى ذات مرة كنت مع التلمسانى فى شقته فى « درب اللبانة » فى منزل قديم من العصر المملوكى ٠٠ جميل على الطراز الاسلامى ٠٠

« قد هدم الآن للأسف الشديد لتشييد عمارة سكنية قبيحة للغاية »

كنا نتبادل الحديث عن مكانة الفنان التشكيلى فى المجتمع المصرى ٠٠ يمارس عملية الخلق وهو لا يكاد يجد قوت يومه ٠٠٠ اذا لم يتفرغ تماما للعطاء الفنى الجاد ٠٠ كانت هذه صورة تنطبق تماما على فنان جاد مثل التلمسانى ٠٠ الذى يحاول كسب عيشه من انتاجه ٠٠ ولكن هيهات ٠٠ !

عنت لى فكرة .. عرضتها على التلمسانى .. فوافق فورا ولكن مع ذكر الصعوبات التى قد تقابلنا فى تحقيق هذه الفكرة ..

كنت أتصور أن إفتتاح مدرسة أو مرسم صغير لتعليم الفن التشكيلى .. به أساتذة جادون .. قد يكون له فائدة للطلاب الحائرين الذين لا يجدون من يرشدهم للطريق الصواب ، بعد أن تعددت النزعات والمدارس الفنية الأوروبية التى بدأت تطغى وتنتشر فى مصر فى عكس الاتجاه الأكاديمى المدرسى الذى تصر عليه مدرسة الفنون الجميلة فى ذلك الوقت ! .

وقد فكرت فى فتح هذا المرسم ، وأن يتولى ارشاد الطلبة كامل التلمسانى ويوسف العفيفى وأنا ... وفى وقت لاحق عرضت الفكرة على استاذنا يوسف العفيفى فوافق فورا لا لشىء الا لأنه كان يحب أن يساهم دائما فى دفع الحركة الفنية فى مصر الى الأمام ، خصوصا وأن راتب صديق وكامل التلمسانى كانا من أقرب تلاميذه الى فكره ...

وفعلا تمكنا من ايجاد صالة فسيحة فى أحد البيوت القديمة فى حى الفجالة وأجرناها بمبلغ زهيد : ٢ جنيه شهريا . ثم بدأنا نطبع بعض الملصقات للتعريف بالمدرسة تحت اسم « أكاديمية الفن المعاصر » وكان الاسم ترجمة حرفية من مدرسة Fernand Leger بباريس تحت اسم « L'accademi de l'art Contemperai ».

وقد تقدم فى الأسابيع الأولى خمسة طلبة أحدهم كان استراليا من جنود الحلفاء فى مصر فى عام ١٩٤٠ واثنان من الطلبة بالمدارس الثانوية وسيدة تهوى الرسم ، ودكتور باطنى يهوى الرسم وهاو للموسيقى أيضا . وكانت المصاريف التى يدفعها الطالب هى جنيهين شهريا ، كان يدفع منها أجر الحجرة وبعض المصاريف البسيطة للفراش الذى ينظف الصالة ... والباقى يقسم بينى وبين التلمسانى ... ولم يكن لاستاذنا العفيفى أى نصيب سواء فى التدريس أو فى المكافأة .

قابلت عايدة بعد افتتاح المدرسة ببضعة أيام وسألتنى عما تم فذكرت لها كل شىء بالتفصيل وقد علقت بأن ما يدفعه الطالب ليس بكاف وخصوصا وأن عدد الطلبة قليل واقترحت أن يكون الاشتراك الشهرى ٥ خمسة جنيهات وأنها ترغب فى الالتحاق بالمدرسة وأنها ستدفع خمسة جنيهات ....

وشرحت لها بأن هناك من يستطيع دفع هذا المبلغ ولكن الأكثرية ومنهم اثنان من الطلبة لا تستطيع . وقلت ان الأمل ان يكثر عدد الطلبة .... وانى أرحب بانضمامها للمدرسة ولو أن مستواها أرفع بكثير من الآخرين ..

كانت عايدة تأتي بانتظام الى المدرسة وكنت أوليها كل العناية فقد كانت موهوبة وممتازة ·

وكان للمدرسة فضل كبير فى التقارب بينى وبينها ···

استمرت أكاديمية الفن المعاصر أقل بقليل من العام ، اذ انقطع التلمسانى عن الحضور ولم يأت العفيفى بالمرة وأصبحت المسئول الوحيد عن المدرسة ·

انقطع الطالبان عن الدراســـة لأن امتحاناتهما قد قربت وســافر الاسترالى مع كتيبته وانقطعت الســـيدة لسـفرها الى المصيف ولم يبق الا الدكتور جميل الذى أحرز تقدما ممتازا فى الرسم بالقلم الرصاص ثم عايدة ···

فقررت غلق المدرسة ···

ـ تشبث الدكتور جميل بالاستمرار فى الدراســة تحت اشرافى واقترح أن يكون الدرس « خصوصى » مرتين فى الاسبوع على أن نذهب مرة واحدة على الأقل لرسم المناظر الطبيعية بعيدا عن القاهرة · وفعلا كنـا نذهب فى سيارته الى الهرم والصحراء وغيرها مما كان يختاره هو ·· وقد أراد أن يقوم بنقل بعض أعمال الفنانين الممتازين فى رسم المناظر الطبيعية ·· ووقع اختياره على « سيزان » ··· وقد اعترضت على سيزان قائلا ان سيزان من الصعب جدا نقله أو تقليده ، فكل لمسة فرشاه تقول أشياء كثيرة وتضيف الكثير ، ولا يمكن تقليد هذه اللمسة ·· ولكنه أصر بل أراد أن أقوم أنا أمامه بالتجربة ولكن أفهمته أننى لا أستطيع ··· وبهذا بدأت التخلص من مواعيده شيئا فشيئا بالرغم من انى كنت فى حاجة لتلك الجنيهات القليلة التى أحصل عليها منه ··

انقطعت عن التدريس للغير وبدأت التركيز على التصوير فى جدية تامة مع القراءة الجادة ·· كان هذا فى عام ١٩٤٠ ـ ١٩٤١ بدأت فى التركيز على التصـوير الزيتى ·· كنت ألمس أنه الطريق الأمثل الذى وافق مزاجى فى التعبير ··

وبالرغم من الصعوبة الكبيرة التى تجابهنى فى محاولاتى ·· فقد دأبت على المحاولة بغير سند من أساتذة أو ارشاد سوى ما كنت قد شاهدته فى متاحف أوروبا ولم يكن أمامى سوى هؤلاء الفنانين الأوروبيين الذين سيطروا تماما على هذا التصوير الزيتى ·· فلقد نشأ فى أوربا وعلى أيدى الأوروبيين ···

ولكن كانت المعالجة تتغير شيئا فشيئا لتلائم ما كنت أبغيه وما كنت أود التعبير عنه ··

لقد كنت أتجنب تماما اضافة أى أنواع من الزيت أو التربنتينا فقد كان جفاف عجينة اللون يلائم صلابة الشكل «الفورم» التى كنت أنشدها دائما فى أعمالى ·· بل لقد دأبت على تجفيف كمية الزيت التى تخالط عجينة اللون فى الانبوب بوضعها على ورقة نشاف قبل استعمالها ··· هذا اذا كانت تزيد عن الحد الذى يعطى العجينة قواما قابلا للمزج وحتى الآن وقد مضى على ممارستى التصوير الزيتى ما يقرب من أربعين عاما وأنا أمارس هذه الطريقة ···

وبعد مضى السنين على أعمالى الزيتية والتى اتبعت فيها الطريقة السالفة والتى يمكن تسميتها « بالتصوير الجاف » « Dry Painting » لاحظت أن الألوان احتفظت بخواصها ولم تتغير بل ظلت مشعة بعكس بعض التجارب التى استعملت فيها خلط عجينة اللون ببعض من زيت بذرة الكتان · أو زيت التربنتينا ··· فكانت فى الحالة الأولى تميل الى الاصفرار وفى الحالة الثانية الى القتامة ···

وهكذا دأبت بعد هذه التجارب على اتباع طريقة التصوير الجاف ··· حتى الآن·ازدادت زياراتى لعايدة فى مرسمها وكانت هى تشجع هذه الزيارات ··· وقد بدأت عايدة فى نحت الحجر وكان من أول نتاجها تمثال صغير نسبيا لامـرأة عارية جالسة تمـد ساقا وتثنى أخرى وقد بسطت ذراعا بكف مفتوح والذراع الآخر الأيسر يستلقى على الركبة اليسرى ورأس قوى شامخ بضفيرة من الشعر تحفظ توازن الرأس · كان هذا التمثال الصغير القوى بكتلته النحتية المنتظمة فى تكوين جميل ــ هو بداية رائعة فى النحت المباشر للحجر ·

كنت أول من هنأ عايدة بهذه المنحوتة البديعة فى الحجر ··· ثم جاء كامل التلمسانى وتحمس للتمثال وقال ان راتب كان على حق عندما نصح بمعالجة الحجر مباشرة ففى هذا التمثال أرى أن ·· فن النحت يأخذ مجالا قويا مغايرا لتالك المعالجات السابقة فى الطين وأعتقد أنك يا عايدة ستستمرين فى نحت الحجر بعد هذه التجربة الناجحة ·

بدأت هذه التجربة فى عام ١٩٤٢ ··· وتحمست عايدة للاستمرار فى هذا المجال وطلبت من أخيها الأصغر المهندس ألبير شحاتة أن يطلب لها قطعة من الحجر أعطته مقاسات معينة لها وكانت كتلة ضخمة من حجر بطن البقرة كما يسمونه فى الجبل الشرقى ، المقطم ···

ولكن الأحداث التى توالت لم تعط عايدة الفرصة لغير التحضيرات المرسومة على الورق لنحت هذه الكتلة الممتازة من الحجر··ولكن·· وبعد ثلاثين عاما حققت عايدة فى كتلة مماثلة رائعتها « الأمومة » · فى عام

١٩٤٢ حققت عايدة أول بداية فى طريق النحت المباشر فى الحجر ٠٠ وفى عام ١٩٧٢ الى عام ١٩٧٥ حققت عايدة رائعتها الأمومة ٠٠٠ وبين هذين التاريخين سارت الأحداث ٠٠٠

تقاربت زياراتى لعايدة وبدأت العـلاقة بينى وبينها فى التقارب الشديد ٠٠٠ حتى أننى شعرت بأن هذه العلاقة هى أكثر من صداقة وأقل من حب ٠٠٠ هى اعجاب شديد ٠٠٠ ربما ٠٠٠

عملت مدرسا للرسم فى مدرستين ثانويتين بالقاهرة بعد أن قمت بتجربة ناجحة فى هذا المضمار أعطانيها الأستاذ محمد عبد الهادي . وكان ناظرا لمدرسة فاروق الثانوية فى هذه الفترة ... وكان عبد الهادى بك كما كان الجميع ينادونه أستاذا ليوسف العفيفي وحامد سعيد فى مدرسة المعلمين العليا ... وبصلتى بهذين الأستاذين الفاضلين كانت تزكيتهم لى عند عبد الهادى بك كفيلة باعطائى الفرصة لعمل بعض التجارب فى تدريس الرسم فى مدرسته .. كانت هذه أول تجربة لى فى مجال التدريس ـ تدريس الرسم .

لم أرد أن أبدأ التجربة بالشكل التقليدى الذى كانت تزخر به المدارس الثانوية عموما من رسم المنظور والطبيعة الصامة والزخرفة المتماثلة .. الخ .

ولكنى أردت أن أضع أمام الطلبة وهم فى سن ما قبل الشباب بقليل ... شكلا ما للاسس الأولى للقيم الفنية .. موسيقى الشكل والايقاع .

عديد من السلاسل الحديدية .. اختلفت في الشكل والتعقيد ... أحبال مجدولة اختلفت فى السمك والتجديل تعقد بعضها فى طياته وعقده الكبيرة فى تشكيل بديع ..

ألواح كبيرة من الصفيح اللامع .. شرحت الى شرائح اختلفت فى سمكها وأطوالها ولكن ظلت متصلة بأصل واحد فى لوح الصفيح البالغ المترين طولا والمتر عرضا...التفت هذه الشرائح على بعضها فى التفافات متغيرة والتواءات مختلفة...ارتفع بعضها الى أقصى ارتفاع بطول اللوح وانخفض البعض الآخر حتى ساوي الأرض التي وضع عليها اللوح وسط مقاعد الطلبة التى التفت حوله فى شبه دائرة ، ووسطها بجانب ألواح الصفيح ـ الأحبال الملتفة ذات العقد ثم الجنازير الحديدية التى اختلف سمكها وأنواع حلقاتها وكيفية اتصالها ببعضها .

كان هذا الحشد من الايقاعات مع اختلافاتها ملفتا لانتباه الطلبة وقد تجلت الدهشة على وجوههم وقد فغر البعض فاهه من المفاجأة ٠

هل هذه حصة الرسم المعتادة ٠٠٠ ؟

كنت أراقب ٠٠ !

انها أنغام تبادلت ايقاعاتها فى موسيقية من الشكل والملمس ، من اللون والضوء ، من العنف والرقة فى جديل الحبل وفرقعة شرائط الصفيح والسلاسل ٠٠

كنت أرقب انفعالات الطلبة عن كثب ٠٠ كان البعض يبتسم سخرية ٠٠٠ وبما ٠ هل هذا هو درس الرسم المبتكر الذى وعدونا به من استاذ شاب قد عاد لتوه من مدارس لندن وباريس ٠٠

ولكن كانت الابتسامة تخفت قليلا قليلا عند هذا البعض عندما بدأت أقدم للدرس بلغة سهلة وبغير اصطلاحات معقدة مع تقديم الأمثلة مما هو مطروح أمامهم ٠٠٠

لم أكن أطمع فى كسب أكثر من بضعة طلاب لا يزيد عددهم على الخمسة من ضمن الثلاثين الحاضرين ٠٠

وبدأ الكل ينكبون على الرسم بالقلم وقد اختار كل منهم ما يناسبه من النماذج المطروحة ولم تكد الدقائق العشر الأولى تمر حتى بدأت أمر سريعا لأرى البدايات ٠

وكنت أتوقف بين الفينة والفينة ٠٠٠ لأرى بداية ناجحة ٠ هل فهم الطلبة ما المراد من تقديم هذه النماذج التى فاجأتهم فعلا ؟

كنت آمل أن أجد واحدا ٠ اثنين أو ثلاثة وقد هزتهم هذه الأشكال والايقاعات فى اختلاف انغامها حركتها ٠٠ الوانها وملامسها أن يضعوا على الورق ولو بداية لنغم من الأشكال هو البداية الحقة لفن الرسم كانت التجربة لمجرد استثارة الجوانب الجمالية فى أحاسيس الطلبة ٠ ان هذه الأشكال المعروضة أمامهم توحى بقيم جمالية لا شك فيها وكان عليهم فهم واستشعار بعضا من هذه القيم ثم استنباط قيم أخرى مماثلة دفينة فى كل منهم ٠

كان المطلوب هو الاستشعار والاستنباط ثم اكتســاب المهارات لتحقيق هذه القيم الجمالية منذ البداية ٠

وهذا هو الوضع السليم كما أرى لتعليم فن الرسم أما ما كان فى

معظم مدارس التعليم العام والمدارس العليا للفنون الجميلة من تعليم الطالب المهارات بوصفات معروفة مقدما للنقل الحرفى « للباذنجانة » أو ما يشابهها من أشيــاء منظورة ...

نعم ان « للباذنجانة » هذه قصة طريفة .. كنت أدرس الرسم فى المدرسة الابراهيمية الثانوية ...

كانت حجرة الرسم فى الدور العلوى ...

حضر السيد مفتش الرســــم وجلس فى حجرة الناظر فى الدور الأول ...

كان الناظر استاذا لى فى المدرسة السعيدية ١٩٣٦ .

جاءنى الفراش ... طالبا منى أن أنزل الى حجرة الناظر لأقابل حضرة المفتش الذى حضر خصيصا للتفتيش على مادة الرسم ..

حضرة المفتش يطلبك ... !

ببساطة .. قلت للفراش أن يبلغ حضرة المفتش بأننى سأنزل لمقابلته بعد انتهاء الحصة .

تلكأ الفراش ... لكن لهجتى البسيطة كانت آمرة نزل الفراش يغمغم معبرا عن عدم رضائه .. انه حضرة المفتش .. ! والمعتاد كما فهمت فيما بعد أن على المدرس أن يلبى طلب المفتش على الفور .. !

ولكن المدرس يقوم بواجبه مع الطلبة فى حصة رسمية ...

وعلى المفتش اذا أراد أن يطلع على عمل المدرس أن يصاحبه فى الدرس ... !

كان هذا المنطق البسيط هو الذى قادنى الى أن أترك حضرة المفتش بهيلمانه جالسا ينتظر فى حجرة الناظر أكثر من نصف ساعة حتى دق الجرس بانتهاء الحصة ..

وتمهلت قليلا فى مكتبى ... ماذا سيقول لى حضرة المفتش عن طريقة التدريس التى أعمل بهــا وهى جديدة تماما عليه وعلى غيره من جيله وخصوصا وأنه لم ير منها شيئا .. ؟

نزلت حيث حجرة الناظر وحييت الناظر ووجدت شخصا ضئيل الحجم منكبا على الكتابة فى دفتر ضـخم على طاولة فى ركن من مكتب النــاظر .

أسرع الناظر يلفت نظرى الى أن هذا هو « البك » المفتش — مفتش مادة الرسم ·

فحييته فرد التحية فى همهمة ولم يرفع رأسه من على الدفتر الذى ظل يستمر فى ملء صفحة كاملة من صفحاته ··

جلست على كرسى بالقرب من الناظر وبدأ يحدثنى عن ذكريات قديمة عندما كنت طالبا عنده فى المدرسة الثانوية وفجأة التفت الى « البك » المفتش قائلا بنبرة حادة لكنها هيابة الى حد ما :

— وقع بامضائك هنا يا أستاذ ···

قلت : أوقع على ماذا يا أستاذ ؟ ··

— وقع هذا التقرير واعمل بالتوجيهات التى كتبتها لك تفصيلا حتى تحصل على الفائدة وتتقدم فى عملك ·

قلت : أرجو أن أقرأ هذا التقرير أولا ·· !

قال : وقع أولا ثم اقرأه على مهل مرة ومرات حتى تستفيد ·

قلت : آسف يا أستاذ أنا لم اتعود أن أوقع على شىء أجهل ما فيه ·

فبدأ يهاجمنى ··· كيف يا أستاذ ترفض التوقيع هذه مخالفة · كيف يا أستاذ استدعيك فتدعنى فى انتظارك أكثر من ساعة ···· !

اجبته بهدوء تام « بالرغم من انى احسست بشىء من الغضب » بسبب اللهجة التى يتكلم بها » ··

ســأقرأ التقرير أولا ··· أليس هذا من حقى موجها حديثى الى النــاظر ·

فأجاب مبتسما : طبعا يا أستاذ ··· هذا من حقك تفضل بقراءة التقرير والتوجيهات لعلك تستفيد من خبرة البك المفتش فهو مفتش قديم قدير تناولت « الدفتر » وبدأت اقرأ ···

·· تعليماتى باختصار هى « الباذنجانة » · الباذنجانة يا أستاذ هى الأساس ··· وبغيرها لن تتقــدم أنت ولن يتقــدم الطلبة فى مادة الرســم ···

لم أعبأ بكلامه واستمررت فى قراءة التقرير ··

ملخص التقرير قدح فى مدرس الرسم الشاب الحديث فى مهنة

التدريس وطريقته في تدريس المادة وأن الفصل لم يكن مضبوطا أثناء الحصة وو ٠٠ الخ ٠٠

ذهلت ورفعت رأسى من القراءة وقلت للمفتش فى تؤدة وهدوء انك يا استاذ لم تزرنى فى الفصل ولم تتعرف على طريقتى فى التدريس ولا ماذا أقدمه للطلبة فى الحصة فكيف حكمت بكل هذه الأحكام ؟! ٠

هل هى أحكام من الذاكرة والتخيل ٠٠٠ وصمت ٠٠٠ فما كان من «البك» المفتش الا أن جمع أوراقه وهرول خارجا متمتما هذه اهانة ٠٠٠ هذه اهانة ٠٠٠ وخرج ٠٠٠ فاستأذنت من الناظر وصعدت الى مكتبى وجمعت أوراقى وفى طريقى الى الخارج لحقنى فراش الناظر وقال ان التليفون يطلبنى ٠ وذهبت الى التليفون وكان محمد عبد الهادى ٠ كبير مفتشى الرسم فى ذلك الحين ، على التليفون فحيانى وسألنى عما اذا كان فلان المفتش قد زارنى وحضر حصة الرسم ٠٠٠ فذكرت له ما حدث بالضبط فطلب منى مقابلته فى « محل الأمريكين » سليمان باشا فى تمام الساعة الثانية بعد الظهر وكانت الساعة ١٢ ظهرا ٠٠٠

وفى تمام الساعة الثانية فاجأنى عبد الهادى بك ٠٠ وبصحبته « البك المفتش » وحيانى عبد الهادى بك مقدما لى « البك المفتش » باسما ٠٠٠

ثم جاءت المفاجأة الثانية عندما أعطى عبد الهادى بك المفتش ورقة صغيرة واذا « بالبك المفتش » ينطلق متوجها نحوى بالاعتذارات عن جهله بالشخصية الممتازة المجددة وكان الأحرى به أن يعايش هذه الشخصية لينهل من علمها وفنها ٠٠٠الخ٠٠٠ وأكمل عبد الهادى بك ٠٠٠ يا فلان لقد أعطيتك « الدرجة الرابعة » لأقدميتك فقط ولكن جهلك يجعلنى أشك فى أحقيتك لها ، ولكن لكى تثبت هذه الأحقية عليك أن تزور الأستاذ راتب مرة على الأقل أسبوعيا ولمدة ثلاثة شهور وتخبرنى شخصيا عما أمكنك تحصيله والاستفادة منه ٠٠٠ لقد أرسلتك الى الأستاذ راتب لا لكى تكتب له هذا الكلام الجاهل ولكن ، أرسلتك لكى تستفيد منه ٠ اننى أعرف راتب جيدا وقد عمل معى فى مدرسة فاروق الأول وانى أجد متعة فى متابعة تجاربه ٠

لم أنبس ببنت شفة فقد شعرت بخجل ما للاطراء الذي سمعته وخجلا آخر لهذا الأستاذ وكلامه لى ٠٠٠

نعم انها كانت الدرجة الرابعة التى أطلقت لسانه باقتناع أو بغير اقتناع على الأرجح ٠

كانت هذه التجربة الاولى والأخيرة التى اصطدمت بها فى مجال تدريسى للفن ٠٠٠

فقد صممت على أن تكون استقالتى جاهزة فى جيبى نعم ··· كنت محتاجا للوظيفة ·· اذ كانت عايدة وفكرة الزواج منها ماثلة فى خيالى··· ولكن كرامتى وكرامة المهنة كانت فى الحساب دائما وأبدا ···

كنت أدرس بعض الحصص فى مدرسة القبة الثانوية وجاءنى أحد الأساتذة وكان اسمه الجارم على ما أتذكر وذكر لى أن المدرسة ستقوم برحلة الى الأقصر واسوان وأن ما يقرب من ثلاثين طالبا قد اشتركوا فى هذه الرحلة وأنه هو شخصيا مكلف بالذهاب معهم ويمكننى المشاركة اذا أردت وخصوصا وأن اشتراك الأساتذة لايتجاوز جنيهين اثنين لمدة أسبوع كامل بما فى ذلك المواصلات ذهابا وايابا والمعيشة والفندق الخ ··· دفعت الاشتراك فورا ···

عند زيارتى لعايدة فى مرسمها فى اليوم التالى ذكرت لها ما حدث بخصوص اشتراكى فى رحلة الطلبة الى الأقصر وأسوان ·· فتبسمت عايدة كعادتها وقالت انها ترغب بشدة فى هذه الرحلة منــذ أمد طويل ولكن لم تأت الفرصة ··

وبدأنا نفكر سويا فى كيفية تحقيق ذلك فى نفس الوقت الذى سأكون أنا هناك ··

وفعلا ·· اتفقت مع عايدة على تاريخ معين وفى ميعاد القطار الذى يصل الى الأقصر فى ذلك التاريخ سأكون بانتظارها وسأنفصل عن الطلبة فى نهاية رحلتهم لأكون فى صحبتها ···

وفى اليوم المحدد وفى موعد وصول القطار ·· كنت فى الانتظار ··· نزلت عايدة وفى يدها حقيبة صغيرة · رأتنى ـ وكانت مشغولة قليلا ·· ابتسمت وزال عنها ما كان يشغلها ··

أخذت منها الحقيبة وفى العربة « الحنطور » الى المعدية بدأت تحدثنى بصوت خافت كعادتها ··· انهم فى البيت لا يعرفون أنها ستلقانى فى الأقصر ···

كان اخفاؤها المقابلة والصحبة فى الأقصر بينى وبينها ـ ايماءة خفيفة لى بغير أن تشعرنى بأن هناك شيئا يعتمل فى داخلها ··· من ناحيتى ·

وفى المعدية الى البر الغربى حيث مقابر بل قل القصــور المدفونة تحت سطح الأرض لفراعنــة مصر ملوكا وملكات ، وعندما بدات المركب الكبيرة ذات الشراع العالى تزحف على الماء فى تؤدة وكبرياء يسيرها الريس الربان فى اعتزاز ـ بدا على عايدة انشراح وسرور واضح ·· بدأت تتكلم وهى فى انبهار من النيل العظيم ومعبد الأقصر يتباعد وراءنا بأعمدته

التى تعنو فى أبهة وجلال ··· كانت عايدة تعبر عن مشاعرها وقد انطلق الكلام من بين شفتيها متدفقا غزيرا بالعربية والفرنسية فى آن واحد ··· كانت هذه هى المرة الأولى التى كانت عايدة تتحدث فى نشوة ظاهرة وأنا صامت مستمع لتلك الانسانة البديعة التى غلبتها مشاعرها أمام هذه الطبيعة الدافقة بالحس والجمال والروح ·· لقد تحولت عايدة الصامتة الى كتلة متدفقة من الحس والمشاعر أطلقت لسانها بتعبيرات مركزة مشبعة بذكاء الحس والشعور · كانت هذه لحظة البداية لشعورى الحقيقى نحو هذه المخلوقة البديعة ··· انها كانت رائعة فى بساطة ويسر كانت أحاسيسها المرهفة تتدفق فى رقة ··· مع بسمتها ـ مع كل نبرة من نبرات صوتها الدافىء الحانى ··· هذه اللحظات حسمت الأمر بالنسبة لى ·· على الأقل شعرت بأن عايدة هى الانسانة التى يمكن أن ترافقنى فى مشوار حياتى حتى النهاية أمضينا ثلاثة أيام فى البر الغربى من الأقصر ··

تلك البقعة من الأرض ·· ربما تكون أكثر بقاع الأرض طرا فيضا بالروحانية والحس الرهيف ·

من راموزا الى مدينة هابو ·

من الرمسيوم الى وادى الملوك ·

ثم ذلك المنزل البسيط الذى أوينا اليه عند الشيخ على عبد الرسول وهو ما زال شابا ·· كل شىء كان ينبض بالشاعرية والجلال مع تلك الصحبة الجميلة ···

كنا نفترش الأرض ـ فى السويعات التى تسبق بزوغ الشمس ـ متجاورين تماما صامتين تماما ، نرقب النجم فى السماء ·· يغمرنا فيض من المشاعر المتناهية فى الرقة والرهافة ··· صمت بغير حديث ··· ولكنا كنا نتحدث ·

نوع من الرهبة ·· يشيع فى نفوسنا ·

ذهبنا الى أسوان التى كنت قد زرتها مع رحلة المدرسة قبل مجىء عايدة وكنت قد حجزت غرفة لعايدة فى أحد الفنادق ··· وهناك ودعت عايدة ···

قبضت على يدى بيديها الاثنتين فى حركة تلقائية ـ لا تريد اطلاقها ··· ان المشاعر متبادلة ··

الى أن نلتقى فى القاهرة ·

لقد انتهت اجازتى ولابد أن أعود الى المدرسة ·

ركبت القطار الى القاهرة ·

لم تبرح مخيلتى صورة واحدة من الصور التى مرت عبر الأيام

القليلة الرائعة التى أمضيتها بصحبة عايدة .

ان فكرى يرسم للمستقبل .

فى القاهرة داومت على زيارة عايدة فى مرسمها ...

فاتحتها فى الزواج ، وكان هذا طبيعيا بعد تلك الصحبة فى الأقصر ولما لمسته من الرغبة والعاطفة المشبوبة والقبول المتبادل ....

كانت تبتسم وكلما كررت الطلب تزيد فى الابتسام . كانت الابتسامة تقول نعم نعم ، ولكن لم أسمع جوابا صريحا .

وفى مرة لاحقة قالت لى عايدة ان أسرتها أحست بالتقارب الشديد بيننا وهى مصممة على انهاء هذا التقارب بشكل ما ، وقد وجدت هذا الشكل الآن ....

لقد تقدم لعايدة « عريس » طالبا يدها ، الأسرة موافقة تماما . و « العريس » من بيئتها كاثوليكى من أصل سورى مثل الأسرة ، غنى يملك الكثير ... هو فى الستين من عمره أو يزيد ....

دعا عايدة للخروج معه لتناول العشاء فى مطعم أنيق ...

وهناك عرض عليها طرفا مما يقتنى من مجوهرات ثمينة ورثها عن أسرته قائلا انها ستكون كلها ملكا لها بعد الزواج .

وبدأ فى سرد الكثير عما يملك من عقارات وعمارات .. الخ .

وأخيرا قال انه مثقف ويحب التصوير والفنون عموما ..

وهكذا سردت على الخبر ... فى اختصار ، ولم تعلق عليه بشىء من عندها .

أخذت قليلا لهذا الخبر ولو أنى شعرت من طريقة روايتها أنها لا تعير أى أهمية لهذا الحدث .

قلت لها ... انه كهل ثرى ... ربما يكون على أبواب الأبدية ... لماذا لا تتزوجينه .. ؟

نظرت الى عايدة نظرة عتاب ... ولم تفه بشىء ..

فى زيارة لاحقة أخبرتنى أنها رفضت نهائيا هذه الزيجة المطروحة ، ولو أن هذا الرفض آلم الأسرة بأكملها .. لا أسفا على العريس المرفوض ولكن خوفا من الصلة القوية التى تربط عايدة الكاثوليكية براتب المسلم ، والتى أصبحت واضحة تماما للأسرة .. انها ستكون المرة الأولى لأحد أفراد الأسرة أن يتزوج من غير جنسه ودينه ...

وسألتها وماذا بعد ··· ألم تحسمى الأمر بالنسبة لنا ····· ؟
قالت نعم يا راتب لقد حسمت أمرى ···

تقدمنا بالأوراق المطلوبة لاتمام الزواج ·· وقالوا لنا انها ستأخذ بعضا من الوقت للتحرى عن جدية الزواج ···

سافرت الى ملوى حيث عينت نهائيا أستاذا لفن الرسم بالمدرستين الابتدائية والثانوية معا ··· وقد استأت كثيرا لهذا ···

ولكن لم يمض أكثر من بضعة شهور حتى وصلتنى برقية من محمد عبد الهادى يطلب منى الاستعداد للسفر الى السودان مدرسا لفن الرسم فى أول مدرسة مصرية ثانوية حكومية تنشأ بالخرطوم وقد عين محمد عبد الهادى ناظرا لها ·

كان اختيار عبد الهادى بك لى عضوا فى أول بعثة تعليمية لمصر فى السودان مرضيا لى تماما ···

سافرت الى السودان بعد أن ودعت عايدة · كان وداعا أكثر من حار ، وتدفقت عواطف عايدة مع دمع منهمر ··· من الطرفين ··· وعاهدتها أنى سأعود فى الأجازة الصيفية ــ وكنا فى نهاية عام ١٩٤٣ ــ لكى أتم اجراءات الزواج ولتستعد فى تلك الشهور لنسافر سويا ···

وفى ٨ أغسطس سنة ١٩٤٤ تم الزواج فى المحكمة الشرعية على يد قاض مسلم ، وعاهدتها ــ لارضاء أسرتها ــ على أن يتم زواجنا مرة ثانية على الطريقة الكاثوليكية · لم تهتم ·· !

تم الزواج ··· بالرغم من كل العقبات التى وضعتها أسرتها فى سبيله ··

حبسوها فى البيت ومنعوها من مقابلتى ··· بالقوة ·· ! حبسوها عند اخيها الدكتور شفيق شحاته ــ أستاذ القانون ــ فى بيته فى حلوان ···

شددوا عليها الحراسة ···

صفعها أخوها الأكبر فؤاد على وجهها عندما رفضت تناول الطعام ، وقالت له ان كل هذا لن يجدى شيئا وأنها ستتزوج من راتب ··

واخيرا تمكنت من الهرب ··· قفزت من الشباك الى الحديقة وركبت القطار حتى المعادى ونزلت حتى لا يلحقوا بها فى نهاية الخط ، وأخبرتنى تليفونيا بالموقف ، فأسرعت اليها وذهبنا سويا الى الجيزة الى بيت صديقى وأستاذى يوسف العفيفى ··

وقام الأستاذ العفيفي بابلاغ الأسرة ...

وجاء زوج أختها وقال ان الأسرة توافق على الزواج . ولكنهم كانوا يضمرون غير ذلك ..

تم الزواج كما ذكرت بغير علم الأسرة التى سافرت فى الصيف الى لبنان ورفضت عايدة مصاحبة الأسرة وكذا الأخ الأكبر لانشغاله بالعمل ولحراسة الأخت .... !

قبيل السفر الى السودان ببضع ساعات ذهبنا أنا وعايدة الى أخيها الأكبر لنخبره بما تم ، ولكننا لم نجده فى مكتبة فتركت له عايدة رسالة قصيرة تخبره بسفرنا الى السودان ..

ركبنا القطار واحتوتنا عربة النوم ...

ولكننا لم ننم ...

وصلنا الى أسوان ومنها الى الشلال .. نهاية رحلة القطار والخط الحديدى .. حيث نبدأ رحلة أخرى على الماء ـ ماء النيل ـ الى مشارف السودان ..

كان الجو حارا بل شديد الحرارة والأرض تعكس هواء ساخنا يحرق الأقدام . الريح ساكنة .. مما زاد فى احساسنا بالحرارة التى تلفح وجوهنا حتى جف الجلد منا .

لم أصدق نفسى وأنا أتململ من هذا الطقس الذى زادت سخونته عن كل ما عهدته من قبل ... اذ لمحت ابتسامة خفيفة على وجه عايدة . لقد احتملت هذا الطقس بدون أى شكوى ... كانت مقبلة على حياتها الجديدة ...

لقد قاومت وانتصرت على كل المصـاعب والعقبـات لكى تسير هذا المشوار ... حتى النهاية .. بغير ضجر أو تململ من أى شىء قد يصادفها بعد ذلك .. وليكن الجو شديد الحرارة يحرق الوجوه بحرارته ، ولكن هناك عزما وعزيمة على مواصلة المشوار ... انها كانت رائعة .. ودائما رائعة ..

على سطح النيل كانت الباخرة التى ستقلنا الى مشارف السودان رابضة بجوار الشاطىء ..

صعد الحمالون بحاجياتنا الى سطح الباخرة فى اثرنا . وقادنا المختص الى غرفتنا ـ قمرتنا المزدوجة ...

وهناك خففنا من ملابسنا قليلا .. وصعدنا الى ظهر الباخرة .. وهناك على امتداد البصر سبحت أبصارنا تترى فوق سطح الماء الممتد حتى

الأفق البعيد ... وهناك .. هناك وعلى أنغام هامسة من حركة المياه التى تداعبها نسمات الهواء . العديد من الأشرعة البيضاء تتهادى فى رقة ولطف فوق الماء وكأنها قد استشعرت ذلك النغم الهامس حينما تحرك الهواء ومرمر الماء ..

كان المنظر مبهجا حقا لنا .. أنسانا الكثير مما عانيناه من ذلك القيظ والجفاف فوق سطح أرض منطقة الشلال .

بعد مرور بعض الوقت تحركت الباخرة نحو الجنوب الى مشارف السودان ، الى وادى حلفا ..

كانت الرحلة التى استغرقت يومين أو أكثر قليلا ممتعة حقا ، مررنا بأبى سمبل العظيم ــ وكان هذا ليلا ــ وسلط ربان الباخرة أنوارا كاشفة على المعبد فوق الجبل ، والعمالقة رابضة فى قوة وجلال فى صدر المعبد والجبل ــ رمسيس العظيم ...

كانت الرحلة هى الثالثة لى والأولى لعايدة وصلت المركب الى وادى حلفا ورست ونزلنا لنمر بالجمارك ومنها الى القطار ...

كان الانجليز يسيطرون على كل شىء : الجمارك والسكة الحديد والبواخر بل كل شىء فى السودان .

وكانت مهزلة المهازل أن يذكر اسم مصر فى ثنائية الحكم والادارة طبقا لماهدة وقعناها مع الانجليز .

مررنا من الجمارك ... وكان على رأسها انجليزى بالطبع وحملت حاجياتنا الى القطار الذى كانت أماكننا محجوزة فيه مسبقا بوقت طويل والا لما تمكنا من السفر .

والأنكى من هذا أنه كان علينا أن نأخذ « فيزا » لدخول السودان وكانت الفيزا تعطى بعد البحث والتمحيص ... لمن ؟ .. للمصريين .. وللمصريين فقط .. فقد كان السودان مليئا بالشوام واليونانيين وكثير من الجنسيات الأخرى . ولكن الخوف كل الخوف كان من المصريين ، والمصريين المسلمين بالذات لقد كانوا اخوة للسودانيين فى اللغة والدين .. وهذا التقارب يخشى منه ، وان تلك الاخوة ربما يكون لها تأثير كبير على تقلص نفوذ الانجليز فى السودان الذين تبوأوا كل المناصب الكبيرة الحساسة فى السودان ، ولم يسمحوا للسودانيين الا بالوظائف الكتابية ، والتعليم ، وبعض المساعدين فى الرى والكل مرؤوسون للانجليز .

لم يكن للمصريين هناك من نفوذ أو سيطرة الا على الرى ، وكانت محسوبة من قبل الانجليز .. فالنيل هو شريان الحياة لمصر ... وان مصر لن تسمح بأن يسيطر عليه من هو غير أمين . ثم هناك عدد محدود

من الجنود والضباط المصريين ، الذين سمحت بهم المعاهدة بين مصر والانجليز ، وكانت هذه القوة المصرية مجرد رمز فقط للوجود المصرى فى الحكم الثنائى كما كان يسمى طبقا للمعاهدة ٠

ولم يكن للتعليم المصرى فى السودان أى أثر يذكر ، فلم يكن هناك سوى مدرسة واحدة : المدرسة القبطية ، وكانت تسمى الكلية القبطية ، سمح بوجودها الانجليز لتعليم أولاد المصريين المقيمين فى السودان ٠٠

ولذلك كان للسماح لمصر بانشاء مدرسة ثانوية مصرية حكومية بعد سعى وملاحقة طويلة ، وذلك فى قاب الخرطوم العاصمة ـ رنة فرح للمصريين ٠ فالتعليم هو حجر الأســـاس للتقـارب بين شعبى مصر والسودان ٠٠

اختارت مصر رجلا ممتازا ذا ذكاء ولباقة على درجة عالية ٠٠ رجلا من رجال التعليم الكبار ، الذين لهم المقدرة على اختراق حاجز السياسة الانجليزية فى السودان بفكر ثاقب ودبلوماسية مرنة ، ولكن بمبادىء لا مرونة فيها ٠

بنيت المدرسة بالطوب الأحمر على عجل ٠٠ بضعة فصول وما يلزم من حجرات للادارة والنشاط ٠٠ بنيت فى أقل من شهر واختار لها محمد عبد الهادى بعثة التعليم الأولى لهذه المدرسة ، وكان اختياره لأســاتذة يعرفهم هو حق المعرفة ٠٠ وكانت تتكون من ثلاثة عشر فردا منهم ـ على ما أذكر ٠٠ حسن حسوبة وزيدان : لغة عربية ، ربيع غيث . فرنسية ٠ مصطفى فهمى : انجليزية ، ابراهيم خليفة وعبد النبى : مواد اجتماعية . ابراهيم البكرى : رياضيات ، رضــا : علوم ٠٠ عصام أبو العلا : تربيه رياضية ، راتب صديق : رسم ، ابراهيم حسنى : موسيقى ، أحمد سيد أحمد سكرتير ، صالح محضر للمعمل ٠

وكان على هذه المجموعة المختارة بدقة أن تبدأ من جديد رفع العلم للتعليم المصرى فى السودان على المستوى الثانوى الذى لم يوجد من قبل٠ كانت المجموعة قوية فعلا كل فيما يخصه ، ولكن لم يكن هناك تناسق فى الشخصيات ، ربما كان هذا طبيعيا فى تلك الظروف ٠٠

كان بناء المدرسة فى التشطيب النهائى ٠٠٠ بنيت فى ٢٥ يوما ٠٠٠ ٢٥ يوما فقط ، وقد عاون المدرسون والموظفون فى اتمام الترتيبات النهائية لكى تفتح المدرسة فى الموعد المحدد ٠ وكانت روح الأساتذة والموظفين ممتازة ، وكان الجميع يعمل فى حماس رائع ٠٠

افتتحت المدرسة ٠٠٠ وبدأت الدراسة ٠ وكنت مسئولا عن مادة الرسم والمكتبة ، ثم أبا لأسرة من الأسر التى تضم الطلبــة كل مجموعة فى أسرة ٠٠

عملت بحماس ، والكل كذلك وكان وجـود محمد عبد الهـادى بشخصيته المتميزة حافزاً وقدوة للجميع · لقد أفرد لنا الرى المصرى فى السودان استراحة كاملة ممتازة لسكن الأساتذة والموظفين ·· لكل اثنين حجرة ولكل حجرتين حمام مشترك ··

وكان زميلى فى الحجرة مدرس التربية الرياضية عصام ·· وكنا متقاربين فى السن ··· وكانت ميولنا ـ خارج نطاق الفن والرياضة البدنية ـ متقاربة ·

عشت الفترة ما بين أكتوبر سـنة ١٩٤٣ وأغسطس سنة ١٩٤٤ ـ أى قبل الزواج الرسمى من عايدة ـ فى الخرطوم فى مدرسة فاروق الأول كما كانت تسمى فى ذلك الحين ··

مع تلك النخبة الممتازة من المدرسين ··· فى استراحة الرى . وكان الجميع بغير زوجاتهم ···

كانت المدرسة تأخذ كل وقتى ، وكنت سعيدا سواء بالتدريس أو التواجد فى المكتبة الخاصة بالمدرسة ، مع العدد القليل من الكتب التى غذيتها بها تباعا فى شتى المواضيع سواء بالعربية أو بالانجليزية ·

كانت النتائج طيبة فى شتى المجالات سواء فى التدريس أو الارشاد العام للطلبة أو العلاقات الطيبة مع اخوانى من الأساتذة أو مع اخوانى من خارج المدرسة من السودانيين ···

كانت هناك بعض المضايقات الصغيرة من بعض النفوس الصغيرة من أعضـاء البعثة حتى انى وجدت نفسى متهما بالعديد من التهم التى لم أستطع تعليل أسبابها ···

وكان أن طلبنى الأستاذ مدير المدرسة عبد الهادى بك فى مكتبه ، وكان على غير عادته عابسا بعض الشىء ، وطلب منى طلبا غريبا هو أن لا أستعمل دورة المياه الخاصة بفلان ، ويمكننى أن أستعمل دورة المياه الخاصة بآخر ·· وأن « اعيد طربوش فلان اليه » وأن وأن ···

لم أستطع فهم اى شىء ولكنى ، قلت لعبد الهـادى ببساطة اننى سأرحل من الاستراحة الحكومية كلية وسأقيم عند أحد أصدقائى وسأقدم استقالتى فورا لأرحل الى مصر ·

انى لا أفهم معنى لما سمعته منه على الاطلاق وفعلا رحلت مع صديقى عصام وزميلى فى الحجرة لأنه كان متهما معى أيضـا فى أشياء لا يعلم عنها شيئا ·

وعشنا شـــهرا كاملا مع صديقنا ثابت جرجس الأسـتاذ بكلية الخرطوم ·· فى بيته ··· وكان اعزبا فى ذلك الوقت ···

كنت أشعر بمرارة ٠٠٠ قدمت استقالتي بالرغم من أنني كنت أعد الأيام لزواجي من عايدة والعيش معا في السودان ، وكانت هذه الاستقالة ستقلب كل الأوضاع ٠

كنت مصمما على موقفي ٠ انني لا أقبل الظلم وسأرده بكل عزم وتصميم مهما كانت النتائج ٠٠

بدأت نوعا من الاحتجاجات الصارمة حتى يبت في استقالتي ، كنت أقوم بعملي الرسمي بكل دقة وفي مواعيده الموقوتة ثم أبرح المدرسة فور تأدية واجبي ٠٠

رفضت الاستمرار في اصـــدار مجلة الحائط المصـــورة الخاصـــة بالمدرسة ورفضت الاشتراك في أي نشـــاط مدرسي خارج عن عملية التدريس البحتة ٠٠

كان عبد الهادي يقابل ذلك بصبر ، وكتمان عدم رضـائه ، لأن الصلة بيني وبين عبد الهادي كانت أقوى من أن تنهار بهذه البساطة ٠٠ وأن استقالة أحد الأساتذة من المدرسة بعد بضعة شهور من افتتاحها سيهز سمعة عبد الهادي نفسه ٠٠ وكنت أشعر بالمرارة من هذا الموقف الذى فرضته على كرامتي والظروف التي لم أفهم منبع مسار أحداثها ٠٠ كانت هناك حلقة بل حلقات خافية ٠٠ لم أستطع معرفتها ٠٠ كيف يحدث هذا ؟ الكل صامت ٠٠ لا أحد يتكلم ويفسر ٠٠٠ لم يكن لى معرفة بأحد من الأساتذة سوى محمد عبد الهادى قبل قدومي الى السودان ٠

وكانت معرفتي بالزملاء ومعرفة الزملاء بي لا تتعدى هذه الشهور القليلة التى عشناها معا في المدرسة والاستراحة ٠٠٠

بل انى كنت مع زميلي فى الحجرة مدرس التربية البدنية عصـام أبو العلا متباعدين عن بقية الزملاء بحكم الميول والسن ٠

اذ كنا أصغرهم بفارق كبير ٠

مرت الأيام ثقيلة ٠٠٠ كنت أتجنب ملاقاة محمد عبد الهادى مدير المدرسة ٠٠٠ كنت أراه في فناء المدرسة في المدة الأخيرة ٠٠٠ واقفا صامتا تعلو وجهه مسحة حزينة ، ثم علمت أن ذكرى فقده أخا له حلت فى تلك الأيام ٠

في يوم وقد هممت بعد انتهاء دروسي في المدرسة أن أرحل ، قابلني أستاذ في منتصف الطريق الى الشارع وكان يتجه الى مباشرة وعن عمد واستوقفني قائلا ٠٠ أرجو أن تعطيني بضع دقائق من وقتك لأشرح لك مسأله مهمة بالنسبة لك وبالنسبة لنا جميعا ٠٠ فوقفت مصغيا بغير أن

أتكلم ·· فسحبني من ذراعي راجيـا أن أرافقه الى مكتبه لأن الحـديث خاص ·

وهناك وفي دقائق معدودة بدأ حديثه بالاعتذار لي شخصيا ، وسألته لماذا يعتذر وعن أي شيء يعتذر ·· فلم يجب ، ولكنه بدأ سرد الأحداث في دقائق معدودة ··· ملخصها أن كل التهم السخيفة التي وجهت الي أنا وعصام زميلي في الحجرة تبين أنها غير صحيحة بالمرة ، وأن الشخص الذي تسبب في كل هذا كان يعتقد أنهـا دعابة ، ولقد اعترف أمـام عبد الهادي بخطئه مع الاعتـذار الكامل عما سببه من بلبلة واحـراج للجميع ·· طلب مني هـذا الأستاذ ــ وكان أكبر أعضـاء البعثة سنا · ابراهيم البكري ، أستاذ الرياضيات ــ أن أغفر له ما حدث حيث أنه هو الذي أبلغ عبد الهادي بهذه التهم التي أبلغها له أحد الأساتذة ، وكان زميلا له قبل حضوره الى السودان ··

قلت له ان ما حدث قد حدث ، وأن ما أحدثته هذه البلبلة السخيفة في غرس عدم الثقة في المجموعة بأكملها لن يستطيع أي اعتذار أن يمحو الآثار التي ترتبت عليهـا ، على كل حال أنا مستقيل وأنتظـر البت في استقالتي والعودة الى مصر في أسرع وقت ممكن لأني لم أتعود هذا الجو الخانق السخيف ·

فابتسم ابراهيم البكري وقال : أعتقد يا أستاذ راتب أنك محق في غضبك ولكن ·· أبلغني عبد الهادي بك بعد أن علم بأنها كانت دعابة ثقيلة ــ أنه يريد أن يراك ·· وأرجو أن تقابله ···

انطلقت في طريقي الى المنزل قائلا لابراهيم البكري ·· اني سأفكر في الأمر ··

تمهلت يومين كاملين وذهبت الى مكتب عبد الهادي بك ·

بعد نهاية اليوم المدرسي ·· وكان الباب مفتوحا ··

وعندما رآني عبد الهادي بك نهض من كرسـيه مستقبلا اياي ببشاشة وابتسامة رقيقة ودعاني للجلوس ···

ثم أخرج من درج مكتبه علبة من الشيكولاته ودعاني لأتناول بعضا منها فاعتذرت وشكرته · « هل تريد فنجانا من القهوة » قلت نعم ··

وفي أثناء تناولي القهوة أخرج عبد الهـادي من درج مكتبة ورقة مطوية ·· قائلا هل تذكر هذا المقال ·· وناولني الورقة وكانت مقالا عن الأحاسيس الموسيقية في الفن التشكيلي والتركيز على فن كاندينسكي ·

كان عبد الهادي بك قد طلبها مني أثناء تدريسي لبعض التجارب في هذا المجال في مدرسة فاروق الأول قبل حضوري الى السودان ، ونشرت

في مجلة أساتذة الفن ٠٠ وقال معقبا : لقد كانت مقالة جيدة وأتمنى أن تكتب لنا هنا في السودان ٠٠ سواء في مجلة المدرسة التي تشرف عليها أنت شخصيا أو في مجلات السودان ٠

استأذنت منه وعدت الى المنزل ورويت ما حدث لعصام الذى أفاد بأنه ينبغي أن نعود الى الاستراحة ، وخصوصا وقد علم من الأساتذة الآخرين كل الظروف التى أدت الى هذه القطيعة ، وقد طلبوا منه أن يؤثر على شخصيا في سحب استقالتي والعودة الى الاستراحة ، وقد تمهلنا يوما آخر ثم عدنا مع باقي الزملاء ، وكان استقبالهم لعودتنا استقبالا طيبا صادقا ٠

في اليوم التالى أرسل لى عبد الهادى بك يستدعيني ، ولما ذهبت اليه قدم لى مظروفا كنت قد ضمنته استقالتي وقال لى مبتسما انه لم يكن ليقبل منى استقالة في أى ظروف ٠

فأخذت الظرف ٠٠ وعادت الحياة ٠٠ حياتي نشطة في المدرسة وخارج المدرسة ، وبدأت فعلا في كتابة بعض المقالات في الصحف السودانية ، وكذا أحاديث في الاذاعة السودانية ٠

حدثت هذه الأحداث في السنة الأولى التى سافرت فيها الى السودان أعزبا ، قبل زواجى من عايدة ٠

ولكنها لم تكن لتبرح مخيلتي فكنت أستعيد ذكرها لعايدة وكانت تدهش وتتعجب ٠

مرت الأحداث التى سردت بعضا منها وانتهت تماما كل المشاكل بعد وصولى مع عايدة الى الخرطوم ٠٠

لم أكن قد استأجرت مسكنا لنا بعد ، ولكن كان مدرس الرسم في الكلية القبطية الأستاذ حبيب مشرقي قد وعدني بايجاد مسكن لى عند عودتى من الأجازة ومعى زوجتي ٠٠

كان حبيب مشرقي في انتظارنا ، وأخذنا فورا مع حاجياتنا الى منزله ٠٠٠ فقد أفرد لنا حجرة هناك حتى نجد لنا منزلا فيما بعد ٠٠ لم أستطع الرفض ٠٠٠

لقد قام حبيب مشرقي والسيدة زوجته بكل واجبات الضيافة والكرم ، الى أن وجدنا منزلا مشتركا بيني وبين أحد الأساتذة وعائلته في الخرطوم بحريا ، وكان منزلا جميلا ذا حديقة واسعة كان المنزل مكونا من ثلاث حجرات احداها تبلغ مساحتها ما يقرب من ٦٠ م٢ : ٥ × ١٢ والاخريان صغيرتان نسبيا ٠ وحيث ان الزميل مصطفى فهمى متزوج وله طفلتان وخادمتان فقد استقر في الحجرتين غير حجرة أخرى في طرف

الحديقة للخادمتين : أما نحن فقد أخذنا الحجرة الكبيرة ، وقمنا بترتيبها كالآتى :

ستارة من الدمور المصرى تفصل الحجرة الى قسمين أحد القسمين للمعيشة والسفرة والثانى للنوم ... غير أننا وجدنا أن النوم لا يستساغ الا فى الفرندات وعلى العنجريب فى الهواء الطلق ..

رتبت عايدة حياتنا فى بساطة وجمال . وكنا نعيش فى فترة من أجمل فترات حياتنا ... كانت الجنيهات القليلة التى أتقاضـــاها من الوظيفة مضافا اليها بعض من الجنيهات الأخرى التى تأتينى من ايراد بعض الأملاك فى مصر .. تكفينا تماما ... ذلك كان لرخص الحياة فى تلك الفترة من الزمن ..

لقد استعرنا من الرى المصرى بعضا من الاثاث كانت كافية تماما . وكانت سيارة من سيارات الجيش المصرى فى السودان تنقلنا مع الأساتذة الآخرين من خرطوم بحرى الى المدرسة فى الخرطوم صباحا وتعود بنا بعد انتهاء الدراسة ..

وكان هذا من ترتيب وتنسيق عبد الهادى بك مع رئيس الجيش فى السودان...

سارت الحياة جميلة هادئة .. عمل دؤوب فى المدرسة .. وترتيب وتنسيق فى البيت مع أمسيات جميلة تنسقها عايدة كل ليلة ، حيث نتناول عشاءنا على التراس حيث تهدأ الحرارة ليلا .

كانت الصلة مقطوعة تماما بين عايدة وأسرتها من سبتمبر سنة ١٩٤٤ حتى فبراير سنة ١٩٤٥ .

فى فبراير وصل عايدة خطاب من والدتهـــا ..... كانت فرحـــة غامرة لعايدة ..

كان حب عايدة لأسرتها أصيلا قويا .. لم تفترق عنهم الا لتسق حياتها مع الرفيق الذى اختارته .

أنبأتها والدتها بأن الأسرة الآن بعد أن تم الزواج بالفعل راضـــيه بكل ما حصل ... وأن أختها الصغرى قد خطبت وتحدد ميعاد زواجها قريبا ، وأن الأسرة ترجو أن تحضر الى القاهرة لحضور حفل الزواج ولكى يتم الصلح مع العائلة تماما ، وأنهم مستعدون لارسال مصاريف السفر ذهابا وايابا مع تحيات الأسرة وخصوصا الوالدة لشخصى .

أطلعتنى عايدة على الخطاب وطلبت منى المشورة ...

فأجبتها أننى سأحجز لها مكانا الى القاهرة فورا حتى تصل فى الميعاد قبل حفل الزواج .

قالت انها ترجو ألا يكون هذا طريقة لحجزهـا فى القاهرة مرة أخرى .. فضحكت وقلت .. انك زوجتى الآن وحجزك يكون جريمة حتى اذا حدث هذا دن اخوتك ، ولا أعتقد أنه سيحدث فوالدتك وهى سيدة فاضلة كما عرفتها لن تفكر فى شىء مثل ما تفكرين فيه ...

سافرت عايدة الى القاهرة الى أسرتها وقد حرصت على أن تأخذ معها بعض الهـدايا البسيطة نظرا لظروفنا المالية الحالية ، وقد أعطيتهـا لوحة صـغيرة من عملى « طبيعة صـامتة » لتقدمهـا هدية زواج لأختها الصغرى ...

عادت عايدة بعد بضعة أسابيع وقد انقشعت سحابة خفيفة كانت تحوم على صلتها بالأسرة وبدأت حياتنا تستقر أكثر .

سافرنا فى الأجازة الصيفية الى القاهرة وهناك تقابلت مع أحـد الانجليز « جرين لو » الذى يعمل فى السودان مسئولا عن تعليم الرسم والفنون التشكيلية كلها .. وكان هذا فى منزل أحد الأصدقاء ، وقد تحادثنا طويلا عن مشاكل تعليم الرسم فى السودان وتكلمت عن تجربتى القصيرة هناك ، وبروز الكثير من المواهب عند الطلبة السودانيين . وقد استمع الى جيدا وناقش للمعرفة .. وكانت لهذه المقابلة وما تبعها من مناقشات حول الفن وتعليم الرسم صدى طيب عند جرين لى Green Lou

فى القاهرة قابلت صديقى الأسـتاذ حامد سـعيد وقد زارنى فى صحيفة الفنان الرسام أحمد صبرى فى الشقة الصغيرة فى شارع الفلكى .

كنت قد أحضرت معى عملين صـغيرين أنجزتهما فى السـودان « بورتريه » صورة شخصية لزوجتى . وطبيعة صامتة والاثنتان « زيت على كنفاى » وقد ترك حامد سـعيد زميله أحمد صبرى ليقول رأيه فى العملين بعد التعريف بى ومقدمة صغيرة عن شخصى .

وكنت سعيدا بأن أسمع رأى أحد المصورين الممتازين فى مصر من الرعيل الأول وطمأننى تماما على الخط الجاد الذى كنت أسير على دربه .

مرت الأجازة الصـيفية بين بعض الزيارات للمتـاحف وزيارات للأسرة وقد توطدت العلاقات بينى وبين أفرادها . وخصوصا الأم ثم أحد الاخوة : الدكتور شفيق شحاته .

عدنا الى الخرطوم وقد حملنا معنا من « الكنفاى » « قماشا للرسم » ما يكفى لوحتين كبيرتين طلبها منا الأخ الاكبر فؤاد شحاته المهندس ،

لتزيين مكتبه الذى يعمل بالمقاولات العمومية من مبان وكبار وخلافه ..
وكان موضوع اللوحتين ما يوحي بهذا اللون من العمل ..

وكنا فرحين بأول تكليف لعمل لوحتين زيتيتين بهذا الحجم ٣٦٠ سم × ١٢٠ سم وكان الموضوع مفتوحا شيقا : العمل ... أى عمل .. وحرصنا قبل السفر أن نزور بعض ميادين العمل للشركة الهندسية لفؤاد والبير شحاته للتعرف عن قرب واختيار ما يناسبنا وما يناسب الشركة والمكان المعد لوضع اللوحتين .

وفى الخرطوم بدأت عايدة وأنا فى التخطيط للعملين على الورق . ومرت عدة شهور فى عملى بحماس فى التدريس وفى الدرس والتخطيط للوحة .

وفى يوم فى المدرسة جاءنى ساعى ناظر المدرسة ومديرها محمد عبد الهادى وطلب منى التوجه الى حجرته لمقابلة أحد الزوار .. وهناك وجدت Green Lou جرين لو الذى قابلته فى القاهرة وقال لى عبد الهادى بك انه يسأل عنك . واستأذنت منه لأذهب بضيفى الى مكتبى وكان فى مكتبة المدرسة التى كنت أهتم بها كثيرا .. وهناك بدأ « جرين لو » حديثه مباشرة فى الموضوع . انه يسألنى اذا كنت أوافق أن أعمل معه فى حكومة السودان لتدريس الرسم ومعاونته فى انشاء معهد للفنون التشكيلية . لتخريج واعداد مدرسين سودانيين للرسم من الطلبة الممتازين فى المدارس الثانوية على أن يرسلوا بعد تخرجهم من المعهد فى بعثات الى انجلترا ومصر ..

وقد بدأ بتوضيح بعض النقاط بالنسبة للوظيفة والمرتب والمميزات .. الخ ... وأخيرا قال انه يعتقد أننى « سمكة كبيرة » وأنه سيعد شباكا قوية .

لم أجبه فورا لاننى كنت مرتبطا مع عبد الهادى بك أولا ومع مدرستى ووزارة المعارف المصرية ثانيا ..

وقلت له اننى سأعرض الأمر على عبد الهادى بك بعد استشارة زوجتى . وعرضت عليه أن يأتى لزيارتنا فى الأسبوع القادم ولنتناول العشاء معا .

قبل جرين لو الدعوة وحددنا الميعاد .

ذهبت الى البيت وأنا مشغول بهذه الزيارة المفاجئة لجرين لو .. قطعا هناك ميزات كثيرة بالنسبة للعمل معه فى حكومة السودان ، ولكن ارتباطى بعبد الهادى بك والمدرسة كان قويا .

كان مرتبى كله لا يتعـــدى ١٧ سبعة عشر جنيها بما فيه علاوه السودان . وما عرضه على جرين لو أضعاف هذا المبلغ ... والدرجة التى سأعين عليها تعطى الفرصة لزيادة كبيرة وسريعة للمرتب مع توفير السكن ومميزات أخرى كثيرة كما أخبرنى .

حكيت لعايدة كيف جرت المقابلة بالتفصيل ، وطلبت رأيها ، ولكنها لم تعط اجابة صريحة مع ميل للقبول يتضح من طريقة ردها وأخيرا قالت لى اذهب الى عبد الهادى فهو الذى سيحسم الأمر ..

وكان هذا بالفعل ...

أجاب عبد الهادى بك على الفور : اقبل فورا . ان عهد السودان بتعيين المصريين فى وظائف مهمة انتهى بفضل الانجليز من مدة طويلة . ونحن نرغب فى ايجاد صلات قوية بالسودان وشعبه والتعليم هو المجال الأمثل فى هذا الوقت بالذات .

جاء « جرين لو » وظل يحدثنا عن مشروعاته بالنسبة لتعليم الفن فى السودان ورغبته الملحة فى مساعد له لتحقيقه .. وأنه يأمل فى أن أوافق على قبول العمل معه لما توسم فى وفيما رآه من أعمالى مع الطلبة فى المدرســة بالخرطوم . وأفاض مرة ثانية فى المميزات التى يمكننى الحصول عليها . وكان يتكلم معظم الوقت بخليط من الانجليزية والفرنسية التى كان يتقنها . حيث أن أمه كانت فرنسية وكان يعلم أن زوجتى تفضل التحدث بالفرنسية التى كانت تتقنها ...

وأخيرا أومأت لى عايدة بالقبول لما حدثتها عما قاله عبد الهادى بك من قبل ومما سمعته من جرين لو وتمسكه بى ...

فقبلت .. ولكن الأمور أخذت مشوارا بالرغم من استعجال عبد الهادى بك لموافقة وزارة المعارف على اعارتى لحكومة السودان .

ثم أفادت أخيرا وزارة المعارف المصرية بالموافقة على الاعارة مع كشف بالدرجة والمرتب ١٢ جنيها شهريا يضاف اليه ٤٠٪ علاوة السودان .

وحينما وصل هذا الكشف والموافقة الى مديرية المعارف السودانية سارع الى «جرين لو» قائلا كيف هذا ان هذه الدرجة والمرتب المذكور فى الكشف لا تعطيك الحق فى الميزات التى وعدتك بها.وسيكون مرتبك أقل بكثير مما ذكرته لك فذكرت له أن هذا هو النظام المتبع فى حـــكومة مصر وخصوصا وأنا حديث فى الوظيفة ، ولكنى فهمت أن جميع المصريين يحق لهم التمتع بالميزات التى يتمتع بها الانجليز فى نفس الوظائف وفى حالتى ـ هى التدريس ....

وذهب جرين لو من عندى قائلا سأبحث هذا الأمر وسأواتيك بما يمكنني عمله من أجلك ·

وأخيرا حضر الى وأخبرني أن مديرية التعليم قد وافقت على اعطائك نفس درجة زملائك من الانجليز ، ولكن بأول مرتب لهذه الدرجة ومعنى ذلك أن مرتبك سينقص حوالى عشرين جنيها شهريا ، ولكنى أعدك أننى سأسعى فى تحسين مرتبك سريعا ·

وبعد أن تشاورت مع عايدة قبلت الوظيفة · حيث بلغ مرتبى فى قفزة واحدة ـ ثلاثة أضعاف مرتبى فى الحكومة المصرية وكنت فى بداية حياتى الزوجية والوظيفية ·

وفعلا تركت المدرسة المصرية فى الخرطوم وذهبت للتدريس فى مدرسة أم درمان الثانوية مع مساعدة جرين لو فى تأسيس أول معهد للفنون التشكيلية فى السودان واستمر عملى فى التدريس لطلبة المعهد عاما كاملا حتى انقسمت مدرسة أم درمان الى مدرستين : واحدة فى حنتوب والأخرى فى قرية تبعد عن أم درمان بضعة كيلومترات « وادى سيدنا » ·

مدرسة أم درمان كانت المدرسة الثانوية الحكومية الوحيدة فى السودان حتى ذلك الوقت فى عام ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦ ·· كان من الممكن لمن يتخرج من هذه المدرسة أن يعمل فى الوظائف العامة للدولة فى كل المجالات ··· ولم تكن كلية غردون التى أنشئت حديثا فى الخرطوم لتمد احتياجات الدولة من الموظفين بالعدد الكافى اللازم لتلك الوظائف ··

ومن بعد فقد تحولت كلية غردون هذه الى جامعة الخرطوم · كان التدريس فى مدرسة أم درمان لجميع العلوم باللغة الانجليزية ما عدا اللغة العربية بالطبع · !

كان نصف الأساتذة تقريبا من الانجليز ، والنصف الآخر من السودانين ثم أضيف مصرى واحد فى عام ٩٤٥ ـ ٩٤٦ ـ لتعليم فن الرسم وكنت أنا ·

كنت أسمع كثيرا عن الدكتور الشافعى وحرمه الطبيبة ، والذى كان آخر مصرى ترك التعليم فى السودان ، وكانت سمعته طيبة للغاية كما كان لحرمه مكانة مرموقة عندهم ، حتى لكان من يريد أن يمدحنى يقول اننى خير خلف للدكتور الشافعى مع اختلاف الاختصاص طبعا ···

كان مدير المدرسة وكانت لا تزال تسمى بالكلية ·· مستر لانج شخصية مهذبة ومثقفة ·· وكان مجاله الأدب الانجليزى الذى يقوم بتدريسه مع ادارته للمدرسة ···

كان يتلطف معى كثيرا ، حيث كان محبا للفن · وكثيرا ما كان يحضر الى مكتبى ليتحدث معى فى مجال الفن ودروبه المتعددة ·

وكان يحرص على دعوتى مع زوجتى الى بعض الحفلات التى كان يقيمها فى منزله · · · ·

كان السـودان فى ذلك الحين تنقسم فئـاته سياسيا الى شقين أساسيين : حزب الأشقاء · ويسانده عثمان المرغنى وحزب الأمة ويسانده عبد الرحمن المهدى · ·

كان اسماعيل الأزهرى يتزعم حزب الأشقاء الذى كان ينحو نحو الوحدة مع مصر · أما القسم الآخر الذى يسانده عبد الرحمن المهدى فقد كان يدعو الى الاسـتقلال وكان حزبه « الأمة » ينحو هـذا النحو · · · بمساندة الانجليز · · ·

كان عبد الرحمن المهدى رجلا قويا جمع ثروة طائلة واستقل هو وأتباعه من « المهدية » جزيرة فى وسط النيل · · جزيرة « آبا » ·

لم يكن عبد الرحمن المهدى يعلن أى عداء لمصر · · بل انى قد حضرت زيارته للمدرسة المصرية فى الخرطـوم (وكنت لا أزال مدرسـا بهـا) وقد دعاه عبد الهادى بك مديرها لهذه الزيارة وكان يمتلأ حماسـة فى مدح جهود مصر فى نشر التعليم فى السودان · · ·

كان الانجليز يساعدونه على طول الخط بل ان ثروته كانت بمساعدة تامة من الحكام الانجليز · · ·

وانى أذكر بهذه المناسبة أن أساتذة مدرسة حنتوب الثانوية قد دعوا الى زيارة « بخت الرضا » الذى كان بمثابة كلية تربية فى ذلك الوقت ، وقد نزلنا ضيوفا على الأساتذة ببخت الرضا « حيث لا توجد فنادق على الاطلاق » وكانت زوجتى معى · · نزلنا فى ضيافة أسـتاذ انجليزى شاب ·

وكنا نتحدث كثيرا فى سياسة التعليم ونتطرق الى السياسة العامة للانجليز فى السودان · وكان هذا الشاب الانجليزى ساخطا تماما على حكومة السودان فى سياستها لأسباب كثيرة وخصـوصا فى سياستها التعليمية التى لا تصلـح الا لتخريج موظفين روتينيين وكفى · · · أما الشخصية فليس لها مكان فى السياسة التعليمية ·

وفى جلسة مع عميد بخت الرضا ـ وكان انجليزيا قد زار الجامعة فى نيوزيلندة ـ حيث كان لفيف من الأسـاتذة الانجليز والسودانيين حاضرين جعل يحكى عما شاهده فى تلك الجامعة حيث كان أعلى مرتب

فيها ليس للأستاذ ولا للعميد ـ ولكن لنجار المدرسة ... وكان هـذا بمناسبة الحديث عن مرتبات الأساتذة والتفاوت الكبير بينها ، بالنسبة للسوداني والانجليزي · وكذلك المصرى الذى كان محتما أن يعامل مثل الانجليزى طبقا للمعاهدة التى كانت بين مصر وانجلترا ·· وحيث لم يكن فى حكومة السودان فى ذلك الحين فى التعليم سوى عدد قليل يعد على أصابع اليد الواحدة فكان الحديث ينصب على الانجليز ...

وقد تحول الحديث عن هذا الموضوع الى السياسة وعبد الرحمـن المهدى الرجل القوى ذى الثروة الطائلة والأتباع الكثيرين والنفوذ الكبير · وقد تطرق الحديث عن هذا الرجل وكيف وصل الى هذا المركز وهذه الثروة ، وقد انبرى أحد الأساتذة السودانيين يعدد مواهبه اذ أنه خليفة المهدى الكبير الذى قام بالثورة على غردون ، واكتسحت الثورة السودان بأكمله ذاكرا أن عبد الرحمن المهدى كان « Self made man » ، أى أنه رجل عصامى كون نفسه بنفسه · ولكن بكل بساطة وهدوء قال عميد « بخت الرضا » ان عبد الرحمن المهدى كان « Government made man » أى أن حكومة السودان هى التى صنعته : وكان هذا حقيقيا فى جانب الاقطاع والثروة . فالحكومة هى التى أقطعته جزيرة « آبا » ·

لقد كان عبد الرحمن المهدى بصرف النظر عن كل هذا ـ رجلا قويا وله أتباع كثيرون يؤمنون به سيدا مطاعا بغير نقاش ·

كان الكثير منهم والكثير جدا يركعون أمامه ، وعلى البعد بمسافات ·

كان الرق ما يزال متواجدا فى السودان بدرجات حتى هذا التاريخ ، خصوصا فى كردفان ودارفور ، فكان معظم الرعاه من العبيد الذين تعقر كعوب ارجلهم حتى لا يستطيعوا الفرار بعيدا . ويظلوا هكذا عند أسيادهم حتى تنتهى حياتهم طبيعيا أو بالقتل اذا ما حاولوا الفرار ·

كنت فى مكتبى بمدرسة حنتوب فى يوم ما ، وكان بجوارى فى نفس الحجرة مكتبان لأستاذين سودانيين مساعدين ··

عتبانى وجمال ·· وكانا صحبة طيبة متفاهمة ··

وحدث ذات يوم أن زارنا شاب من أقرباء المهدى وكان يدرس الفن فى باريس وكان زميلا وصديقا لجمال مبارك الأستاذ المساعد الذى درس الفن فى انجلترا · وبعد التعارف طلب له جمال بعض المشروبات من احد الفراشين ، ولدهشتى الشديدة لاحظت أنه بمجرد أن رأى الفراش الشاب المهدى ـ ترك ما فى يده وركع على ركبتيه واجفا متقدما لتقبيل قدمى الشاب ، ولكن سرعان ما استحى الشاب ونهره ليقف على قدمه ... ثم خرج ... ولم يعد ثانية ··

وقد شرح لى جمال مبارك أن هـذا هو المتبع فى أتباع المهـدى . وخصوصا فى جزيرة أبا ولكن هذه العادة بدأت تختفى رويدا رويدا ... وانها لا تشجع الآن من آل المهدى .

عاصرت هذه الأحداث فى مدرسة حنتوب التى كانت من نصيبى عند قسمة مدرسة أم درمان ، أقيمت مبانيها على الشاطىء المقابل لمدينة واد مدنى ولم يكن هناك أى مواصلات بين المدرسة والمدينة سوى مركب « معدية » ...

كان اختيار المواقع هذه لكى يبتعد الطلبة تماما عن المناخ السياسى المسيطر فى أم درمان والخرطوم والتفرغ للدراســـة والبعد تمـاما عن السياسة ..

ولكن هل نجح فى ابعاد الطلبة فعلا عن السياسة ؟ ..

لقد استبقت الحوادث ، فقد جاءت مدرسة حنتوب والكلام عن المهدى وأتباعه لاحقة لحقبة كان لها أثر عميق فى تكوين رؤيتى للحياة .. للطبيعة .. للناس ..

فى أم درمان وفى مكتبى بالمدرسة فاجأنى مستر « لانج » مدير الكلية بزيارة قصيرة .. وكنا على أبواب الاجازة المدرسية الصيفية ..

سألنى لانج اذا كنت أريد أن أزور جنوب السودان بدلا من قضاء أجازتى فى مصر ذاكرا أن الرحلة ستكون على حساب الحكومة . ولن يطلب منى شيئا سوى تقرير مفصل عن مدارس الارساليات التعليمية والتبشيرية بجنوب السودان . وأردف قائلا انه يرغب فى أن أرى الجنوب بصفتى فنانا تشكيليا .. أما التقرير المطلوب فهو السبب المعطى لمديرية التعليم للصرف على هذه الرحلة .

فرحبت بهذه الرحلة وسألته اذا كان من الممكن اصطحاب زوجتى معى فقال طبعا ، ان الترتيب معمول لك ولحرمك . فشكرته فقال انه أحب فعلا أن أرى الجنوب بغاباته وناسه وجباله وطبيعته الفذة .

ذهبت الى البيت وذكرت لعايدة ما حدث فرحبت بالفكرة قائلة ان لانج رجل رقيق وحساس فأرجو أن تشكره بالنيابة عنى .. وتساءلت هلا يمكننا زيارة الجنوب ثم القاهرة بعد ذلك .. قلت أعتقد أن هذا من الممكن فالأجازة ثلاثة شـهور يمكن تجزئتها : اثنان لجنـوب السـودان ويكفى شهر واحد فى القاهرة أو العكس حسب ما نرى وما سنرى فى الجنـوب .

كانت الأجازة على الابواب وبدأنا نحضر للرحلة ...

انها الغابة .. الوحش .. الحياة البدائية .. النيل العظيم والرحلة المتعة فوق مياهه .. انها متعة لاشك فيها .

لم نتردد لحظة واحدة بالرغم مما قيل لنا من صعوبات بل ربما اخطار . فالمنطقة مليئة بالوحوش المفترسة والحشرات القاتلة . والأمراض من الحمى الصفراء – الى الملاريا . الى مرض النوم .. هكذا كنا نسمع ... ولكن كان هناك الجانب المشرق دائما فيما كنا نسمع عن الطبيعة فى بكارتها وعنفوانها : فى الأشجار الضخمة التى كانوا يبالغون فى أحجامها بعض الشيء وهذا كنا نفهمه تماما .

ان كان الطفل الصغير اذا رأى شيئا ما أكبر من حجمه يصف ضخامته بأكثر من حقيقتها عشرات المرات . وكان هؤلاء الواصفون لما رأوه فعلا كهؤلاء الأطفال يبالغون فى حجم وارتفاع الأشجار أضعافا مضاعفة لأنهم ما كانوا يصفونها بل يصفون الاحاسيس التى ولدتها ضخامتها وارتفاعها.لقد فهمنا هذا فى ذلك الحين...ولكن هذا الفهم السيكولوجى للمبالغة تغير تماما لما رأينا الطبيعة الشامخة أمامنا . لم تكن هناك أية مبالغة .. !

بدأنا نعد ما نحتاج اليه فى السفرة الطويلة ..

بادىء ذى بدء .. الطباخ .. والخادم .. ولكن لم نستطع الاتفاق الا مع الطباخ وقد وعدناه بمضاعفة أجره طوال الرحلة ، وبمكافأة سخية بعد الرحلة .. وكان الطباخ هذا من أهل « السودان الفرنسى » فى هذا الوقت ، وهو مجاور لمناطق جنوب السودان ويعرف الكثير عن طبيعة هذه المناطق ..

وبدأنا نشترى ما يلزم للرحلة : سراير سفرى .. ناموسيات .. كرسيين يطبقان . بعض الأوانى الخفيفة .. الكثير من الطعام المحفوظ .. كل ما يلزم للطبخ من أدوات وموقد وخلافه ، وتكفلت عايدة باتمام كل ما يلزم .

ثم بدأت أنا فى حجز أماكن السفر ..

أولا : أماكن فى القطار من الخرطوم الى كوستى .

ثانيا : أماكن فى الباخرة من كوستى الى جوبا .

ذهبت الى محطة القطار والى مكان الحجز واستقبلنى أخ سودانى وافهمته أننى أرغب فى السفر الى كوستى ثم بالباخرة الى جوبا .. وكان

لأول وهلة على أتم استعداد للقيام بالحجز المطلوب ، ولكن من حديثى له بالعربية باللهجة المصرية ــ فهم أننى مصرى ، بالرغم من بشرتى البيضاء التى قد توحى فى بعض الأحيان بأننى « أجنبى » انجليزى . ومع ذلك فقد رد ردا مهذبا للغاية مع أسفه الشديد لأن القطار الذى سيقوم فى الميعاد الذى حدده هو للحاق بالباخرة لا يوجد به أى محل خال فكله محجوز . فقلت له والقطار التالى الذى يلحق بالباخرة التالية فبدأ يبحث فى أوراقه واعتذر بأن القطار التالى والباخرة التالية أيضا كل الأماكن فيها محجوزة مسبقا . ثم قال انه ربما اذا حضرت اليه يمكن أن ألحق بالباخرة التى تبحر الى جوبا بعد شهر من تاريخه على أن أحجز الأماكن من الآن .

كان الأخ السودانى فى غاية الأدب فى ردوده معى وقلت له انى شاكر ، ولكنى مقيد بفترة زمنية معينة لهذه الرحلة ولا يسعنى ازاء هذه الظروف الا أن ألغى الرحلة تماما وسأبلغ مدير مديرية التعليم بهذا القرار .

وعندما سمع الأخ اسم مدير مديرية التعليم قال لى وأنا راحل : ربما اذا عدت الى بعد أسبوعين قد أجد لك أماكن . فشكرته وانصرفت .

ذهبت فى اليوم التالى الى مستر « لانج » مدير الكلية وذكرت له ما حدث مع الموظف القائم بالحجز ، فضحك لانج وقال :

اذهب غدا لهــــذا الموظف وسيحجز لك الأماكن التى تطلبهــــا . فاستفسرت منه كيف يكون هذا وقد قال لى ان الأماكن محجوزة ..

قال لانج : انه غير مسموح لأى شخص أن يذهب الى جنوب السودان بغير اذن من الحكومة .. وخصوصا المصريين والسودانيين الشماليين . اذا لم يكن لهم عمل حكومى فى هذه المناطق .

كان ردا حاسما من لانج .

ثم زاد لانج : غدا صباحا سنعطى الأمر للموظف المختص بحجز مكانين فى التاريخ الذى طلبته ..

وفعلا ذهبت فى اليوم التالى وقابلت نفس الموظف . فقابلنى ببشاشة ولطف . واعتذر لى بأنه مقيد بنظام معين ، والا ناله عقاب صارم . وأن اشارة تليفونية وصلت للتو بعمل الحجز اللازم لى ولزوجتى . وأنه سعيد بهــذا لأننى من المصريين القــلائل جــدا الذين ســمح لهم بزيارة هذه المناطق ..

فهمت كيف كان الانجليز يعملون على فصل الشمال عن الجنوب بدءا بالسيطرة على وسائل الاتصــال بينهما . مضافا الى ذلك الكثير

مما شاهدته خلال تلك الزيارة ٠ كانت سياستهم تتسم بالتخطيط للمستقبل القريب والبعيد ومع الصبر والنفس الطويل أثمرت سياستهم حتى بعد خروجهم من السودان على مراحل ٠٠٠ لنجد الآن كيف تكتنف المصاعب السودان بشطريه حتى وصلت الى الاقتتال بينهما !

فقد منع الانجليز اختلاط الشمال بالجنوب وحاولوا القضاء على انتشار اللغة العربية فيه ، وحتى الانجليزية ، حتى لا تتوحد القبائل ـ التى تتكلم عشرات من اللهجات واللغات ـ حول لغة واحدة سواء كانت العربية أو الانجليزية ٠

اعتزمنا الرحيل ٠٠ وفى اليوم المحدد للسفر افتقدنا الطباخ تماما ولم نعثر له على أثر بعد أن كان الاتفاق تاما بيننا ، وقد اعطيناه أجر شهرين ليتركه لأهله ٠٠٠

وكاد هذا يصيبنا ببعض المضايقة لولا أنه لم يكن فى الامكان غير ما كان ٠

ذهبنا الى محطة القطار مع حاجياتنا التى شحناها رأسا الى جوبا وأبقينا ما نحتاج اليه أثناء الرحلة ٠

غادرنا الخرطوم فى تمام الساعة السابعة والنصف مساء ٠

القطار يسير متمهلا ، الطريق غير مأمون تماما هناك بعض الأمطار بداية « الخريف » كما يسمونه ٠٠ فصل الأمطار يوليو وأغسطس ٠٠٠

يقطع القطار صحارى قفارا لا نبت فيها سوى شجيرات تفرقت على طول الطريق ٠٠٠ تتباعد وتتفرق كلما اقتربت منا ، وتتقارب فيما بينها وتغزر على البعد ٠٠ خداع نظر ليس الا ٠٠٠ لقد نبتت على قطرات المطر ٠

القطار بطىء للغاية وفترات وقوفه وانتظاره فى المحطات تكاد تتعادل مع ما يقطعه من وقت فى سيره ٠

الجو صاف يميل الى الحرارة ، ولكن الخوف كل الخوف من الأمطار التى نتوقعها فى أية لحظة ، ولهذا يبطىء القطار ، وتزيد فترات وقوفه ٠٠ ليسأل عن أخبار المطر كلما تقدم نحو الجنوب ٠٠٠ !

تركنا الخرطوم وكانت الأعصاب مشدودة فى الآونة الأخيرة ٠ لم يكن لى أى نشاط فنى خلال الشهور الثلاثة الماضية سوى التدريس ٠٠٠ ولكن تدريس الفن شىء والخلق الفنى شىء آخر بالمرة ٠ أن تعيش

مع نفسك ومن خلال الخلق الفنى مع الناس شيء ، وأن تعيش مع الناس ومن خلال هذه المعايشة مع نفسك فهذا شيء آخر ..

كنت أشعر بشيء من الطمأنينة والأمان اذ أعيش مع نفسى .

كنت أعول على هذه الرحلة لاسترد بعض الهدوء مع نفسى ..

لم أصطحب معي سوى كتاب واحد لتولستوى كان رائعته War and Peace الحرب والسلام .. الترجمة الانجليزية ..

كانت صحبته ممتعة ...

وصلنا الى مدينة « كوستى » فى السابعة صباح اليوم التالى ، بعد رحلة هادئة تمتعنا فيها بنوم عميق على هزات القطار وصوت عجلاته على القضبان . نعم ... فلقد أصابنا التعب والارهاق وكذا التوتر .. اثر المجهود الشاق الذى بذلناه فى الاعداد ، وهروب الطباخ الذى زاد من أعبائنا ، وخوفنا من مشاق الرحلة بدون مساعد .

تناولنا الافطار فى الساعة الثامنة .. وأخبرنا بأن المركب ستبحر الى جوبا من ميناء صغير يبعد عن كوستى مسيرة ساعتين بالسيارة السريعة ، وذلك لانخفاض النيل فى ذلك الوقت . وبالفعل استقبلنا عربات التاكسى لكل اربعة منا واحدة بعد أن شحن متاع الجميع فى عربات النقل .

كانت الرحلة شاقة فى الصحراء ... كثيرا ما كانت السيارات تتعطل اثناءها أكثر من مرة ، وذلك لحرارة الجو وتأثير ذلك على موتور السيارة فكان لابد من تبريده بالماء كل ربع ساعة تقريبا ..

صادفنا « كوبرى » يمر عليه القطار وعلى جانبى الكوبرى مساران للسيارات فى الاتجاهين وكل من المسارين لايكاد يتسع لمسار السيارة الواحدة الا ببضع بوصات . وقد مرت عليه السيارات بسرعة جنونية مدة خمس دقائق متلاحقة حبسنا فيها انفاسنا .

وصلنا الى الميناء الصغير حيث ترسو الباخرة التى ستنقلنا الى جوبا ، وانتظرنا فوق ظهر المركب وفى الكابينة التى تخصنا يوما كاملا فى انتظار « الصندل » الذى سيلحق بالمركب .

وبعد أن تم الحاق وربط « صندلين » بجوار المركب .. أبحرت بنا فى صبيحة اليوم التالى ..

تغير الحال فبدت نسمة تهب اذ تحرك المركب ، تلطف الحرارة ، ومن ثم فقد أخذنا مقاعد مريحة على سطح المركب وقد غطى الجزء الأكبر

منها بغطاء من « سلك النملة » لتحـــاشى البعوض ولدغاته والكثير من الحشرات . وفى حمــاية هــذا الغطـــاء بدأنا نمضى فى القراءة معظم الوقت ، وفى أوقات أخرى تجذب انتباهنا المنـــاظر الرائعة التى تحف بشواطىء النيل بغاباتها الخفيفة فى بداية الرحلة ، والجزر الصغيرة التى تبرز فوق مياه النيل وقد غطتها آلاف الطيور والنباتات الخفيفة على حواف الشـــواطىء ..

رجال قد غطوا عوراتهم بقطع من قماش يقطعون الأخشاب من الغابات الخفيفة .. يرصونها بجوار بعضها البعض على سطح الماء ثم على ظهرها يبحرون حيث يتم بيعها ..

الأشجار على ضفتي النيل تبدو فى ألوان غير عادية ، بين الأحمر القانى والأصفر الفاتح ، ويتوسط بينهما الأخضر والرمادى ثم البنى . تعلوها زرقة فى السماء ورماديات تميل الى البياض حيث تتجمع بعض من سحب تنذر بمطر قد يكون قريبا ، ولكن الهواء يهب ساخنا محملا بالأتربة . ثم تلك المساحات الشاسعة وقد اندلعت فيها النار تحرق الحشائش للتخلص منها لتجهيز الأرض لانبات الحب ، وقد لاح فصل الأمطـار .

كان بصرى يتعقب هذه الألوان فى انتقالاتها فى استمتاع غامر . ثم تلك القطعان من الماشية التى ترعى على الشاطىء يحرسها رجال يحملون الحراب الطويلة .. بينما بعض من أطفالهم يتعقبون البقر الشارد ..

فى صباح اليوم التالى .. استيقظت فى منتصف الخامسة على أصوات وجلبة ونداءات متكررة : المركب جنحت فى الوحل والحشائش والرجال يحاولون خلاصها .

ثلاثة من الرجال ... رؤوسهم محلوقة .. ملساء تلمع .. أجسام ممشوقة .. عضلات قوية .. حملوا الهلب ذا الأربعة قناطير من الحديد .. وضعوه فى « فلوكة » صغيرة وجدفوا بها حتى أواسط النهر ثم ألقوا بالهلب الكبير المربوط بسلوك من الصلب الى المركب الكبيرة ثم بدأ البعض الآخر من على ظهر المركب جذب السلك المربوط بالهلب بعد أن رسا فى قاع النهر .. وذلك باستعمال « ونش » قوى مثبت فى المركب ، وادارة عجلته لجذب الهلب وبذلك تتحرك المركب نحو الهلب رويدا رويدا حتى تتخلص من جنوحها فى وحل واعشاب الشاطىء .

مضت أكثر من ساعتين من العمل الشاق لكل بحارة المركب حتى أمكن تخليصها من جنوحها ، وقد استوت فوق سطح الماء فى وسط النهر ، وتهيأت للابحار .

صفت السماء تماما ·· الهواء بارد لطيف · ما زلنا فى منتصف السابعة صباحا ··· المركب تسير فى يسر ·· الماء يضطرب وتنبعث أمواجه خفيفة متباعدة كلما لطمه الهواء فى رقة وخفة ، ولكن فى مقـدمة المركب حيث كنا نجلس نراقب حركة الماء فى تلاطمه مع الريح تارة ومع مقدمة المركب التى تشـقه شـقا وبلا هوادة فيرتفع رذاذ الماء حتى تبتل وجوهنا بذراته المتناثرة ·· باردة لطيفة ومستحبة ···

دق « الجرنج » الجرس معلنا ساعة الافطار وذهبنا حيث تناولنا افطارا غنيا على الطريقة الانجليزية · سمكا وبيضا ولحما وجريب فروت وخلافه ، مع الشاى طبعا ·

وعدنا الى مقاعدنا المريحة فوق ظهر المركب ·· وكانت عايدة تقرأ تاريخ الفن لالى فور بالفرنسية ، وكنت أنا مع رائعة تولستوى « الحرب والسـلام » ·

كنا نجلس متجاورين صامتين بين القراءة وتأمل المشاهد حيث تتوالى الواحد تلو الآخر على ضفتى النيل ·· تحفها الغابات الخفيفة وتنتشر على سطحه جزر صغيرة تنمو على سطحها الأعشاب فى غزارة وقوة والمركب تسير بتؤدة وتمهل عكس سير ماء النيل وتسلك الطريق بين انحناءاته واستقاماته فى حذر من القبطان ، الذى يبدو أنه على معرفة بالطريق السوى بين هذه الجزر المنتشرة ، والانحناءات التى تضيق كثيرا فى بعض المراحل ···

فاجأنا ظهور أول تمساح ولم يكن ظاهرا منه سوى رأسه الممتد فوق سطح الماء ، ولم نكد ننتهى من هذه المفاجأة حتى ظهر على البعد راس ضخم يبدو فوق سطح الماء لم أتبينه بالعين المجردة · استعنت بالمنظار فاذا بى اكتشف عددا كبيرا من الرؤوس الضخمة ·· كانت لأفراس النهر « سيد قشطة » كما كنا نسميه فى حديقة حيوان الجيزة ·

لقد شدت أفراس النهر وظهور أول تمساح العديد من الركاب — وكلهم من الانجليز — فأخذوا يتقاطرون نحو أعلى المركب لمشاهدتها ·

استرحنا « فى القمرة » بعد تناول طعام الغذاء بعضا من الوقت وعدنا الى مقاعدنا فى أعلى المركب لمشاهدة ذلك النيل العظيم وهو لايكاد يستقيم فى سيره الا قليلا ، ثم ينحنى وينحنى وكانت هذه الانحناءات الضيقة تؤثر فى سير المركب كثيرا ، وكذلك تلك الجزر النائية فى عرض النيـــل ···

هاهى احدى هذه الجزر التى لا تمتد أكثر من مترين عرضا وعشرة

طولا ، وعشرات بل مئات من الطيور المائية تعلوها · وبين تلك الطيور – لدهشتنا – يربض أو ينام أربعة من التماسيح التى يزيد طول كل منها على خمسة أمتار · واقتربت المركب من هذه الجزيرة ، فتصحو التماسيح على صوت محركات المركب وتنزلق فى الماء خائفة مذعورة ، ولكن يظل واحد منها نائما بلا حراك لا يأبه على الاطلاق بوجودنا ·

بجعة كبيرة الحجم مقتولة تتناثر ريشها على سطح الجزيرة · هل كانت فريسة لأحد هذه التماسيح ؟

فراخ الطير الصغيرة تعد بالعشرات تطعمها أمهاتها فى أمن بينما يرقد تمساح كبير على بعد بوصات قليلة منها ·

تركت المركب والجزيرة الصغيرة ببجعتها المقتولة وريشها المتناثر والفراخ الصغار تطعم من أمهاتها وذلك التمساح الضخم بجوارها ساكنا ··· هذه الصورة لم تترك مخيلتى أبدا ·

مرت المركب بين عدة جزر صغيرة منتشر فوقها العديد من التماسيح متمددة فى تكاسل تام وحولها طيور شتى وما تكاد المركب تقترب من احدى هذه الجزر حتى تقفز التماسيح دالفة الى الماء وقد أزعجها ضجيج « موتور » المركب ·

وكانت أفراس النهر تنتشر فى قطعان بالعشرات وكانت رؤوسها الضخمة تظهر فوق سطح الماء تتجمع وتتفرق كلما قربت منها المركب ··

عند الغروب تغير المنظر تماما ···

هدأ الجو هدوءا غريبا فى ثقل ، حيث اشتدت الحرارة فى زمت ، وسكن الماء سكونا تاما كانت له رهبة ·

اتسع النيل وتلاشت الجزر الصغيرة من على سطحه ، وبدت صفحة فضية ناصعة انعكس عليها ضوء الشمس الغاربة : الأحمر · الشاطىء ينحنى فى تؤدة ورفق بلونه الأخضر القاتم الذى يحد تلك الصفحة الفضية الحمراء حدا يبلغ القسوة فى حديته ، ومن فوق هذا كله انتشرت على صفحة السماء الزرقاء بعض من سحابات رمادية باهتة هندسية التكوين ·

تماسك المنظر فى تكامل شكله وألوانه ، وفى ذلك السكون المهيب الذى أضفى عليه نوعا من الرهبة ··· نوعا من القدسية ·

كانت أحاسيسى ترتفع مع قدسية تلك الومضات من طبيعة المكان وهأنذا أستعرض فى مخيلتى فيما بعد كل ما رأيته من كل ما سجله

الفنان التشكيلى على لوحاته من الطبيعة ـ فلا أجد بينها ما بلغ هذه القـمة ·

أشعر بضآلة الانسان أمام هذا الجلال المقدس ·

في اليوم التالى تلبدت السماء بغيوم ثقيلة واشتد الحر وتوقعنا المطر · انها المنطقة الاستوائية ·· بحرها وأمطارها الصيفية الغزيرة ·· لكنها لم تمطر ··

فى الصباح الباكر هرعنا الى أعلى المركب حيث الهواء قد برد وتلطف والشمس فى خدرها لم تستيقظ بعد ، وعلى الشاطىء بعض من سكان المنطقة يراقبون المركب فى سيرها شـبه عراة لا تسترهم غير قطعة من القماش يشد طرفها على الكتف اليمنى والطرف الثانى يشد على الوسط ولكنها فى واقع الأمر لا تستر شيئا بالمرة ·

والكثرة منهم عراة تماما كما ولدتهم أمهاتهم رجالا ونساء · والبعض من الرجال يعيش على رعى البقر ، وهم مسلحون بحراب طويلة مدببة والبعض الآخر يقوم بقطع الحشائش النامية على الشاطىء وجدلها على شكل الحصير (البرنس) ·

وقد لفت انتباهنا نفر منهم يحزمون أعـوادا من الخشب الخفيف المقوس من طرف واحد ·· يحزمون ما يقرب من عشرين عودا بطول مترين تقريبا بالحبال المفتولة من الحشائش ، وتصبح بعد حزمها جيدا على شكل قشرة ربع البرتقالة ، وبهذا يصنعون زوارقهم السريعة يجدف فيهـا ستة أشخاص ···· فتمرق تشق الماء فى سرعة مذهلة ·

هناك على الشاطىء الآخر أحدهم يعد سنارته لصيد السمك ، وهى عبارة عن عود من البوص مدبب من طرف ومقوس من الطرف الآخر يشدهما حبل كالوتر ـ فى قوة ـ ويمسك الصياد هذه السنارة من الطرف المقوس ويضرب بها السمك فى المياه القريبة من الشاطىء ·· وعندما يفلتها من يده تسير فى سرعة وقوة بضعة أمتار داخل الماء ·· ان الوتر المشدود له تأثير على شدة الضربة وسرعتها ·· على ما أعتقد ·

عند الظهر وصلنا الى بلدة صغيرة اسمها « ملوت » بها بعض المبانى الحجرية التى لم تر مثلها منـذ برحنا « كوستى » وتلك المبانى الحجرية يحيط بها أكواخ من البوص بعضها على شكل مخروط مركب على اسطوانة والبعض الآخر على شكل منشور ثلاثى مركب على متوازى مستطيلات ويقيم فى هذه البلدة بعض الموظفين البريطانيين ·· وقد ركب أحدهم ومعه زوجته المركب حتى بلدة « ملكال » ·

وقد لاحظت أن الكثير من سكان هذه البلدة قد ستروا عريهم بملابس كاملة ، وأن اللغة العربية سائدة ، وكنت أسمعها بوضوح وهم يتحدثون مع عمال المركب · ربما يكون اختلاطهم بالموظفين والأهالى الذين جاءوا من الشمال قد حفزهم على أن يحذوا حذوهم فى اللباس وتعلم العربية . خصوصا وأن البلدة التالية · ملكال ·

هى مدينة كبيرة نسبيا وبها مدرســـة مصرية وأســـاتذة مصريون وموظفون سودانيون من الشمال والكثير من البريطانيين · كما أن بها مسجدا بنى حديثا بجهود المصريين والحكومة المصرية · والغالبية العظمى ترتدى الملابس ، ولكن ما زال العديد من قبائل الشلوك عراة امتشقت قدودهم ·· سمهرية فى استقامة وطول يبـارى طول واستقامة حرابهم المشدوقة فى أيديهم على الدوام ·

ان ملكال محطة مهمة للمركب فى رحلتها للجنوب حيث انها تحمل للبلدة البضائع والبريد وكل ما يلزم ·

وأثناء رسو المركب فى ملكال كان يأتى بعض من زعماء القبائل المجاورة لزيارة المركب وهم يعرفون موعد وصولها المنتظم ، يبيعون الدجاج والبيض وغالبا ما تشترى ادارة المركب كل ما يحملون ، فالرحلة الى جوبا طويلة والمطعم يحتاج دائما لكل ما يحملون ·

ولكن ما جذب انتباهنا أنا وعايدة ذلك النقش الرائع الذى يجملون به أجسادهم من زخرفة وألوان · فوجوههم برتقـالية ، وشـعورهم فى « تسريحة » جميلة ··· بيضتين مدببتين تنفرجان من خلف وقد صبغ الشعر باللون الأصفر الذهبى الذى قيل لى انهم كانوا يدلكونه بالزيت ويتركونه للشمس حتى يتغير لونه الى ذلك اللون الأصفر الفاتح · ولزيادة التجمل يضعون فيه الريش ، واحدة قد تكفى · ويكتفى معظمهم بحزام من القماش يربط على الوسط لايكاد يخفى الكثير من عورتهم ··

ولكن الأثرياء منهم يتجملون فى لباسهم بأنماط رائعة فى التنسيق والتزيين ، على الرأس ·· طاقية ·· رصعت بالأصداف وقطع الخشب والعظام الدقيقة ·· كلها نحتت وصقلت ثم خيطت فى القماش ·

وعلى جبينه خيط معلق من (خيريات) من الصفيح الأصفر ، وعلى صدره صفوف من عقود تكاد تبلغ العشرة ملصوقة بالقواقع وقطع الخشب والعظام ·

والذراعان تتحليان بأساور من خشب ومن معدن ومن كل ما أمكن الحصول عليه من مواد ··

وفى الوسط حزام كبير صنع بنفس الطريقة والتركيب الذى صنع به غطاء الرأس من الأصداف والعظام والخشب ، والخرز الزجاجى .. كل هذا قد رتب وصف فى نظام وانسجام تام حتى لتعجز يد الفنان الواعى عن تصفيفه وتنسيقه بأحسن .. بل بمثل ما قام به ذلك الشلوكى « المتبربر » . وقد وقف وقفة المفتر الفخور بجسده المشوق ، ولباسه المزركش المتناسق مع ذلك القد السمهرى .. يرتكز على حربته التى لا تفارقه أبدا .

حقا لقد شعرت فى لحظة أن لباسى قد تضاءل فى قبحه أمام لباس ذلك الجبار الملون ..

ملكال ميناء كبير .. وهى بلدة غريبة لا تمت الى الطبيعة فى هذه المنطقة ..

الصنادل العديدة تصطف على رصيف الميناء ، وهناك الباخرة « مصر » Egypt التى تتبع الرى المصرى ــ تقف هناك .

وتعتبر الملكال من أهم محطات الرى المصرى فى السودان . وبها مستعمرة كاملة يقطنها أكثر من خمسين من موظفى وعمال الرى المصرى فى السودان وعائلاتهم .. كل منها لها سكنها الخاص ، وحديقتها الخاصة ، يزرعون فيها الزهور والخضر .

وبالمستعمرة محطة لتوليد الكهرباء ، وأخرى لترشيح المياه وتنقيتها ، ومعمل للثلج ، وبها أقيمت المصانع والورش لاصلاح البواخر وبناء المنازل والاستراحات ، وجميع أشغال النجارة والحدادة وغيرها .

وعلمت أن المركب ستقف فى الملكال نحوا من ساعتين .. فانتهزت الفرصة ونزلت من المركب مع عايدة لنزور قسما من المدينة . وقابلنا أحد المهندسين المصريين سرعان ما احتفى بنا عندما علم أننا من مصر . اصطحبنا فى زيارة داخل المستعمرة شارحا لنا كل ما نراه : ناديا مصريا فخما للموظفين به ميادين للتنس وحماما للسباحة وحدائق معتنى بها .

وفى وسط البلدة سوق للبيع والشراء .. يأتى اليه الأهالى من « الحلل » أى القرى المجاورة ليبيعون ويشترون ، والكل تقريبا عرايا تماما كما ولدتهم أمهاتهم من رجال وبنات غير متزوجات ، أما المتزوجات فهن يشددن فى وسطهن حزاما يتدلى منه قطعة من جلد أو قماش مقسمة الى سيور مدلاة منها ، لتستر عورة المرأة المتزوجة ...

المهر للزواج عند هؤلاء لايتجاوز بضع بقرات أو قطيعا صغيرا من عنزات ...

الحكومة فى هذه البلدة تمثل بمحاكم « مفتش » ـ انجليزى ـ ومساعد له ـ انجليزى ـ ثم مأمور سودانى .

كما يوجد بها مكتب للبريد والبرق .

تركنا الملكال غير آسفين .. ان جوها خامل ممل ، أبنيتها شذت تماما عن طبيعة المنطقة . لقد افتقدنا منها تلك « القطاطى » جمع « قطية » : أكواخ بنيت بالخشب والقش وقد انتشرت فى انسجام تام مع الطبيعة والفطرة السمحة . ان طفرة «المدينة» « اذا تجاوزنا عن مدلول المدنية » جاءت فى غير انســـجام مع الطبيعة والبيئة والمجتمع البدائى الحال والمحيط بها ...

سارت المركب فى بطء وحذر : النيل فى انحناءات بعضها الى اليمين والآخر الى اليسار .. بعضها يلتوى فى حدة وعنف ، وقد يضيق المجرى كثيرا حتى لا يزيد اتساعه عن اتساع ترعة عادية فى مصر .

مرت ساعات والمركب تسير فى بطء وحذر حتى لاتجنح على الشاطىء.
لم نر أفراس النهر أو التماسيح طوال تلك المدة : ساعات طويلة ، ولكن ظهرت فجأة أمامنا جزيرة صغيرة وسط المجرى المائى بعد أن خرجت المركب من احد انحناءاته . كانت التماسيح ترقد على سطح الجزيرة ، تنام فى هدوء تحت أشعة الشمس كانوا سبعة فقد أحصيناهم ونحن على مقربة لا تزيد عن مترين اثنين منهم.وفجأة دلف واحد منهم الى الماء فى سرعة وخفة ليلتقط سمكة كبيرة ...

كان لحركته المفاجئة .. السهلة العنيفة لالتقاط الفريسة وقع فى نفسى أثار الفكر فيما بعد ... هل هذا هو قانون الطبيعة ؟

شاهدنا فيما بعد قطعانا كثيرة من أفراس النهر تسبح وتغوص تحت الماء ثم تظهر رؤوسها الضخمة ..

★ ★ ★

البعض يشترك فى عراك أو لعب مع الآخرين . وبينما كنت أفكر فى هذه الحيوانات الضخمة بلحمها الطرى والتى تتغذى على الأعشــاب والحشائش ـ ألا يمكن الاستفادة بلحمها فى اطعام هؤلاء الأهالى . وهل هذا اللحم مما يمكن أكله ؟ ... كان بجانبى مهندس المركب وهو سودانى ... وسألته هذا السؤال ...

فقص على كيف يصيد الأهالى هذه الأفراس ليأكلوها بالطبع ، فهم يعيشون على الأسماك ولحم أفراس النهر بالفعل . أما لحم البقر فهم لا يذوقونه الا نادرا...هذا اذا ما نفقت منها واحدة.فهم لا يذبحونه على الاطلاق .. يربونه للتجارة ، ويشترون بثمنه ما يحتاجون اليه .. ويقدمونه مهورا لزوجاتهم ، وهم يتبركون ببوله فهم يستعينون به فى صباغة شعورهم باللون الأصفر . فاذا بلل الشعر ببول البقر وترك للشمس فهو يتحول الى اللون الأصفر هكذا قال لى مهندس الباخرة .

ثم قص على قصة صيد الأهالى لفرس النهر . فى زوارق مصنوعة من جذوع الأشجار الضخمة يجوفونها ويصقلون سطحها الخارجى ويرققون جدرانها حتى تصبح خفيفة . ثم ينزلون اليها فى أعداد كثيرة من الزوارق والرجال يحملون حرابهم العادية ثم نوعا آخر من الحراب يسمى « بدنجة » ، وهذه البادنجة عبارة عن حربة لها سنون ملتوية الى الداخل كالسهم يسهل دخولها الى جسم الحيوان ويصعب خروجها منه . وهذه « البدنجة » تربط فى حبل طويل يربط فى طرفه الآخر قطعة من خشب خفيف يعوم على الماء بسهولة ويسمى « بالطرور » . ويذهب هؤلاء باسلحتهم وزوارقهم يجدفون الى هذه المناطق التى يكثر فيها أفراس النهر . يسيرون فى حذر شديد الى جانب الشاطىء مستعملين مجاديف على شكل الملعقة لايزيد طول الواحد منها على المتر الواحد ، يمسك باليدين معا يجدف به بضع جدفات الى اليمين وبعضا آخر الى اليسار ويندفع الزورق « الكانوه » فى سرعة ويسر حتى يقترب من أحد أفراس النهر .

أفراس النهر تعوم تحت سطح الماء ولكنها ترفع رأسها بين الفينة والفينة فـــوق الســـــطح للتنفس والبحث عن طعامها من الأعشـــــاب والحشائش ..

يقف أحد الصيادين فى مقدمة المركب رافعا « البدنجة » استعدادا لغرسها فى جسم فرس النهر عند ظهوره برأسه .. بطعنة قوية فى جسمه الغاطس ثم يتركها . ويهرب الفرس غاطسا ولكن « البدنجة » مربوطة بحبل فى طرفه قطعة من الخشب الخفيف تظل طافية فوق الماء لتدل الصائد على مكان الفرس أينما ذهب .. ثم يلاحقه الصيادون بطعنه بحرابهم المسننة كلما ظهر لهم فوق سطح الماء وتظل الطعنات تتوالى حتى تسيل الدماء من العديد من الجروح التى يصاب بها ، ثم يتركونه لفترة .

تأتى الأسماك على رائحة الدم وتظل تنهش فى لحمه .. يفر الفرس لاجئا الى الشاطىء . وعندئذ يسهل على الصيادين قتله والفوز بلحمه وقد خلصتهم الأسماك من مشكلة رفعه من الماء لثقل وزنه ..

جاءت الأمطار ·· غزيرة قوية ·· منعتنا من النوم فوق سطح المركب كالعادة ·· واضطررنا للنوم في القمرة ·

الجو ثقيل ·· والرطوبة تزداد ·· ملابسنا مبللة ·· أجسامنا لزجة ·· الجو غير مستحب بالمرة ، ولم تبدأ السحب في الانقشاع الا قبيل الظهر بقليـــل ·

النيل ينساب بين ضفتين تكسوهما الحشائش العالية نبات الديس «أم صدفه» ، كما يسمونه . تكوينه جميل ·· ينبثق من الأرض على شكل بوصة رفيعة ترتفع الى ما يقرب من الستة أمتار ثم تتفرع أوراقه الرفيعة ·· الطويلة على شكل مروحة أو ذيل طاووس ·

النبات في العادة أخضر اللون ، ولكن عندما يبدأ في الجفاف يحمر لونه وتتسلق على هذا « الديس» نباتات أخرى ذات أوراق خضراء عريضة ·· تكون مع سـيقان « الديس » وأوراقه تآلفا بديعا له ملمس جميل ملفت ···

عند الظهر ·· ظهرت أفراس النهر والتماسيح بكثرة وقد شاهدناها عن قرب لايجاوز المترين حيث يضيق المجرى وتسير المركب قريبة من الشواطىء ··

عند الغروب رأينا قطيعا من الأفيال يربو عدده على الخمسة عشر فيلا تسير في ثقل بين نباتات الديس الجافة ، على مسافة ثلاثين مترا منا · سوادها داكن وبياض أنيابها يظهر ويختفي بين أعشاب الديس تبعا لاتجاه الفيــل ·

على الضفة الغربية من النيل « بحر الجبل » تراءى لنا في الغسق · أشباح تجرى بين الشجيرات المنتشرة على أرض رملية ·· تبيناها بالمنظار وجدناها غزلانا كبيرة الحجم ذات قرون طويلة ذات لون بني باهت تنتشر فوقه نقط سوداء ··

كان رائعا ذلك القطيع من الغزلان الشارد في قوة ، وقد تضافرت ألوانه مع ألـوان الشـجيرات الخضراء الداكنة مع لـون الرمال المنتشرة فوقهــا ··

بتنا تلك الليلة في انتظار الوصول الى النقطة ٤٢ حيث بلدة صغيرة اسمها « أدوك » على الضفة الغربية من بحر الجبل ، ويسكنها أرهاط من قبائل النوير ·· وجوههم سمحة ·· وهم لا يلجئون الى « الشلوخ » أى تشريط الجلد ـ وتخرمه فوق الجبين لتظهـر كرات من اللحم متراصـة

للتجميل وهى عادة قبائل الشلوك التى تغطى منطقة الملكال وغيرها من مناطق الجنوب حول الملكال ..

فى « أدوك » رأينا طريقا طويلا يقوم بتعبيده رجال النوير وحديقة فواكه .. بها أشجار الموز والبرتقال والباباى .. وقصب السكر ، وهو حلو المذاق نام الى ارتفاع المترين والنصف ، وسمكه بوصتان ...

ثم رجال البوليس .. من الأهالى .. وقد لبسوا « الشورت » والصندل والقبعة .. وهم مختارون ومعينون من الحكومة التى يمثلها المفتش الانجليزى ومساعدوه ..

والأهالى شبه العرايا أحيانا والعرايا تماما أحيانا أخرى يطلبون منك الملابس والنقود اذا ما رأوك حتى وأنت على ظهر المركب ... وهم يرفضون تصويرهم الا اذا أعطيتهم نقودا ...

وقد حاولت تصوير فتاة جميلة ممشوقة القد .. عارية تماما .. بعد أن أعطيتها علبة سجائر فارغة من الصفيح ومليما واحدا على سبيل معرفة رد الفعل والتجربة ..

فرحت جدا بالعلبة الصفيح وردت المليم وطلبت قرشـــا صاغا فأعطيتهـا ما أرادت .. ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهها الصبوح ــ مؤذنة بالموافقة والرضا عن التصوير ...

شاهدنا بعضا من الأهالى وهم يطبخون غذاءهم ...

« كانون » من الطوب .. أوقدوا النار فيه .. ووضعوا قدرا من الطين المحروق أسود اللون بها سائل لم أعرف طبيعته وبدءوا يحركون السائل داخل القدر ، ثم أتوا بعنقود كبير من الأسماك التى اصطادوها .. ورموها فى القدر والسائل يغلى بداخله .. وجعلوا يحركون السمك حتى تم نضجه ..

وفى أطباق من قشور جافة للنباتات .. مثل القرع .. والباباى وخلافه . يتناولون طعامهم ... فى استمتاع . كانت مجموعة الأطباق مما لفت نظرى لجمال أشكالها وتنوعها وقد حاولت شراء بعضـــا منها فرفضـــوا ... !

وفى هذه البلدة دكان صغير يديره أحد السودانيين من الشمال .. يبيع فيه السكر والشاى والقماش والعقود المصنوعة من الخرز والحراب على اختلاف أنواعها ..

كما كان في دكانه ـ لفات كبيرة من السلك « الألمونيوم » الذى يشبه الفضة في لمعانه ، وسمكه يقرب من السنتميتر الواحد ويشتريه الاهالى ليجملوا به معاصمهم وأرجلهم ٠

تركنا أدوك بعد بضع ساعات ٠٠ النيل يسير متعرجا فى التواءات متعاقبة ٠٠ مجراه ضيق للغاية ٠٠ الرحلة مملة ٠٠ الجو رطب حار فى لزوجة غير مستحبة ٠

وعند العصر مررنا « بمستنقع » كبير يطلق عليه اسم « ميعة فارجسون » والميعة هى المستنقع وفارجسون هذا انجليزى كان حاكما لهذه المنطقة ٠ قتلته قبائل النوير أهل المنطقة شر قتلة هو ومن معه من مساعدين ٠ وقد أرسلت الحكومة المركزية حملة تأديبية لهذه المنطقة وعينت لها حاكما جديدا شديدا فيه قسوة بالغة ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥ ٠

قيل لنا انه كان شخصا يرمى بالرصاص كل من وجده يحمل حربة أو أى سلاح ٠

المنطقة الآن آمنة ٠٠٠ يزورها الحاكم أو المفتش فى رفاص صغير ينتقل به من منطقة الى أخرى ، يعقد الجلسات مع العمد والسلاطين من الأهالى المعينين من قبله للنظر فى شئون المنطقة وقضاياها ٠٠٠

حدثنى مفتش الباخرة السودانى عن عادات هؤلاء الأهالى فى دفن موتاهم ٠ يحفرون حفرة رأسية عميقة ويلقون بالميت فيها واقفا ٠٠ رأسه الى أعلى ثم يهيلون عليه التراب ٠ آخرون من قبائل « الجاكوا » يلقون بموتاهم فى النيل ٠٠ يحملون الجثة حتى حافة النهر يلقونها فيه وأنظارهم الى الخلف حتى لا يروا الجثة وهى تغطس فى الماء ٠ ولا تنقضى دقائق معدودة حتى تنهشها التماسيح والأسماك ٠ وهذه العادة تحاربها الحكومة بشدة ٠

فى هذه المناطق حيث يكثر البعوض الناقل للملاريا وعنه ما يسبب الحمى الصفراء ـ فان الأهالى يحمون أجسامهم العارية من لدغات البعوض برشها بالرماد الناتج من حريق الأخشاب والذى ينفر من رائحته البعوض فيبتعد عنهم ٠٠

سكان هذه المناطق بعريهم الكامل تقريبا يحتملون الحر الشديد كما يحتملون البرد الشديد بالمثل ٠٠

فى يوم عاصف شديد البرودة لم أحتمل أنا برودة هوائه وأمطاره رغم احتمائى بالملابس الواقية ٠٠ فلم أستطع الوقوف خارج القمرة « الكابينة » كما حدث للمسافرين معى من الانجليز بينما وقف الكثير من

العرايا على الشاطىء ضاحكين مهللين ، بل قل ساخرين منا ونحن ندلف الى كبائننا لنحتمى من البرد والمطر الذى لم يأبهوا له رغم عريهم ·

فى صبيحة اليوم التالى ··· فى الخامسة ·· كان الجو هادئا لطيفا بعد الليلة العاصفة المطيرة اتسع المجرى قليلا وكثرت التماسيح ·· وافراس النهر على البعد ·· ثم الطيور الكبيرة « أبو مركوب » ·

خفت الحشائش النامية على الشاطئين ··

وظهر قطيع من الأفيال ·· كان قريبا جدا من الشاطىء حتى أمكننا عد ثمانية وعشرين منها ···

فى المساء وصلنا الى بلدة شامبى Shambi وكان الظلام حالكا ·· لم نر شيئا ، وفى الصباح الباكر استيقظنا على صوت ارتطام قاع المركب بالأرض : قاع النهر ·

المياه ضحلة للغاية فى هذه المنطقة · سارت المركب قليلا ثم ارتطمت ثانية وثالثة ثم رابعة ··· كان هذا فى النقطة ٩٠ كما يسمونها ··· كانت الملاحة فى هذا الوقت من السنة ـ مايو ـ يونيو صعبة لضحالة المياه فى مجرى النهر ، وكذلك كثرة منحنياته وضيقها · وكان طول المركب مع طول الصندل الذى «شحط» فى مقدمتها يربو على الأربعين مترا مما ساعد على صعوبة تسييرها فى تلك المنحنيات القصيرة الضيقة · ولكن الربان والبحارة كانوا يعرفون طريقهم جيدا وظروف تلك المنطقة ، فكانوا يسيطرون على كل العقبات فى مهارة ومعرفة وكلهم سـودانيون من الشـمال ··

بداية مذبحة التماسيح :

قبيل الظهيرة ·· فى الساعة الحادية عشرة تماما ·· ظهر تمساح ·· رابض على الشـاطىء ·· غليظ الجسـم ·· راعتنى غلظته ·· يتشمس فاغرا فمه الكبير مواجهـا لنا تمـاما ·· جئت بالمنظـار أراقبه ، ممعنـا فيما رأيته داخل فمـه المفتـوح : لحم طرى أميـل لاون البرتقالى ، يشبه جوف الشمامة · أنياب حادة تتدلى من فكه العلوى ثم تنبثق الى أعلى أنياب أخرى من فكه السفلى ·· تبعث بالرعب وباحساس تقززى منفر · ثم هذا الخط الذى يفصل بين فكيه ويستقيم من الأمام الى قرابة قدمين ثم ينحنى الى أعلى فى شبه نصف دائرى ثم الى أسفل حتى يصل الى الرقبة ·

هذا الخط ·· جذب كل انتباهى للحظات متعاقبة ·· بل انه لم يبرح مخيلتى فيما بعد ·· فقد تركزت فيه كل شراسة هذا الحيوان ··· !

ظللت أراقبه بالمنظـــار المقرب ·· ذلك الجلد الخشن الجاف الملىء بالحراشـــيف والبروزات ، ولونه الرمادى المشـــبع بالحمرة والزرقة مجتمعتين ··· ثم ذلك التضاد والتناقض بين ملمسين لجلده الخارجى بقساوته ، ثم ذلك الملمس الرخو ذو اللون البرتقالى الذى يشبه جوف الشـــمامة ·

لقد بعث ذلك فى نفسى الاشمئزاز ··

لقد كنت أراقبه فى البداية بنظرة شبه مجردة ، نظرة بحث للمعرفة والدراسة فى بيئته الطبيعية ، وليس كما عرفته فى حديقة الحيـوان بالجيزة ·· لقد حاولت أن أتجرد من كل أحاسيسى واشمئزازى بقدر الامكان ولكن لا تكاد تمضى الثوانى حتى يضطرنى ذلك الشكل الى الشعور بنوع من الرهبة من تلك القسوة المجسمة فى أنيابه ، والاشمئزاز من ذلك الجلد الجاف المضرس ، ثم تلك الرخاوة الظاهرة فى جوفه من ذلك الفم المفتوح · كنت أبعد نظرى ·· لأتحاشى ذلك الاحساس المقلق ولكن كان المشهد يجذبنى الى تأمله مرة أخرى فأعود اليه بالرغم من كل شىء ·· وبينما نظرى ينتقل مرة ومرات من جزء الى آخر من هذا الحيوان المخيف ·· اذ بى أسمع صوت طلقة نارية مفاجئة ·· لم تترك لى فرصة أن اتحرى كيف ومن أين جاءت ·

تتابعت المشاهد المثيرة بسرعة ·· رأيت صنبورا من الدم يندفع من جوف التمساح ·· صنبورا من الدم الأحمر القانى ، يندفع فى قوة من ذلك اللحم البرتقالى الرخو ثم يرتفع التمساح فى قفزة مجنونة ·· عنيفة ·· تشنجية ·· أكثر من متر من موضعه ـ ذلك الجسم الغليظ الذى يبلغ طوله نحوا من سبعة أمتار ويربو وزنه على قناطير عديدة ·

ذلك الجسم يرتفع قافزا فى الهواء ثم ينقلب على ظهره يتلوى ، والدم ينبثق من فمه بغزارة ·· ثم بحركة عنيفة أخرى ولكنها أقل عنفا من الأولى ·· يرتفع مرة أخرى ثم ينحدر الى اليم ··· غاطسا فيه ··· يغيب عن الأنظار وبعد هنيهة ·· تظهر بقعة حمراء كبيرة على سطح الماء ·

فى اليوم التالى · فى الصباح الباكر خرجت قبل عايدة من القمرة ·· وما زال مقتل ذلك التمساح الضخم تتمثل صورته فى ذهنى ··· وقد عرفت قاتله : انجليزى معنـــا على المركب ، ولكن ما رأيته أمامى على الشاطىء اذهلنى ·

أكثر من سبعين تمساحا ربضت منتشرة على الشاطىء ، وعندما قاربناهم وقد أزعجهم هدير ماكينات المركب . بدءوا يدلفون الى الماء الواحد تلو الآخر فى تشكيل رائع ، حتى أن مساحة الماء الواسعة قد غطتها رؤوس التماسيح .. تسبح مبتعدة عنا ...

ولكن كانت طلقات ... الرصاص تلاحق العديد منها التى تمهلت فى النزول الى الماء بالسرعة الكافية .

كانت رصاصات مستر « ماوسن » مدير الزراعة والغابات تلاحقها وتصيب منها مقتلا فى الكثير من الحالات .

وكان كل تمساح يقتل .. يترك مكانه بقعة كبيرة من الدماء بعد أن يهرع الى الماء طالبا الهرب من جحيم ذلك الرصاص القاتل . عددت أكثر من اثنتى عشرة اصابة قاتلة . وصلنا « بور » Bor فى العاشرة صباحا ..

البلدة جميلة جــدا .. نسقت الأكواخ بين الحشائش والأشجار النامية على منحدر فى تنسيق جميل وقد شيدت على أنماط تغاير ما سبق أن شاهدناه .. وهى تتسق وتتجاوب مع الطبيعة والبيئة .

وكانت « بور » هى أول بلدة أرى فيها التوافق والتنسيق بين عمارة الانسان والبيئة الطبيعية وذلك منذ بدأنا الرحلة من كوستى .

مضى اليوم ولم أستطع القراءة فقد كنا مشدودين ومعنا معظم الركاب بسبب تلك المذبحة .. مذبحة التماسيح ولم تستطع بلدة بور وجمالها أن تبعد عنا تلك الصورة الفظيعة .. لمذبحة التماسيح ..

وبالرغم مما قيل لنا أن هذا الرجل يقوم دائما بهذا الواجب فى قتل التماسيح . ليقلل من أخطــارها فى الفتك بالأهالى والحيــوانات المستأنسة ــ فان هذا بالرغم مما فيه من تبريرات تكاد تكون معقولة ــ لكنى لم أستطع التغلب على صورة ذلك التمســاح وقد قفز فى الهواء بجثته الضخمة وقد أصابته الرصاصة داخل حلقه ...

نعم هناك دائما عند الانسان مبررات للقتل .. القتل لأى شىء .. حتى قتل الانسان للانسان ..

وربما القتل لمجرد القتل ..

كانت مذبحة التماسيح هذه تشغل بالى كثيرا وتلاحقنى فترات طويلة بالرغم من كل المبررات ، وبالرغم من بشاعة ذلك الوحش التمساح فى القضاء على فريسته ..

لكن ··· انه يقتل ليعيش ليأكل ·· ربما كان هذا مبررا ·· !
ولكن هل هناك دائما مبرر للقتل ؟ سيقول الانسان وسيجد··دائما المبرر بل المبررات للقتل ··· فتل الحيوان ليطعم من لحمه ·· أو ليتخلص من أذاه ··

ولكن هل هناك مبرر حقيقي ليقتل الانسان الانسان ؟ نعم سيجد المبرر . ولو لم يكن هناك مبرر فسيخترع واحدا ·

بور بلدة جميلة لم يشفع جمالها فى التغلب على تلك الدراما العنيفة التى اعتملت فى نفسى لفترة طويلة اثر تلك المذبحة الرهيبة ·
عند الغروب ·· جلست فى مؤخرة المركب ···

***

السحاب المتكاثف فى كتل تحجب الشمس بين الفينة والفينة ··· وتلك الجبال الشامخات الهشة تتغير أشكالها ببطء وتؤدة ، فى حركة هينة ولكن فى تصميم وحزم . يحيطها شيء من الجلال والرهبة فى مشيتها المتهادية · الضوء يسطع على حوافها كلما ظهر شعاع من الشمس قد يضيء أجزاء أوسع ، وترتمى أجزاء أخرى فى احضان الظل الرمادى القاتم ·· اطرافها حمراء ملتهبة ·

هذه الألوان تنعكس على صفحة الماء العريضة ·· فضية ·· يكاد ضوؤها بانعكاساته يخطف الأبصار ··

كانت هذه الرؤية ذات أثر جميل مريح فى النفس يضفى حالة من السكون والهدوء والتأمل ·

★★★

الخميس ٣٠ مايو سنة ١٩٤٦

تركاكا Terechaka بلدة صغيرة تقع على نقطة ١٤٤ وتبعد عن جوبا عاصمة المديرية الاستوائية ١٤ عقدة ·

البلدة على صغرها مركز تجارى مهم حيث يحيط بها عشرات من « الحلل » أى القرى . وسكانها يتسمون بامتلاء أجسامهم ·

المنطقة تمتلىء بالشواطىء والسواحل المزروعة · الزراعة بدائية ولاتتعدى « الأذرة » الرفيعة ويسمونها « الفتاريتا » ولكن تكثر أشجار المانجو والموز فى الغابات المجاورة ·

مجرى النيل الآن ··· يتسع بعد المرور بالنقطة ١٤٥ كما يسمونها تتوسطه جزر صغيرة ، وتصب فيه رواقد صـــغيرة تسمى خيران جمع خـــور ·

بتنا ليلتنا فى « اللودو » Lodo ، ذلك لأن الباخرة لايمكنها أن تعبر هذا الجزء من اللودو ·· « منطقة معروفة للملاحين فى نهر النيل » الى جوبا ليلا ــ الا بواسطة « ملاح » خاص يعرف هذا الجزء من المجرى معرفة تامة · الرمال تجرفها المياه المتدفقة فى سرعة وقوة وتتراكم فى أماكن من المجرى لا يعرف موضعها بالضبط الا خبير عارف متمرس ، فهذه الرمال متحركة تنتقل من موضع الى آخر على الدوام ·

فى الرابعة صباحا من اليوم التالى تحركت المركب فى بطء شديد ضد التيار المتدفق الذى قد يوقف تحرك المركب تماما ، بل قد تعود الى الوراء بضعة أمتار ، بالرغم من قوة ماكيناتها ·

عبرنا الى النقطة ١٥٤ · الغابات الكثيفة تحف بشـــاطىء النيل الغربى ، ترتفع أشجارها الى أكثر من مائة قدم · الزراعة تنتشر على الشواطىء خصوصا زراعة الأذرة · والمنطقة تخلو من التماسيح لعمرانها بالسكان ، الذين دأبوا على تطهيرها منهم خوفا على أنفسهم وحيواناتهم · وغلمانهم يظهرون فجأة اذا ما لمحوا المركب وقد هلت · انهم يصيحون مهللين رافعين الأذرع طالبين من الركاب أن يرموا بأى شىء ، وهم ينطقون بكلمة « ارم » العربية ، ثم يلتقطون فى سرعة مذهلة كل ما يرميه ركاب السفينة : علب صفيح فارغة ·· نقودا ملابس الخ ··

المنطقة لاتبعد أكثر من عشرين كيلومترا عن جوبا العاصمة ، هكذا علمنا من ربان المركب ·

النيل بدأ يتسع بشكل واضح والى مدى اتساع كبير · الزراعة تكثر وتكثف ، والبلدان الصغيرة « الحلات » تنتشر على الضفة الغربية للنهر ·

لايزال الغلمان يتصايحون طالبين المزيد مما يرميه الركاب ·

وما زالت المركب تسير فى بطء شديد حتى الغلمان يتمهلون فى سيرهم حتى يحاذوا المركب فى سيرها ·

على مدى ثلاث ساعات ونصف قطعنا عقـدة أخرى من ١٥٤ الى ١٥٥ ·

التيار يتدفق فى شدة · ولقد استعان الربان برفاص شديد لمعاونة

المركب بكل قوة ماكيناتها للتغلب على تدفق المياه فى مجرى النهر بقوة وعنف ·

المنطقة تخلو من التماسيح تماما لشدة التيار على ما أظن ، ولكن الضفة الغربية لمحنـــا بها قطعانا من الغزال الكبير الحجم مما يسمونه « كتامبور » ·

★★★

وأخيرا وصلت المركب الى جوبا ·

انتظرنا ما يقرب من الساعة نرقب اذا ما كان هناك أحد من مديرية التعليم أو غيرها فى استقبالنا كما هو المعتاد عندما يحضر أحد موفد من الحكومة فى مهمة رسمية · ولما لم يتصل بنا أحد ركبنا سيارة الفندق وهو الفندق الوحيد فى جوبا : قطاع عام ·

ولم تمض سوى دقائق معدودة على وصولنا الى الفندق حتى وصل من يسأل عنا·· بالاسم·· كان الأخ حامد السيد·· بشكاتب المديرية ، سودانى حاليا من أصول وجذور مصرية ·

وظيفة بشكاتب هذه معناها ·· أعلى وظيفة سودانية فى المديرية . ولها سلطات واسعة الى ماتحت سلطات الانجليز ·

قابلنا حامد السيد مرحبا بقدومنا الى المديرية الاستوائية ، ذاكرا أنه موفد من قبل مستر جانسون سميث Janson Smith مفتش التعليم فى المديرية ، والمسئول الثـانى بعد مستر هلبرت Hilbert وذكر حامد السيد أيضا أن مستر هلبرت الذى عرفته مسبقا فى الخرطوم هو الذى وكل جانسون سميث لعمل الترتيبات اللازمة لزياراتنا للمدارس فى أنحاء المديرية ، حيث ان هلبرت قد قام فى اجازة لانجلترا ·

كما أعطانى حامد السيد خطابا من جانسون سميث به برنامج كامل لرحلتى وزياراتى للمديرية ، معتذرا بأنه فى زيارات قصيرة لبضعة أيام ، وعندما يعود منها يرجو مقابلتى ··

فهمت من حامد أفندى كما كانوا ينادونه أنه مصرى أصيل عاش فى السودان منذ مولده ·

حامد أفندى أصبح سودانيا بالمولد والاقامة ، عين عضوا بالمجلس الاستشـارى · عرفته فيما بعـد رجلا صلبا ليس من السـهل ثنيـه عما يريد ·

بتنا ليلتنا فى الفندق ولم تخرج قائمة الطعام عما كانت فى المركب ·

ى الصباح ذهبنا الى المديرية ·· حيث حامد أفندى ، وكان قد وعدنا بأنه سيعمل الترتيبات اللازمة للزيارات ، سواء فى المنطقة الشرقية أو الغربية وكانت توريت Torit فى الشرق وييى Yei فى الغرب ، ولكنه لم يتمكن من ترتيب أيهما لعدم وجود سيارة جاهزة ·

فى الخرطوم أخبرنى هلبرت (مدير التعليم فى الجنوب) أنه ترك سيارته « لورى » واللوارى هى السيارات التى لا يمكن استعمال غيرها فى هذه المناطق تحت أمرى فى جوبا · نعم هكذا قال حامد أفندى هذه تعليمات مستر هلبرت بالفعل ، ولكن السائق الخاص بهذه السيارة غير موجود فقد أخذه جانسون سميث معه فى رحلاته ··· ! حيث ان عربة هلبرت محجوزة لزيارة الحاكم العام للسودان – فقد يحضر فى هذه الآونة – وذلك بتعليمات من جانسون سميث ·

بدأ الشك يساورنى فى هذا الجانسون سميث الذى كنت أحمل له خطابا من جرين لو لتسهيل مهمتى فى الجنوب · هل يريد أن يضع لى العراقيل حتى أبقى فى جوبا بضعة أسابيع ثم أعود الى الخرطوم بغير ما عمل ·· ؟ ··

فى هذه الاثناء لمح حامد أفندى مدير المديرية يدلف الى مكتبه ، فاخذنى من يدى قائلا : لنقابله وتعرض عليه ما تريد ···

حيانى المدير فى لطف قائلا انه على علم برحلتى هذه . وانه يرجو أن استمتع أولا بزياراتى ، وأن تستفيد مديرية التعليم فى الخرطوم بملاحظاتى عن المدارس والتعليم فى الجنوب ··

ولما ذكر له حامد أفندى مشكلة المواصلات ، وأن عربة هلبرت بغير سائق فقد ذهب مع جانسون سميث ، وأنه علم أيضا أن عربة هلبرت قد حجزت للحاكم العام اذا حضر – تبسم المدير وقال ، خذ عربة هلبرت فورا وضع عليها سائقا آخر من جنود البوليس فهم أكفاء ·· ثم حيانى وتمنى لى التوفيق ··· !

فى تمام الساعة الرابعة تحركنا بعد أن أعد اللورى والسائق · بدأنا من منزل حامد السيد الذى أصر على استضافتنا فى منزله طوال اقامتنا فى جوبا · تحركنا ومعنا بعض الحاجيات الضرورية وضعت فى الخلف مع ما يلزم « اللورى » من صفائح البنزين وخلافه ··· كانت الرحلة الأولى الى ياى Yei أو ييى ·

يای تبعد عن جوبا ١٠٠ ميل · تمكنت من زيارة مدرسة الكتبة والمحاسبين الملحقة بالمديرية قبل بدء الرحلة ...

يلتحق الطلبة بعد اتمام مرحلة التعليم الوسطى ويتخرجون بعد دراسة عامين ·· ليعملوا فى الوظائف الكتابية والمخازن ·

المدرســـة معـدة لاستقبال ٢٤ طالبـا وبها عدد ١٢ فقط فى هذه الآونــة ·

الدارسون كلهم من أهالى الجنوب السودانى ، ومن قبائل مختلفة ، مسيحيون تخــرجوا ودرســوا فى مدارس الارساليات التبشــيرية بعضهم متزوج وله أولاد · اللغة الانجليزية لغــة الدرس والحديث مضافا اليها لغة القبيلة · ولغات القبائل تتعدد الى العشرات ولكن هناك « لغة » تسمى « البنقالية » يعرفها الجميع تقريبا يتخاطبون بها للاتصال بعضهم بالبعض ·

ناظر المدرسة شاب نشيط مصرى من أقباط أسوان ، كان يعمل مدرسا بكلية الأقباط بالخرطوم من قبل : يونان ميخائيل ·

ويساعده مدرس آخر هو أيضا مسيحى من أب مصرى وأم يونانية · والحكومة لا تأمن للمسلمين فى التدريس لهؤلاء الجنوبيين المتنصرين · واذا طلبت مدرسين فالشرط الأول أن يكونوا مسيحيين ··ه

كنت أفكر فى هذه المدرسة وقصرها على الجنوبيين « المسيحيين » فقط ، وهل هذه القاعدة تسرى على التعليم عموما فى جنوب السودان ؟ كانت هذه أول زيارة لمدرسة فى جوبا ··· لأنتظر ··

يمى Yei كما ذكرت تبعد عن جوبا غربا بمائة ميل ·· وقد سرنا فى طرق معبدة تماما ، وقطعنا الرحلة فيما يقرب من أربع ساعات أو أقل قليــلا ··

أمطرت السماء بغزارة أكثر من نصف ساعة ·· نحن فى فصل الخريف فصل الأمطار · الجو رطب والسماء ملبدة بالغيوم على الدوام أما فصل الجفاف الشامل فهو فى ديسمبر ويناير وفبراير : فصـــل « الصــيف » ·

وصلنا الى ييى Yei فى السابعة مساء ·· وقد التقينا باثنين من القساوسة البلجيك على ما عرفنا فيما بعد ·

كانت البوابة الخاصة بمنطقة « يى » مغلقة ·· وقفت سيارتهم وكذا سيارتنا ، ونزلا محاولين الكلام معنــا بانجليزية ركيكة للغاية ، ولكن

زوجتي لمحت بعض كلمات ينطقونها بالفرنسية فردت عليهم بالفرنسية وكم كانت دهشتهم بل فرحهم أيضا بالالتقاء بأناس يتكلمون الفرنسية في هذه الانحاء ٠

وكانت دهشتهم أشد عندما عرفا أننا مصريون ، وقال أحدهم ان هذه هي المرة الأولى التي يرون فيها مصريا يطأ هذه المنطقة ٠ ولما أخبرناهم بأنه يوجد العديد من المصريين موظفين وتجارا ٠ كانت نظراتهم غير مصدقة لما نقول ، مرددين أنهم يعلمون تماما حرص حكومة «السودان» الانجليزية فعلا على أن تمنع المصريين بصفة خاصة ، وكذا السودانيين المسلمين من الشمال - من الاقامة بل الحضور الى هذه المناطق من جنوب السودان ! لا يستثنى من هذا سوى الموظفين الذين لا غنى عنهم في أعمال الحكومة المختلفة ٠

كان القسان البلجيكيان ذاهبين الى « أبا » : بلدة على الحدود بين السودان الانجليزى المصرى والكنغو البلجيكي : بلدة جميلة للغاية وقد زرناها فيما بعد ، ولا تسمع فيها سوى اللغة الفرنسية ، ثم اللهجات أو اللغات المحلية ٠ ودعنا القسين بعد أن دعوانا لزيارة أبا بالذات ، قائلين انه مسموح بالزيارة بغير فيزات أو خلافه ، خصوصا وأنتما تتحدثان الفرنسية فستكون اقامتكما في أبا ممتعة ٠٠ ثم دلفا في بوابة « أبا » بعد أن فتحها لهما موظف بلجيكي محييا اياهما بالفرنسية ٠

ثم رحلنا نحن بسيارتنا الى يى Yei ثم الى منزل الدكتور لبيب ، دكتور المنطقة ، وقد اعطانا اسمه وعنوانه حامد السيد ٠٠

الدكتور لبيب مصرى قبطى ، ولد فى السودان وتعلم فى السودان ، وتخرج من مدرسة كتشنر الطبية ٠ شاب فى مقتبل العمر متزوج من مصرية مهذب للغاية ، أصر على تناول العشاء عنده بعد أن اتصل بالسلطات المحلية لاعداد الاستراحة الأولى لمبيتنا ٠

وخلال العشاء تحدث الدكتور لبيب عن المنطقة وما ينتشر فيها من أمراض ٠٠

المنطقة من المناطق الموبوءة بمرض النوم حيث تكثر فيها ذبابة (تسى تسى) كما تسمى ٠ والمرض خطير بالنسبة الى الانسان والحيوان على السواء : الموت فى نهاية أطواره ٠

تبدأ أعراضه بشبه نعاس شديد يعترى المصاب تصحبه أورام فى غدد الرقبة والكتفين ، ثم شلل فى الجزء الخلفى من المخ ، وقد تعترى المريض هستيريا شديدة تشبه الجنون ، وعندما يصل المرض الى هذا الطور

لا ينفع العلاج ، وهكذا قال لنا الدكتور لبيب· بل انه أشار لنا بأنه فى الغد سيرينا أحد المصابين وهو فى هذا الطور من الهيجان حتى لقد اضطر الطبيب الى وضعه فى السجن المغلق حتى النهاية · كما أنه شرح لنا وصفا لهذه الذبابة : رمادية اللون تشوب لونها حمرة خفيفة وهناك علامة مميزة لهذه الذبابة تفرقها عن الذبابة العـــادية ــ أن جناحيها ينطبقـان على بعضهما ، وطولهما يبلغ نصف بوصة وضعف طول جسمها · أما الذبابة التى تصيب الحيوان فهى تتماثل فى الأوصاف ، غير أنها تكبر عنها حجما · وليست كل ذبابة (تسى تسى) محملة بالمرض اذ ينبغى لها ــ كما عند زميلتها بعوضة الجامبيا ناقلة الملاريا ــ أن تلدغ مريضا مصابا بالمرض ، ثم تلدغ سليما ناقلة اليه المرض ··

وهذا المرض يمكن علاجه بالحقن الخاصة فى أطواره الأولى فقط · روى لنا الدكتور لبيب عن أمراض عديدة تستوطن المنطقة ، فهناك الملاريا الخبيثة ، ثم مرض يسمى « التك تك » : حشرة تشبه البرغوت ولكن أصغر حجما تثقب الجلد ــ جلد الأقدام فى الغالب ــ بدون أن يشعر بها الانسان ، وبعد حين تظهر قرحة ·· تنمو بعض الزمن ثم يتورم مكانها وتسبب آلاما شديدة للمصاب ·

ولعلاج هذه الحالة تفتح القرحة ، ويستخرج منها الجنين الذى تربى فى داخلها بعض الوقت · وتنتهى آلام المصاب باستخراج هذا الجنين ·

لاحظنا أن سكان المنطقة يشربون مياها شبه آسنة تجمعت من الامطار فى خور أو مستنقع ، وقد تلوثت بالديدان والجراثيم فيصاب الكثير من شاربيها بأمراض شتى ، أخفها الانكلستوما · ثم هنـاك مرض آخر تسببه دودة صغيرة جدا تعيش فى هذه المياه الآسنة ، تدخل فى جسم الانسان مع مياه الشرب ، وتنمو داخل الجسم ــ وغالبا فى الساق ــ فى شـكل شريط ينمـو ويطـول ثم يثقب الجلد عندما يتم نموه فى أى موضـع ·

ويعالج هذا المرض بأن يلف طرف الشريط الدودى عندما يبرز من الجلد ــ يلف بنقطة من الخشب أو عود كبريت ، ويجذب قليلا ثم يلف على قطعة الخشب ويترك الى اليوم التالى ، وهكذا حتى يتم استخراج الشريط الدودى كله وبطوله · أما اذا انقطع الشريط بالجذب الشديد فانه يبدأ دورة ثانية من النمو ، حتى يبرز مرة أخرى من الجلد ·

طال حديث الدكتور لبيب عن الأمراض المنتشرة فى المنطقة ، وسألته عن المستشفيات التى أقامتها الحكومة فيها ·

قال لا يوجد الا هذا المستشفى الصغير الذى أديره أنا وأعمل به طبيبا وتمرجيا وكاتبا فى نفس الوقت ، أى أقوم بكل أعمال المستشفى ، وقد أنوب عن مفتش المنطقة الادارى عند غيابه وأقوم بجميع أعماله أيضـا ٠

المستشفى الوحيـد فى هذه المنطقة الموبوءة بالأمراض العديدة ٠٠ مستشفى فى غاية القذارة ، وقد انعدمت آدمية المرضى فيه تماما ٠

وبه جناح للمرضى حيث ينامون على الأرض ويأكلون طعاما تعافه نفس أى انسان ٠

رأينا عينات من المرضى :

أحدهم طعن بحربة اخترقت غشاء القلب ، أجرى له الدكتور عملية جراحية خاط فيها الغشاء المصاب ٠ نجحت العملية وشفى المصاب ٠

آخر أجريت له عملية استئصال الزائدة الدودية وشفى ٠ وثالث أصيب بطعنة من قرون الجاموس الوحشى ، فاخترقت الظهر ومزقت الكلية فخاطها الدكتور لبيب ، ولكن الجرح لم يلتئم تماما ، وفتح مرة أخرى وهو فى حالة تعفن تنبعث منه رائحة كريهة ٠

ثم رابع مصاب بمرض النوم ، وقد وضعوه فى السجن لظهور أعراض الهلوسة عليه وقد بدأ يمشى مشية السكران وعيناه ترتخيان رغما عنه ٠ وقد أخبرنى الدكتور لبيب أنه فى الدور الثانى من المرض ومن الممكن شـفاؤه ٠

وعلمت أنه كان هناك مستشفى عسكرى تابع للجيش المصرى فى سنة ١٩٢٤ به ثلاثة أطباء : أحدهم انجليزى واثنان من الشوام ٠ ولكن ـ كما قال الدكتور لبيب ـ لم يكن لديهم حافز للعنـــاية بالمرضى من « العبيد » كما كانوا يسمونهم ، فآدميتهم كانت فى المستوى الأدنى ٠

هكذا رأيت واحدة من المستشفيات القليلة فى المنطقة ، هذا اذا جاز لنا أن نسميها « بمستشفى » على الاطلاق ٠ وهذا الدكتور الشاب القبطى يبذل جهدا خارقا لأسعاف ما يمكن اسعافه من المرضى والمصابين ٠٠

***

تركنا الاستراحة فى Yei « ييى » واستقلنا « اللورى » الى كابنجرى التى تبعد حوالى ١٧ ميلا عن « يى » ، وكنا نقصد زيارة أخ لنا من المصريين الأقباط يعمل خبيرا زراعيا فى مزرعة بطاطس يملكها جورج حجـــار اللبنانى الجنسية ٠

عـوض أفنـدى جرجس الخبير الزراعي بمزرعة جورج حجار يزرع البطاطس . وعوض أفندى شاب لم يتعد الثلاثين من عمره ، يعيش هو وأسرته في غذائه على البطاطس ولاشيء غير البطاطس ــ الا ما ندر من دجاجة وبيض.ولكنه كما قال لي لم يذق طعم الخبز هو وأسرته الصغيرة منذ شهور مضت. ان صحته تتدهور ، اصفرار وجهه وضعفه الواضح يدلان على مشقة المعيشة في هذه البقاع ، ولكنه قانع بل سعيد ، لأنه يكسب عيشه بعمله وهو مقدر من صاحب المزرعة .. فدائية .. نعم لقد قابلنا عوض أفندى بالترحاب وعرفنا بزوجته بل ، طلب منا أن نتناول الغذاء معه ، ولكننا كنا على عجل من أمرنا حتى نتمكن من العودة الى جوبا .. ولكنه أصر على مرافقتنا لزيارة غدير ماء لا يبعد كثيرا عن المنطقة مارا في مزرعته . وفعلا ركبنا اللورى أنا وزوجتي بجوار السائق وركب هو في الخلف المكشوف .. وما لبثنا غير بضع دقائق حتى انهمر المطر في غزارة لم نعرف مثيلا لها من قبل .. فناديت على عوض أفندى أن ينزل من على ظهر اللورى وينحشر الى جانبنا في الأمام حيث السقف يحمينا من المطر ، ولكنه أبى بعناد قائلا انه اعتاد على الأمطار أثناء عمله .. ولكنني خفت عليه فعلا ، فالمطر غزير والمسافة قد طالت ... وأوقفت السيارة وجذبته بقوة لكى ينزل ولكنه أبى وتشبث بموقفه ...

بعد ٢٠ دقيقة تقريبا .. توقف المطر أو كاد وقد وصلنا الى ذلك الغدير الرائع الذى وصفه لنا من قبل عوض أفندى ..

وفعلا كانت البقعة في غاية الجمال والغدير تنحدر اليه الميـاه من جهات عدة وتحيط به الأشجار والنباتات البرية . ونزلنـــا برهة لكى نستمتع بالمنظر الخلاب ، فقد كان لنا أن نعود الى جوبا . وما أن صعدنا الى مقعدنا في اللورى حتى شعرت بلدغة قوية في وجهى .. وطارت من على وجهى حشرة كانت هي اللادغة . فسألت عوض أفندى ما هي ، فقال انها ذبابة « سى تسى » فصرخت زوجته في وجهه..هل أنت واثق ؟ .. قال بكل ثبات نعم انها هي سى تسى !

فطلبت من السائق أن يسرع بنا فورا الى يى Yei حيث الدكتور لبيب للعلاج الفورى ، اذا كان هناك ما يمكن عمله على الفور . وحثت زوجتي السائق على الاسراع وهي مضطربة تماما ، ولم أكن أنا كذلك ! وبعد فترة لمحت نفس الحشرة التى لدغتنى تقف على سقف كابينة اللورى من الداخل .. فاوقفت السيارة ، وناديت على عوض أفندى أن انزل ــ وجاء عوض أفندى وأشرت الى الحشرة سائلا اياه .. هـل هذه هي سى تسى . فضحك قائلا : لا .. انها « السروت » ! ما معنى هذا ؟

ألم تقل أنت من قبل انها سى تسى ·· فرد اننى ما تحققت منها تماما · ولكن هذه الحشرة التي تقول أنت انها هي بعينها التى لدغتك هى حشرة « السروت » بكل تأكيد ، ولدغتهـــا مؤلمة ولكن ليست ضـــارة أو سامة ··

عدنا الى جوبا ··

كان الأثر الذى خلفته الرحلة الى يى Yei بالغا ··

هؤلاء المرضى فى السجن حتى الموت ·· وآخرون قد جحظت عيونهم وشحبت وجوههم من المرض والجوع ·· وهم تحت العلاج الميئوس منه ··

الأهالى فى الطرقات يسيرون شبه عرايا الا من بعض أوراق الشجر شدت فى حزام على عورة المرأة · وهم يسيرون وقد خيم البؤس والخوف على وجوههم وعلت البلاهة على سماتهم ، وكانوا اذا رأونا ونحن فى «اللورى» الذى يقوده جندى بزيه الرسمى وبشرتى البيضاء توحى بأننى قد أكون انجليزيا كانوا يقفون فورا فى خوف واضح ، واحترام قد صنعه الخوف ليس الا · ثم يقذف الرجل منهم حربته التى لا تفارقه أبدا ·· يرميها الى الأرض رافعا يده الى رأسه محييا فى ابتسامة بلهاء مصطنعة ·

هكذا كان الحال ·· الرهبة والخوف والاحترام المصطنع المجبرون على ابدائه ـ كانت هذه كلها ترتسم على وجوههم عند رؤية أى من الأسياد الانجليز ···

فى مرة من المرات وقفت بنا السيارة فى منطقة مسكونة . ونزل السائق ليضع بضع صفائح من البنزين فى تنك السيارة . فنزلت أنا وزوجتى نتمشى قليلا على الطريق الذى يخترق الغابة فلمحنا شابين سودانيين جنوبيين بالطبع ـ يلبسان الشورت والقميص ثم الصندل المفتوح فى القدمين . وكانا لا يتجاوزان العشرين من العمر ، فحييناهما ·· فردا التحيـــة فى احترام شديد · اقتربت من أحدهما وحاولت الحديث معه ، فكانت ردوده مقتضبة جدا طبعا ـ كان الحديث بالانجليزية ولقد حاولت أن ألمح له بأننى لست انجليزيا حتى يتحرر فى الكلام والاجابة ، وأخيرا قلت بوضوح اننى لست انجليزيا بل أنا مصرى ، فبدت على وجهه ابتسامة صريحة حقيقية ، ثم بدأ الحديث يأخذ طريقا أكثر تحررا وأقل تحرزا ·

علمت منه أنه قد تخرج من المدرسة بعد عدد من السنين امضاها لكى يتخرج (Forist Ranger حارسا للغابة) هو وزميله ، وأن مرتبه لا يكاد يكفيه ليشترى عدد ٢ شورت ، ٢ قميص وصندل واحد طوال العام · واذا

تبقى شيء فهو للغذاء حيث يصرف لكل من الحارسين قدر من الأذرة الرفيعة « فتاريتا » كما يسمونها ــ كل يوم · هكذا فهمت ·

فسألته اذا كان راضيا بهذه الوظيفة وذلك المرتب فرد بأنه راض بالوظيفة ولم يجب على الشق الثاني ·

★★★

في الطريق الى جوبا ·· حدث أن تهور السائق فانحدرت السيارة الى « مطب » لم يستطع مفادانه ، ونتج عن ذلك كسر « السوستة » · وقد طاب مني السائق أن لا أذكر أن ما حدث كان اهمالا منه ، لأن العقاب سيكون غير متكافىء مع الذنب ، وخصوصا وأن السيارة كانت تابعة لمدير التعليم في الجنوب « عابرت » Hilbart فوعدته بذلك ··

ووصلنا الى جوبا ، والسيارة تسير على مهل حتى يمكن أن تصل بسلام ·

في جوبا نزلنا في ضيافة الأخ حامد السيد بشكاتب المديرية الذى أصر على ذلك بحسم لا يقبل أى جدل أو مناقشة ·

وذهبنا الى بيته ، وكان كريما معنا الى أبعد الحدود سواء في استضافتنا في منزله ، أو في كل ما حاوله من أجلنا لاتمام جولتنا بالرغم من كل العقبات التى وضعها مفتش التعليم بالمنطقة Janson Smith جانسون سميث ·· الذى كنت أعتمد عليه في تذليل أى عقبة حيث قد اعطاني صديقي جرين لو Green Lou خطابا يوصيه بأن يكون عونا لنا في رحلتنا ·

وقد بدت معاكسات هذا الرجل من البداية · لقد اخطرت مديرية التعليم مسبقا برحلتي هذه وأن المطلوب هو زيارة كل ما يمكن زيارته من المدارس ، سواء في الغرب أو الشرق ، لكتابة تقرير عما هو موجود واقتراح ما يمكن اضافته او تحسينه · ولقد أوصى مدير التعليم « هلبرت » الذى تعرفت عليه في الخرطوم من قبل ·· أوصي نائبه جانسون سميث بأن يسهل كل العقبات لى ولزوجتي ، حيث انه قام في اجازة الى انجلترا وقد ترك لى « هلبرت » سيارته اللوري لاستعمالى طوال الرحلة ··

وكان أول ما عمله جانسون سميث هذا أن ترك لى خطابا مفصلا فيه مقهما جدولا يرسم فيه المسار ، محددا مناطق معينة لزيارتها ، متجاهلا مناطق اخرى لا يرغب هو في أن أزورها · هكذا فهمت من تعليق الأخ حامد السيد على فحوى الخطاب ومسار الرحلة الذى حدده ، وكذا قد

طلب منى فى نفس الخطاب أن انتظره فى يوم كذا لأقابله للتفاهم على كل شىء حينما يعود من رحلته بعد يومين ٠

« لا تعر أى اهتمام لكلام هذا الرجـل ، سنقرر نحن ما نريد أن نزوره » هكذا قال لى حامد السيد ٠

وفعلا لم أفكر لحظة فى أن أقابل هذا الرجل بالرغم من خطاب التوصـية ٠٠

توجهت مع حامد السيد الى المديرية لكى نجد سيارة أخرى لاتمام تنقلاتى بين البلاد المختلفة ٠٠

وهناك قابلت جانسون سميث لأول مرة ، فحيانى ببشاشة انجليزية تماما ، سائلا لماذا لم انتظره لأتفاهم معه حول مسار الرحلة ، بل لماذا بدأت الرحلة بمسار معاكس لما قرره لى فى خطابه ، يعنى زيارتى ليبى Yei ٠٠ وقال انه علم بأن السيارة قد كسرت سوستتها ، واصـلاحها يقتضى بعض الوقت قد يصل الى يومين أو أكثر فقلت له انه من المستحيل أن أفقد يوما واحدا ، وأن مهمتى ينبغى أن تتم فى مدى محدد ، كما هو معروف لدى مدير التعليم ، وأنت نائبه على ما أظن ! قال انه لايمكن عمل شىء الا اذا أنا استطعت استئجار سيارة ، وأن الحكومة ستدفع التكاليف ، ورد حامد السيد بأن هذا ممكن ٠ وتركنا جانسون سميث ، ومضى بى حامد السيد الى مكتب جورج حجار قائلا ان عنده سيارات يؤجر احداها فى بعض الأحيان لموظفى المديرية من الانجليز اذا ما احتاج الأمر ٠

وتركنى على باب المكتب وانطلق هو الى عمله قائلا انه سينتظرنى فى بيته عند الظهر وسيرسل لى سيارة لهذا الغرض ٠

دخلت الى مكتب جورج حجار فاستقبلنى شاب لم يتعد الخامسة والثلاثين من عمره ، وكانت زوجته الشابة ــ وقد تزوجا حديثا ــ تجلس فى مقعد بجواره ، فقدمت نفسى اليهما بأننى مصرى مبعوث من مديرية التعليم فى الخرطوم لعمل تقرير ٠٠٠ الخ ٠٠ فرحبا بى الاثنان ، وقالت زوجته انهما قد تزوجا حديثا فى القاهرة ، وهى تزور السودان لأول مرة ٠ ولما علمت بأن زوجتى معى طلبت التعرف عليها ٠٠ وتشاء الصدف أن تكونا على معرفة تامة من قبل ، بل كانتا زميلتين فى الدراسة فى مصر ٠

كان هذا اللقاء مثمرا من أكثر من ناحية ، فجورج حجار رجل أعمال ناجح له أكثر من مزرعة فى الجنـوب ، وقد زرت احداها بالفعل فى كابنجرى وقد أوصانى بزيارة ثانية فى واتوكا ، وأنه سيرسل تعليماته الى هناك لاستقبالى والاقامة فى منزله حينما أشاء ٠ كما أعطانى السيارة

فورا ، وقال لا تشغل بالك بالناحية المالية فانه يتعامل مع الحكومة منذ زمن طويل ، وانه سيرسل الفاتورة بعد استعمال السيارة مع السائق بالطبع لأى مدة أشاء ولأى مدة أريد · وكانت السيارة ليموزين قوية ومريحة للغاية ··

ذهبت الى المنـزل ·· منـزل حامد السيد ·· وأخبرت زوجتى بما وجدت : السيارة ثم زوجة جورج حجار التى تعرف زوجتى حق المعرفة ، كما قالت زوجتى انها زاملتها فى الدراسة بل لقد كان هناك مشروع خطبة لأخيها الأصغر لهذه الفتاة ·

وسر حامد السيد كذلك بهذه المعرفة ، وقال ان جورج حجار رجل أعمال ناجح ، وفوق مزرعته التى يملكها فانه يملك منجما للذهب ، يستخرج منه كما لا بأس به اقتصاديا ··

فى اليوم التالى أرسل لنا جورج حجار السيارة مع السائق ، ورسم حامد السيد خط السير ، وكان الى الشرق عكس اتجاه الرحلة السابقة الى بيى ··

كانت « بالوتاكا » أول بلدة قابلتنا ··

بلدة صغيرة بها مدرسة بنين وبنات ·· أساتذة من الرهبان والراهبات ·· من ايطاليا ·· كاثوليك ·

كانت البعثات التبشيرية تنقسم الى قسمين : قسم كاثوليكى وينتشر عموما فى الشرق ، والقسم الآخر بروتستانت وينتشر عموما فى الغرب ايطاليون وانجليز · الاسلام ليس له مكان فى التبشير بهذا المعنى ·

بالوتاكا فى الشرق خاضعة للتبشير الكاثوليكى ·

زرنا المدرسة واطلعنا على كراسات التلاميذ وكان من الطريف أن نجد أن التلميذ عندما لايجد الكلمة أو الاسم للشىء المراد وصفه فهو لا يتردد فى أن يرسم شكلا معبرا مثل دجاجة أو أوزة أو جندى · وهكذا فكان كل سطر يحوى رسما أو اثنين على الأقل ·

حضرنا ترتيلا جميلا وغناءا دينيا لطيفا من التلميذات تحت اشراف احدى الراهبات ، ثم دعينا الى العشاء مع الرهبان ، فلبينا الدعوة شاكرين ، فلقد كان لدى أكثر من سؤال كنت أرجو أن أجد له جوابا عندهم ·

بدأنا الحديث ببعض الأسئلة ولكن شعرت أنهم يتحفظون كثيرا فى الاجابة ، بل كانوا هم يبادرون بأسئلة ردا على أسئلتنا ·· وسار الحوار هكذا بدون أن أصل الى اجابة شافية عن اسئلتى حتى بدأنا العشاء وقدم

لنا بعض من النبيذ فبدأ التحفظ يزول قليلا قليلا · وكان من بين الرهبان واحد منهم يدعى ديلزوتو Fathes Delzotto علم منى أن وجهتنا توريت Torit فطلب منا اذا كان من الممكن اصطحابه معنا الى هنــاك ، حيث المواصلات « شخصية » بحتة أما سيارة تابعة للارسالية أو عجلة دراجة «بسكليت) وهذه هى الأغلب يقطعون بها أميالا وأميالا · وقد أجبته على الفور بان سيارتنا تتسع له ولغيره من الرهبان اذا أراد أحدهم الذهاب الى توريت ·

فكانت هذه نقطة تحول فى زوال معظم التحفظ ، وأمكننا التحدث فى حرية أكثر حيث علموا منى أننى مرسل من قبل مديرية التعليم فى الخرطوم لكتابة تقرير عن التعليم فى الجنوب ، ومعرفة أية صعوبات أو معوقات سواء للتعليم الحكومى أو للارساليات التبشــيرية التى تمارس نشاطا تعليميا مكثفا فى جنوب السودان ·

تحدث الأب « ديلزوتو » Delzotto باسهاب عن ما تصادفه الارسـاليات الايطالية فى الجنوب · طبعا هناك صعوبات واضحة فى الاتصال بين القرى المختلفة التى تضم نشاطا تعليميا ودينيا للارسالية ، فلا توجد أية وسيلة للمواصلات سوى بعض العربات الخاصة للارسالية لايمكن أن تكفى المسافات الطويلة والطرق الوعرة · وتستعمل هذه السيارات عند الضرورة لنقل أكثر من فرد أما تنقلات أفراد الارسالية فهى لاتتعدى السير بالقدم أو ركوب (بسكليت) دراجة · وهذه صعوبة الجنوب كله ، فلا توجد طرق معبدة للسيارات ، حيث ان الجنوب بوعورته وكثافة غاباته تشق فيه الطرق بالكاد بغير تعبير ـ لمرور اللوارى بالمؤن والركاب بين حلة وأخرى ·

(الحلة = القرية الصغيرة) ·

ولكن كان هناك صعوبات أخرى غير الطبيعة الصعبة والطرق الوعرة ، والأمطار التى تسقط على الدوام فى غزارة ، وكذلك الأمراض الخطيرة التى تنتشر ولا توجد مستشفيات كافية ، ولا أطباء على درجة من التخصص أو الخبرة الطويلة ، فمعظمهم من الممارسين الشبان · كانت الصعوبة الاولى التى تحمس ديلزوتو فى شرحها هى الآتى :

١ ــ الجنوب السودانى بقبائله المتعددة يتحدث كل منها بلغة تختلف عن القبيلة الأخرى وبالتــالى يوجــد فى الجنوب أكثر من ســتين لغة ولهجـــة ·

٢ ــ على الارساليات التعليمية والتبشيرية فى المقام الأول أن تعد من ترسله الى منطقة ما يعلم بلغتها ولهجتها والذين يرسلون الى منطقة معينة لا يمكنهم الانتقال الى منطقة أخرى ، قبل أن يتعلموا لغتها ٠

٣ ــ الكتب الدراسية تطبع خصيصا لكل منطقة بلغتها ، وهذه كانت الصعوبة الكبرى ٠ وهى من أهم المعوقات التى مازالوا يبحثون عن حل لها حتى هذه اللحظة بغير نتيجة ٠٠

٤ ــ اللغة الوحيدة التى تجمع رجال القبائل على التفاهم بها فيما بينهم هى العربية (المكسرة) ، فمثلا اذا تعطلت السيارة يعبرون عن ذلك بقولهم (عربية موتو) ٠ وقد أمكنهم التفاهم بهذه العبارات العربية المقتضبة والمعبرة تماما ٠

٥ ــ طلبت الارسالية المركزية من حكومة السودان الانجليزية فى المقام الأول ــ أن يسمحوا لهم بطبع الكتب بلغة واحدة ، ولتكن العربية حيث انهم ، يتكلفون الكثير فى الطبع بلغات عديدة مختلفة حسب اختلاف الاماكن والقبائل واللهجات ٠٠

رفض الطلب !

وعدل الطلب الى اللغة الانجليزية ٠

ورفض الطلب أيضا ٠ ولم يبق الا اللغة الايطالية ٠ وكان الحرج يمنعهم لادراجها فى طلبهم كبديل ! ولكنهم لم يدرجوها لعلمهم مقدما بأنها مرفوضة تماما ٠٠٠

دار هذا الحديث وأنا أدونه بأمانة فى حينه ٠ انهم يعرفون أن مثل طلبهم هذا لطبع الكتب بلغة واحدة معناه أن القبائل ستجد السبيل ممهدا الى التقارب والوحدة ، عن طريق وحدة اللغة ، ثم وحدة الدين الكاثوليكى الذى تبشر به الارساليات الايطالية ٠ وهذه الوحدة والتقارب لن يرضى الانجليز وسياستهم المعروفة « الفرقة » والفرقة دائما للسيادة وسيادة الانجليز طبعا أو « فرق تسد » كما يقال عن سياسة الانجليز الاستعمارية بعامة ٠٠

لم أعلق بشىء كثير على ما سمعته سوى أننى بموضوعية تامة ساشرح وجهة النظر هذه الى الحكومة : مديرية التعليم ، بل سأبدى الرأى بالأخذ بها ولو جزئيا وعلى فترات اذا أمكن ٠

تركنا الرهبان والقسس الايطاليين بعد أن شكرناهم على دعوتنا للعشاء ، وتلطفهم معنا فى الحديث ، حتى الشكوى من سلوك الانجليز معهم ، ثم ذهبنا للنوم ٠٠٠

في الصـــباح البــاكر تركنـــا بالوتاكا الى توريت ومعنـــا ديلزوتو ، وكان مسرورا اذ وجد سيارة تنقله الى توريت • كان الطريق شاقا حقا ، ولكن السائق كان أكثر من ممتاز • وكان ديلزوتو يثرثر أثناء الطريق عن سياسة الانجليز ، وعن موسوليني والملكة في ايطاليا • وتركته يثرثر ولم أرد جوابا •

وقبل أن نصل الى توريت مع وعورة الطريق الذى تحف به غابات كثيفة قال لنا ديلزوتو محذرا ، ان المنطقة منطقة أفيال • ولكننا لم نمر منها طوال اقامتنا فى ما بين توريت وكترى لمدة خمسة أيام •

★★★

وصلنا توريت ، وذهبنا من فورنا الى الاستراحة • ولكن ما لبثنا الا قليلا حتى طرق الباب « زاهر أفندى » : مصرى يعمل فى توريت منذ سنوات عدة • حيانا مرحبا بنا فى توريت ، ولكن كان هناك ســؤال واستفسار • وما كدت أنطق بأول كلمة حتى فاجأنى زاهر أفندى : نعم ستسألنى كيف عرفت بحضورك ، والجواب بأن مفتش التعليم الانجليزى جانسون سميث أخطر المنطقة بحضورك اليوم ، وكان المفروض أن تنزل ضيفا على المفتش District Commissioner ـ أى حاكم المنطقة ـ الذى لديه كل سلطات الحاكم العـــام على السودان حتى الحكم بالاعـدام • وأنه أى زاهر أفندى كان فى انتظار حضورى ، ولما علم أننى اتجهت لفورى الى الاستراحة أتى ليدعونى الى تناول الغذاء عنده فى منزله ، ثم المبيت عنده اذا كنت لا أريد أن أبيت عند المفتش الانجليزى بالطبع •

شكرته واعتذرت عن المبيت عنده أو عند المفتش هذه الليلة ، حيث ان زوجتى قد أعدت كل شىء للمبيت فى الاستراحة ، ولكنى قبلت دعوته للغذاء ، حيث كنا فى حاجة الى أكلة طازجة وساخنة اذ كان اعتمادنا كلية على المعلبات والفاكهة المحفوظة •

وفعلا ذهبنا مع زاهر أفندى ، وكان كريما للغاية وسخيا فى كل شىء • ولم يتركنا الا بعد أن تناولنا العشاء أيضا ، وكان يعتذر لغياب زوجته اذ كانت فى زيارة الى مصر •

كان حديثه شيقا عن المنطقة . وتطرق الى شخصية المفتش الانجليزى قائلا : انه رجـل محبـوب للغـاية ، وهو من عائلة Words Worth الشاعر الانجليزى الكبير وهو جده ، وانه أى المفتش عندما ينزل الى المدينة ايزور اى مكان ، حيث يعرف أهالى المنطقة معرفة وثيقة ـ فكان الأطفال يسيرون خلفه مرددين اسمه فى سرور وفرح قائلين وزوز ـ وزوز ، وكان هو أيضـــا مسرورا بحب الأطفـــال والأهالى له ونصحنى بان أقبـــل ضيافته لى •••

فقلت له – نعم – فلقد شوقتني لمقابلة هذا الرجل الانجليزى الذى هو فى أعلى سلطة فى المنطقة ويكن له الأهالى هذا الحب والود الكبير ..

ولكنى سأبيت الليلة فى الاستراحة ، وسأذهب غدا الى كترى Cater حيث قيل لى انها من أجمل بقاع الجنوب فى السودان ، وعند عودتى سأذهب لمقابلة « وزوز » ..

وفى الصباح عملنا جولة فى توريت ، وعند الظهر تناولنا غداء خفيفا ورحلنا بالسيارة الى كترى .

الطريق صعب للغاية ..صعود مستمر ، والسيارة تصعد بصعوبة مع تغيير السرعة الى الأدنى والأقوى بتحريك « الفيتيس » الى البدايات . ثم مما زاد الطين بله انهمار المطر بشكل مزعج للغاية . وصلنا الى كترى قرب مغيب الشمس بقليل ، ولم نعرف طريقنا الى الاستراحة وقد اضطررت لايقاف السيارة حيث رأيت أحد الانجليز مطلا من نافذة بيته ، وسألته عن الطريق الى الاستراحة ولكنه لم يستطع أن يدلنى أو يرشد السائق الى الطريق الصحيح .

ولقد تصرف السائق ببديهية اذ قال ان هناك استراحة للمستوى الأدنى من الموظفين أى « الموظفين السودانيين » .. [« اذ كنا نعامل نحن المصريين المؤهلين جامعيا على نفس مستوى الانجليز »] .

قلت اذهب الى أى استراحة لنتفادى المبيت فى السيارة وذلك المطر الغزير لاينقطع . وفعلا ذهب بنا الى « قطية » وتنطق « جطية » ، « والقطية » عبارة عن مبنى دائرى مسقوف بأعواد من خشب الشجر والقش الكثير الذى يمنع المطر تماما . والقطية التى دخلناها كانت رحبة ومقسمة الى أقسام ولكن ليس بها فراش للنوم أو أى مقاعد سوى مقعدين متهالكين ومنضدة قذرة . وهذا كل ما هنالك ... تركنا السائق ليجد له مكانا آخر للنوم قائلا انه سيأتى فى الصباح الباكر بعد أن يكون قد استفسر عن الاستراحة المناسبة . أخرجنا بعض حاجياتنا .. أولا اعددنا فراشنا للنوم : سريرين صغيرين «سفريين» مع كل منهما «ناموسية» ثم فانوسا يوقد بالجازولين .. « ضد الهواء » . ترموس للماء ثم بعض المأكولات ، وحالنا أن نوهم أنفسنا بأن كل شىء على ما يرام سوى ذلك المطر الذى لم ينقطع طوال اليوم .

بعد التشاور والحديث مع زوجتى عن الغد وهل سنبقى فى توريت لاتمام الزيارة للمدرسة والمدينة أم سنرحل الى « كترى » Cateri وقد قيل لنا انها أكثر من رائعة بمناظرها وغاباتها وينابيعها الجارية على الدوام ، فكنا أميل الى اتمام الرحلة الى كترى ثم العودة الى توريت لنجد فيها مقاما

أفضل من هذه «القطية» · ثم دلفنا الى أسرتنا بعد أن أحكمنا «الناموسيات» تماما حولنا وتركنا المصباح مضاء بالكاد ··

حاولنا النوم ·· ولكن «القطية» لم يكن لها باب لنغلقه لنأمن شر الأفيال والحيوانات المفترسة التى قالوا لنا انها تكثر فى هذه المنطقة والتى لم نر منها شيئا حتى الآن ·

هذه الفكرة – فكرة الحيوانات المفترسة والباب المفتوح أو ، بالأحرى الباب غير الموجود ·· بدأت تثب الى خاطرى · لم يكن معى سلاح من أى نوع سوى سكين المطبخ ، وحتى اذا كان لدى سلاح من أى نوع ماذا سيجدى هذا السلاح مع تلك الحيوانات المفترسة اذا ما هاجمتنا بالفعل ·

ظل هذا الخاطر يراودنى حتى شعرت بأن عايدة قد نامت بالفعل وبدأ النعاس يداعب أجفانى · ولكن ·· رأيت – أو خيل لى أنى رأيت – عينا براقة تلمع فى الظلام ثم تلتها الثانية والاثنتان قد تقاربتا مع بعضهما ، ثم ما لبثتا أن اقتربتا من السرير · لقد اعترانى الخوف فعلا : هذا هو نمر أسود أتى جائعا يبحث عن فريسة ، لن أستطيع عمل شىء الآن للدفاع عن عايدة وعن نفسى سوى أن أصرخ صرخة قوية لأفزع هذا الوحش لعله يرحل ، وبالفعل بدأت أستعد للصراخ ويدى على سكين المطبخ التى وضعتها تحت الوسادة تحسبا لما يمكن أن يحدث · صرخت ولكن لم يخرج أى صوت فلقد رأيت شيئا عجيبا بالفعل ·· رأيت العينين المضيئتين تتباعدان عن بعضهما أكثر من نصف متر عرضا ثم أكثر من متر رأسيا ، وجعلتا تتقاربان وتتباعدان ولا هجوم لوحش أو غيره ·

خرجت من السرير وقد خرجت عايده أيضا منزعجة ، حيث شعرت بى خارج السرير · استفسرت عايده عما اخرجنى من فراشى ولماذا لم أنم ، فأشرت الى تلك العينين المضيئتين تتراقصان ، وأنا أضحك من نفسى ، اذ لم تكونا سوى حشرتين مضيئتين تتراقصان فى بهيم الليل ·

رفعنا من اضاءة المصباح ··· ضحكنا . ولكن مازال هناك بعض من خوف ·· سددنا الباب بالمنضدة والكراسى ·· ولكنا مع ذلك لم نستطع النوم كما ينبغى · غفوة ثم صحوة حتى الصباح · أوقدنا « وابور الجاز » وشربنا الشاى ساخنا مع قطعة من الخبز وأخرى من الجبن وكان افطارا جميلا بعد تلك الليلة التى لم نذق فيها طعم النوم الا قليلا ·

ما أن انتهينا من الافطار الا وجاءنا السائق بالسيارة ، قائلا انه استفسر عن الاستراحة المعلقة كما ينبغى ، ولكنه أردف أن « المفتش » وردز ورث أخبره بأنه يدعونا ويرحب بنا فى منزله · كانت مفاجأة سارة لنا ،

لما سمعناه عن ذلك الرجل وكيف يحبه الأهالى ، اذ كثيرا ما يزورهم فى « حللهم » ·· ولكننا كنا عزمنا على الرحيل الى كترى ثم العودة الى توريت ،فأبلغنا السائق بذلك على أن يبلغ «المفتش» شكرنا واننا سننزل فى ضيافته شاكرين بعد زيارة كترى · وقد كان ·

★★★

رحلنا مبكرا الى كترى ·· صعود مستمر ·· المطر مستمر والطريق تحف به غابات كثيفة : أشجار ضخمة ترتفع أكثر من ثلاثين أو أربعين مترا ·· الجو يبرد كلما اقتربنا من كترى ·· انها على ارتفاع قد يبلغ الألفى متر كما قيل لنا · المناظر من هذا الارتفاع الى الوديان والمنخفضات التى تعج بالأشجار أكثر من رائعة · لقد ذكرتنى كترى بجبال لبنان ، ولكنها فى رأيى أروع بغزارة أشجارها ووحشيتها · اننا وان كنا نسير على ارتفاع شاهق الا أن جبالا أخرى ترتفع على الجانب ارتفاعات أخرى شاهقة · ان ضخامة الأشجار – لا تصدق ·

ان محيط الشجرة الواحدة يبلغ أكثر من اثنى عشر مترا أو يزيد كما قدرناها ، وترتفع أحيانا الى أكثر من ثلاثين مترا – وتنتشر فى غزارة على سفوح الجبال وفى أعاليها ···

فى كترى – استراحة لطيفة على ربوة تشرف على سفوح تغزر فيها الأشجار · والاستراحة معدة اعدادا طيبا ومريحا ··

قررنا المقام فى كترى أكثر من يوم ···

تجوال على الأقدام مع تلك الطبيعة الغنية بغاباتها وينابيعها المتدفقة على الدوام ، والماء البارد يتدفق صافيا زلالا · كنا نعب منه كلما مررنا بينبوع ، فقد قيل لنا ان مياه كترى مفيدة للصحة ·

فى كترى مصنع صغير فى حجم كبير فى انتاجه · مصنع يدار بقوة دفع المياه « هيدروليك » ، جهزت أدواته فى سطح جبل يعلو أكثر من ستين مترا عن موقع المصنع وقد ثبت على سفح هذا الجبل مجرى محدد من الجانبين بحوائط ثابتة من الأخشاب ، يدفع منها الماء على الدوام ، حاملا القطع الضخمة من الكتل الخشبية « logs » لتسقط فى حوض كبير مملوء بالماء المتساقط ، حيث تمكث هذه الكتل فى ذلك الحوض الكبير أكثر من ستة شهور « seasayin » لتصبح صالحة للاستعمال فى أعمال التجارة ، ثم تدور الآلات هيدروليكيا لتسحب الكتلة تلو الكتلة لتضعها على قاعدة حديدية ، حيث المنشار الضخم الذى يشقها حسب المراد للتصنيع ، ثم يحمل الناتج للتصدير لانجلترا فى الغالب ·

وهذا المصنع يديره أحد الأهالي المحليين ، وهو شاب لايتجاوز عمره أكثر من ثلاثين عاما يدير هذا المصنع بآلاته وحده بسهولة وكفاءة ممتازة . يعمل هذا الشاب نحوا من ثماني ساعات · وسألته عن أجره فقال باسما — بل شبه متفاخر — بأن مرتبه قد بلغ ثلاثة قروش يوميا ، مع كمية لا بأس بها من « الفتاريتا » أى الذرة الرفيعـــة قد تبلغ رطـلا كاملا كل يوم ··

لقد شعرت بأنه كان فخورا متباهيا بما يحصل عليه من مرتب · نعم فقد كان مرتبه يصل الى ثلاثة أضعاف العامل العادى ، اذ انه قرش واحد وأقل من نصف رطل من « الفتاريتا » ·

مدير مصنع · بثلاثة قروش يوميــا ! بل انه مدير كفء تماما ، ويقوم بعمله على أحسن ما يكون ، وقد راقبته أكثر من ساعة وهو يعمل بنشاط تام · وقد استوقفته ليشرح العملية كلها ، وكان فى شرحه على نفس المستوى من الكفاءة والدراية بكل الدقائق ·

لقد فارقت المصنع وأنا أفكر فى تلك الشركات الجشعة التى تستغل ثروات البلاد المستعمرة ، بل وتستنزفها لقاء قروش قليلة تدفعها لمثل هذا العامل وغيره · انها شركة انجليزية بالطبع ، ولقد علمت أن هذه الأخشاب التى تقطع من الغابات وتسوى ثم تشحن الى انجلترا هى من نوع ممتاز يسمونه فى السودان أم الحجر ، لصلابته وخفته فى نفس الوقت ·

لقد شاهدت مصنعا آخر فوق الجبل وقد خـرب تماما ، وتركت آلاته مهملة لايستغلها أحد ، واستفسرت عن السر فى ترك هذا المصنع بلا عمل ·· فقيل لى ·· أنه شركة مشتركة أجنبية مصرية من الاسكندرية جاءت الى هذا المكان ، وأخذت التصاريح اللازمة من الحكومة السودانية (الانجليزية) لتقيم هذا المصنع فى هذه المنطقة ، أثناء قيام الحرب العالمية الثانية ، وذلك لتصنيع اعواد الكبريت حيث قد شح أو امتنع استيراد الأخشاب اللازمة لها من الخارج ، وأن أخشاب أشجار هذه البقعة من كترى كانت صالحة تماما للغرض ، ومن ثم فقد جاءت الشركة بالمعدات والآلات اللازمة ، واستخدمت الكثير من العمال السودانيين ، ودفعت لهم أجورا اعتبرها الانجليز مرتفعة أكثر مما ينبغى ، فقد بلغت سبعة قروش للعامل فى اليوم خلاف وجبة غذاء كاملة ، وبالتالى فهذا الأجر المضاعف أكثر من سبع مرات عن أجر العامل فى الشركات الانجليزية قد اعتبر تخريبـا ومنافسة « غير مشروعة » لها ·

وبالتالى فقد أغلق مصنع عيدان الكبريت بالطريقة الانجليزية ، وهى اصدار الأوامر سرا الى أعوانهم لمنع العمال من العمل فى المصنع والا جرموا

بأى تهمة يخترعونها · أغلق المصنع وتركت الآلات والمعدات لتتكلف تماما ، فلقد كان نقلها الى مصر يكاد يكون مستحيلا لتكلفة النقل ، أولا ، وثانيا للصعوبات التى سيضعها الانجليز فى سبيل هذا النقل ··

أمضينا يومين فى كترى فكانا أكثر متعة من أى مكان آخر زرناه فى منطقة الجنوب ، ثم ارتحلنا عائدين الى توريت حيث نزلنا ضيوفا على وردز ورث Words -Worth حاكم الاقليم الانجليزى ·

كان البيت بسيطا منسقا به كل الراحات ···

صاحب البيت انسان بسيط مثقف ، يحتفظ ببضع لوحات زيتية ومائية ، احداها أصلية للفنان أوتريللو Otrillo · ولديه مكتبة منوعة غنية وموسيقى كلاسيكية : هاندل ـ باخ · الخ ·· يتحدث فى بساطة تامة متحررة ، ينتقد حكومته فى السودان فى أحيان كثيرة ـ كريم فى كرم السودانى والشرقى عموما · حدثنا كثيرا عن عادات الأهالى فى منطقة توريت،ونوعية القبائل وعاداتهم،بل ووعدنا بزيارة لهؤلاء السكان فى ديارهم ، ومشاهدة احتفالاتهم ورقصهم ·

وفعلا ذهبنا فى اليوم التالى الى « حلتهم » وكان وردز ورث يشرح لنا كل شىء ، فهو يعرف كل شىء عنهم : جميع أنواع الحراب المختلفة ، فهناك حراب للحيوانات المختلفة ، فمنها الخفيفة ومنها الثقيلة للجاموس الوحشى · وكذا السهام فهى متعددة الأنواع لكل نوع غرض معين فمنها للجرح والادماء فقط ، ومنها للقتل ، تدخل ولايمكن انتزاعها بسهولة · وقد شرح لنا أيضا الكثير من العادات والتقاليد لهؤلاء القبائل وقد زرنا مكانا فسيحا به « قطيمات » كبيرة رحبة ، وقال انها بمثابة ناد اجتماعى لهم . يجتمعون فيه لحل مشاكلهم،وللسمر وبعض الألعاب والرقص وخلافه، وقد شاهدنا كثيرا من النسوة وبوجوههن تجاعيد جلدية مرسومة ومخورة على شكل خصلات من الشعر المجعد وقد فسر لنا وردز ورث ذلك بأنها عادة قديمة فى التزين اذ أنهم «يشلخون» وجوههم بهذه التجاعيد على شكل خصلات الشعر وذلك منذ الصغر وذلك بموسى حاد ، ويتحملون آلام هذه « الشلوخ » كما يسمونها ، فهى من علامات الجمال والزينة ، وكذلك الرجال يعمدون الى هذه « الشلوخ » بأنواع مختلفة ـ كما أن النساء لهن طريقة رائعة فى عمل ضفائر رفيعة من شعورهن وتبدو فعلا جميلة فى تصفيفها ··

هكذا قضينا بضع ساعات فى التجوال مع « وردز ورث » فى التعرف عن «اللاتوكا» لهؤلاء القبائل وطرق معيشتهم وزينتهم وناديهم الاجتماعى ·

وكان وردزورث يشرح لنا كل هذا وهو سعيد بالتفاف الأهالي من حوله في ود حقيقي ٠

وعدنا الى المنزل وهناك تناولنا العشاء ودار الحديث حول ما شاهدنا في عصر ذلك اليوم ثم انتقل الحديث الى الفن التشكيلي والتغير الكبير في نظرة الفنان التشكيلي للطبيعة ، بل ومحاولة البعد عنها الى احتقارها في مركزات تجريدية بعضها ناجح في دلالته،ونقله رسالة جمالية الى المشاهد، والبعض الآخر يقف في منتصف الطريق ، عاجزا الا عن تشكيل يكاد يومىء الى شيء ما ، ويترك الباقي للمشاهد ليفسره كما يشاء ٠٠

عزمنا على الرحيل قبل ظهر اليوم التالي فسألني وردزورث : هل ترحلون قبل تناول الغذاء قلت نعم ، حيث اننا سنذهب الى أوكارو وقد علمت أن صعود الجبل الى المدرسة يستغرق وقتا طويلا ، فأمن على قولى قائلا نعم فالمستحسن الوصول الى أوكارو في وضح النهار ، ثم أمر باعداد الغذاء لنأخذه معنا وربما لنأكله فى الطريق ، وفعلا حدث هذا فقد كان الغذاء عبارة عن خروف صغير أى حمل ، أعد جيدا ثم شـــوى في الفرن ٠٠

ودعنا وردز ورث راجيا أن نتقابل مرة أخرى وليكن في الخرطوم مثلا أو في لندن ٠٠

تركنا توريت وما مر ما يقرب من ساعة واحدة الا ووجدنا الظهر قد اقترب ٠ وأتينا على الحمـــل عن آخـره ، نحن والســـائق ٠ كان لذيذا للغـــاية ! ٠

★★★

وصلنا الى سفح جبل أوكارو حيث تعلو قمة هذا الجبل ارسالية ومدرسة ٠ وسألت السائق كيف الوصول الى هذه القمة ٠٠٠ قال ان هناك طريقا يعرفه أهالي المنطقة للتسلق الى القمة والصبية هنا يعرفون هذه المسالك معرفة تامة ٠ ثم ما لبث أن نادى بعض الصبية وأعطاهم حقائبنا وحاجياتنا الضرورية قائلا اتبعوا هؤلاء الصبية وذلك نظير بضعة قروش ٠٠ لم نكد نلتفت الى هؤلاء الصبية حتى رأيناهم بأحمالهم يتسلقون الجبل في شعاب وطرق وهم فرحون مسروورن ، بينما نحن نتبعهم في بطء شديد ، وهم يتسلقون في سرعة مدهشة حتى خفنا أن نفقد أثرهم ٠ وفعلا بعد فترة وقد قاربنا القمة ونحن في تعب شديد ــ لم نجد أى أثر لهؤلاء الصبية ، ولا أى أثر يرى للارسالية والمدرسة حتى كدنا أن نعود من حيث أتينا ولكن ما كدنا نهم بذلك حتى برز أحد الصبية من حيث لا ندرى مناديا علينا مشـيرا الى أعلى ٠ فقدمنا على كره منا فقد أصابنا التعب والارهاق من هذا الصعود الطويل ٠

وأخيرا وصلنا ··· وهناك قابلنا أحد الرهبان الايطاليين وابغنا فى أسف ظاهر بأن الاستراحة «الأولى» مسكونة حاليا بأحد الانجليز ، وأنه لا مفر من استعمال الاستراحة «الثانية» · وسألته عن الانجليزى وكنت شبه واثق من الاجابة ، حيث قال انه مفتش التعليم جانسون سميث · نعم لن يكون الا هو فهو يعلم حركاتنا ويرصدها جيدا ، ولقد أراد بسبقه لنا الى أوكارو والمبيت بالاستراحة «الأولى» بل وتحذير الرهبان منا — أن يضع العراقيل لمهمتنا·قبلت الوضع ببساطة ودلفنا الى الاستراحة ، وكانت مجهزة بشكل طيب الى حد ما : من فراش ومنضدة وكراس وخلافه من ثم فقد رتبنا حاجياتنا البسيطة ، وتناولنا طعاما خفيفا للغاية مع فنجان من الشاى الساخن حيث كان الجو أميل الى البرودة فوق الجبل ، وكانت الشمس على وشك المغيب ···

بعد فترة وقد أمسى الليل تقريبا جاءنا أحد الرهبان راجيا أن ننتقل الى الاستراحة «الأولى» حيث ان جانسون سميث قد رحل·فشكرته ورفضت الانتقال مفضلا البقاء فى مكاننا ··· وعندئذ رحل الراهب آسفا ·

كان لطيفا هنا وصادقا فى تأسفه ولم تمض بضع دقائق حتى حضر الينا نفس الراهب ومعه آخر ورجانا أن نقبل دعوة الرهبان لنا لتناول العشاء معهم ، فقبلت ، لأن الفرصة ستكون سانحة للتعرف على وجهة نظر هؤلاء فى نظام التعليم وما يفرض عليه من قيود من الانجليز فى هذه المنطقة بالذات ··

وتطرق الحديث الذى بدأ باردا متكلفا الى عدة نقاط ومسائل اكتسبت بعضا من حرارة أكواب النبيذ التى رشفها هؤلاء الرهبان الطيبون ، وظل الحديث يدور حول موسولينى والملكة فى ايطاليا الى أن استقر حول السياسة الانجليزية فى السودان · لقد كنت مستمعا أكثر منى متحدثا ولم يزد حديث الرهبان عما عرفته من قبل حول السياسة التى ينبعها الانجليز معهم ، وعرقلتهم عن عملهم بشتى الوسائل · ثم ألقيت بسؤال عما جاء « بجانس سميث » مفتش التعليم فى ذلك الوقت أى قبل حضورى ببضع ساعات وانصرافه بعد حضورى بساعة واحدة ولم يشأ أن يقابلنى ···

فكان الجواب الصمت · لقد حجز الاستراحة الأولى · نعم لكى لا يحتلها مصرى أو أى شخص آخر غير انجليزى · ثم انه جاء ليحذر المسئولين عن المدرسة والارسالية من الترحيب بهذا المصرى،وعدم التطرق معه فى حديث ذى أهمية ما ، ولا الادلاء بأية معلومات على الاطلاق حتى

اذا طلبها هو — لأنه جاء ليستقى كل المعلومات عن النشاط التعليمى وكذا نشاط الارساليات فى شتى المحاولات ٠

كنت أسأل والكل صامت ٠

ثم بدأت أسأل وأجيب أنا بنفسى ٠٠ فكانوا يومئون بالايجاب ٠ وبتلك الطريقة عرفت رأيهم ٠ ثم فى النهاية بدأوا يتكلمون بصراحة ٠ ولم تزد معلوماتى بصراحتهم عما ذكرته٠وهكذا أمضيت الليلة فى أوكارو ٠ وفى الصباح زرت المدرسة ، وبها أكثر من ستين تلميذا وتلميذا والكل يتعلم بلغتهم المحلية ٠٠٠ وعلى الأساتذة الرهبان أن يتعلموا لغة المنطقة ، واذا ما حدث أن نقل بعضهم الى مركز آخر أى الى منطقة ذات لغة مغايرة فعليهم أن يتعلموا اللغة الجديدة وهكذا ٠ كانت الشكوى المرة للارسالية الايطالية الكاثوليكية من عدم امكان توحيد اللغة بين القبائل على الأقل اللغة التى تطبع بها الكتب ٠٠٠

***

عدنا الى جوبا ٠٠٠ ولم نشأ أن نثقل على حامد السيد فى الاقامة بمنزله خصوصا وقد أقمنا ثلاثة أيام من قبل وهى الضيافة المقبولة من الطرفين كما جرى العرف كما كنت أعلم ٠

ذهبنا الى الفندق وهو فندق حكومى أقيم لراحة الزوار الانجليز أولا ٠ كان المدير مصريا يهوديا ٠ ولكن ما أن استقر بنا المقام فى الفندق ساعات قلائل ، اغتسلنا فيها وارتدينا ملابسنا ٠ حتى أخبرنا بأن حامد السيد فى انتظارنا فى البهو ٠ نزلت أنا أولا وكان حامد السيد غاضبا : « كيف تترك «منزلتك» (أى نزولك) عندى وتذهب الى الفندق ، هذا شىء معيب فى حقى وسمعتى ٠ نعم لقد غيرت منزلتك لأنك لم تكن راضيا عنها اذ كنت أنا مقصرا فى حق الضيافة » قال ذلك حامد السيد وهو أقرب الى الغضب منه الى العتاب ٠ حاولت أن أهدئه قائلا انى أعرف أن الضيافة المقبولة هى ثلاثة أيام ولقد قضيناها معا وكنا فى غاية الرضا والسعادة بكرم ضيافتك ، ثم بوجودك وصحبتك وحديثك الشيق ، الذى استفدت منه كثيرا ٠ وما جاء بى الى الفندق ليس شيئا مما قلت ولكن رغبة فى عدم ازعاجك ٠ وأرجو أن تسامحنى اذا كنت قد آلمتك عن غير قصد ٠ وانى لن أنسى ما عملته من أجل راحتى واقامتى وترتيب جدول الرحلة رغما عما كان يضمره لى جانسون سميث ٠ تركنى حامد السيد وهو غير مقتنع بالمرة بما ذكرته ٠ لقد غيرت «منزلتى» وهذا شىء معيب له ولسمعته وما عملته انا شىء يستحق اللوم بل أكثر من اللوم وقد كان ٠٠٠

ذهبت اليه في مكتبه في المديرية فصافحني وقد زال عنه الغضب قائلا انه أعد لي رحلة طويلة الى واو مقر قبائل الدنكا ، ولقد وجد لي سيارة لورى تابعة للمديرية وكذا السائق وسيرسل السيارة بالسائق غدا صباحا الى الفندق ٠ والرحلة ربما تستغرق بضعة أيام ٠ والطريق طويل وهو جديد نسبيا فقد شق في غابات التونج حيث توجد جميع أنواع الوحوش والحيوانات المفترسة ٠٠

شكرته على اهتمامه بي واعتذرت له ثانية عما سببته له من مضايقة، فرد قائلا لاعليك من هذا كله فاني الآن أؤدي واجبي الوظيفي فقد كلفني مدير المديرية أي حاكم الاقليم بترتيب زيارتك ٠ تركته وانصرفت شاكرا الى الفندق أولا ، حيث صحبتني عايدة في زيارة قصيرة الى جورج حجار في مكتبه ٠ حيث تلقت زوجتي مكالمة تليفونية من زوجة جورج حجار بعد أن علمت من حامد السيد أننا الآن نقيم في الفندق ٠ « تعارفنا تماما تليفونيا » ثم رغبت في أن نجتمع معا في مكتب زوجها حيث يقيمان حاليا ٠

والتقينا هناك والتقت الزوجتان وكان على أن أسلم السيارة ، ولكن جورج طلب أن أستعملها طوال اليوم اذا ما رغبت وعرض على أن أزور « واتوكا » وهي بها مزرعته الثانية ، وله فيها منزل فخم قد اشتراه من أحد الانجليز هو والمزرعة ، وأنه سيرسل الى الحارس والخدم بالقيام بالخدمة وواجب الضيافة في كل شيء ٠ فقبلنا العرض ولكن بعد رحلتنا الى واو ٠

في صباح اليوم التالي جاءنا حامد السيد في الفندق وقال ان الرحلة ستؤجل بضعة أيام لأن «اللورى» قد أخذه جانسون سميث ٠ مرة ثانية ، وأنه سيدبر الأمر بمعرفته ٠ ذكرت له دعوة جورج حجار لنا لزيارة واتوكا مزرعته الثانية وأنه أرسل لاعداد المكان لاستقبالنا وذلك للاقامة بضعة أيام للاستجمام ، فالمنطقة جميلة ومرتفعة ٠ فعقب حامد السيد على ذلك مرحبا بالفكرة وقال انه سيدبر وسيلة للسفر الى واو عند عودتنا من واتوكا وانه يمكننا استعمال سيارة جورج حجار ، وأن الحكومة ستدفع لجورج الأجر ٠

كان هذا مريحا لنا ، فقد كانت رحلة الشرق على روعتها وجمالها متعبة وخصوصا أوكارو وصعود ذلك الجبل ، لذلك قبلنا الوضع وقررنا السفر الى واتوكا ، ثم أخطرنا جورج حجار بعزمنا على زيارة واتوكا وأننا ننوى الاستمرار في استئجار سيارته لهذا الغرض ومن ثم فقد رتبنا أمورنا على هذا النحو ، ورحلنا الى واتوكا بعد يومين كاملين وراحة تامة في الفندق ٠

أمضينا يومين فى واتوكا ·· إستجمام كامل وراحة تامة · منزل جميل على ربوة يمتد البصر منها الى الأفق الأخضر الواسع ·· فراش مريح ·· الغذاء جيد والفاكهة وافرة ·

نعم كانت واتوكا للاستجمام الكامل استعدادا لرحلة واو التى سمعنا الكثير عن مشقتها ···

عدنا الى الفندق وفى اليوم التالى ذهبت الى المديرية لأعرف من حامد السيد ترتيبات رحلة واو ··

وسبقنى جانســون سميث كعادته فى أخذ اللورى الوحيد الذى يمكننى استعماله فى هذه الرحلة ، وترك رسالة لى عند حامد السيد يخبرنى بأسفه (ولأول مرة يتأسف على شىء) عن أخذه اللورى لمهمة عاجلة ولكنه سيترك لى اللورى ، أو سيدبر لى لوريا آخر عند وصولى الى واو ·· وأنه تفاهم مع حامد السيد على ذلك وأن الأخير سيدبر أمر رحيلى الى واو ·

تساءلت عما يمكن أن يحدث لى ولزوجتى اذا لم أجد اللورى فى واو وكيف وبأى وسيلة ستكون رحلتى الى واو ، فطمأننى حامد السيد قائلا انه حجز لى مكانين أنا وزوجتى فى عربة «البوستة» وهى عبارة عن لورى كبير مغطى وأن المكانين هما بجوار السائق ، ولا بأس بذلك فان هذا اللورى أكثر راحة من أى لورى آخر ، والسائق يعرف طريقه تماما اذ أن « البوستة » تذهب الى واو اسبوعيا والسائق لايتغير الا لظروف قاهرة · أما العودة فقد أكد له جانسون سميث أنه سيترك لى اللورى تحت أمرى هناك أو انه سيدبر لى لوريا آخر بسائقه ، اذا تعذر الأمر · وأردف حامد السيد : ان هذه مسئولية مديرية التعليم تماما وأنت موفد رسميا لمهمة محددة كتـابة ، قد وصلتهم التعليمات وهم ملتزمون هنا بتعليمات الرئاسة بالخرطوم ، خصوصا وأن « هلبرت » مـدير التعليم بالجنوب قد أوصى بالتسهيلات اللازمة كما أخبرك أنت شخصيا بذلك عند مقابلته لك بالخرطوم ·

استأذنت من حامد السيد بعد أن طمأننى بخصوص اللورى فى العودة وكذلك أن الرحلة الى بحر الغزال « واو » فى عربة البوستة ستكون مريحة ونصحنى بأن أتخفف من الأحمال حيث ان هناك استراحات معدة جيدا بكل ما يلزم ، فقد أعدت للانجليز وأنت لك الحق مثلهم تماما ·· فقط الاستراحة للأسبق فى احتلالها ···

كنت قد سمعت منه أننا سنخترق طريق التونج الذى شق حديثا فى الغابة ، فاستأذنت منه أن يعيرنا سلاحا (بندقية) حيث ان هذا الطريق

يقطعه في كثير من الأحيان حيوانات متوحشة على حد قوله هو · ولكنه ذكر لى أن وجود السلاح معي هو خطر على أنا وليس على الحيوان بالذات ، فاذا ما جرح الحيوان ولم يصبه العيار فى مقتل فهناك خطر حقيقى ، فالأولى تجنب استعمال السلاح · وأنه يعتقد أن الطريق مطروق الآن فهو آمن ، حيث ان الحيوانات المفترسة تبتعد خوفا من ضجيج السيارات التى تقطع الطريق ذهابا وايابا كل يوم تقريبا ·

وكان هذا رأيا حكيما فعلا فلم اناقشه ··

ذهبت الى الفندق وجمعنا بعض الحاجيات الضرورية مثل بعض المأكولات المحفوظة وترمسين كبيرين للماء وسريرين صغيرين للسفر مع « الناموسيات » طبعا ··

فى الصباح الباكر مرت سيارة « البوستة » كما يسمونها لتأخذنا بترتيب من حامد السيد · وحملوا حوائجنا الى السيارة وركبت مع زوجتى الى جانب السائق الذى كان يتكلم العربية بطلاقة وأعتقد أنه من شمال السودان فلهجته كانت واضحة غير تلك التى يتعثر فى كلماتها أهل الجنوب ·

تقدمت السيارة ونحن مازلنا فى باكورة الصباح الى طريق التونج، وقد كان نور الصباح فى بدء ظهوره ، حتى ان سائق السيارة استعان بنور السيارة الأمامى يكشف له الطريق ·

سارت السيارة ونسيم الصبح الباكر يفسح لنا مجال التأمل والمشاهدة حيث تحف بنا أشجار الغابة فى كثافة وعنفوان ــ انها الأرض البكر التى تغذيها الأمطار الغزيرة طوال فترة الصيف · والمطر فى هذه الفترة لايكاد يتوقف الا ليهطل مرة ثانية ··

أشجار المانجو ــ البرية ــ لم يزرعها انسان ، وقد تساقطت الثمار فى غزارة بعد نضجها · وما من أحد يجمعها أو يأبه بها على الاطلاق ، حتى تذبل وتتعفن · وبعد انتهاء الموسم الأول ــ حيث ان المانجو هناك تعطى ثمرها مرتين فى العام الواحد ــ تضطر الحكومة لازالة كل ما يجاور المساكن من الثمار المتعفنة لمنع ضرر انتشار الأمراض والتى تغنى بها هذه المناطق فتفتك بالأهالى ، حيث لاتوجد عناية كافية سواء لقلة المستشفيات أو قلة الأطباء ·

وهذه الثروة الطائلة من فواكه المانجو والبرتقال فى كابنجرى ــ حيث توجد مزرعة حكومية بها ــ ثم الأناناس الرائع والليمون البنزهير والموز وخلافه من الفواكه ــ كلها لا تستغل كما ينبغى على الاطلاق · وانى

لأذكر ما حدثنى به الدكتور عبد الله فى يبى Yei عن مزرعة البرتقال فى كابنجرى عندما طلبت مصر بعض بذور هذا النوع من البرتقال لكى نجربه فى مصر ولم تتوان حكومة السودان فى تلبية الطلب ، وبدأت مزرعة كابنجرى فى استخراج بذور البرتقال بعد عصره بكميات مهولة حتى جابهتهم مشكلة تصريف عصير البرتقال ، فما كان منهم الا فتح قناة لتصل الى « خور » « أى قناة طبيعية » لتصريف عصير البرتقال الذى تدفق ليملأ الجزء الأكبر من الخور المجاور للمزرعة ٠

هذه القصة وغيرها جعلتنى أفكر فى هذه الثروات الهالكة المهدرة تماما ، وهؤلاء الأهالى فى الجنوب يتضورون جوعا عراة حفاة تنقض عليهم الأمراض والوحوش والحشرات ٠

سرنا فى الطريق ولما يبزغ نور الفجر بعد ، « وعربة البوستة » تشق طريقها فى رحلتها الأسبوعية الى واو عاصمة مديرية بحر الغزال معقل قبائل الدنكا ذوى القدود المشوقة والقامات الطويلة ٠٠٠

مصابيح السيارة الأمامية تبث ضوءها القوى الى الأمام ليستطلع السائق معالم الطريق ، ومحرك العربة يحدث ضجيجا قويا أفزع سكان الغابة ٠ الحيوانات تقفز هاربة منزعجة أمام العربة ثم تتوارى بعيدا عن الطريق داخل الغابة ٠

وقد أثارنا منظر أسد ضخم الجثة وهو يقفز قفزات قوية طويلة ، ويختفى داخل الحشائش الطويلة وضوء مصابيح السيارة يصاحبه فى قفزاته ، فيظهر مرة ويختفى مرات ، حتى انكشف تماما لنا عندما وصل الى الطريق السوى خارج الحشائش ، وظل فى هروبه ظاهرا تماما وجميع من فى العربة يضحكون ساخرين من ملك الغابة يفر أمامهم ٠ لم نضحك نحن ولم نسخر من ملك الغابة الفار فقد كان المنظر مهيبا بالنسبة لنا ٠ هذه كانت أول مرة نرى فيها أســـدا طليقا يعدو هاربا فى هذه القفزات الرائعـة ٠٠٠

***

قال لى السائق ان هذا أمر عادى ، فكثيرا ما يصادفه فى رحلاته ٠

سارت الرحلة من جوبا الى واو هادئة بعد ذلك ، وقد بدأت الشمس فى البروغ فى تؤدة متمهلة ٠٠

ضوؤها يلامس أطراف الأشجار الباسقة ثم ينتقل رويدا رويدا مع مرور الوقت منتشرا على الجذوع والسيقان الشامخة ، يضفى عليها من موسيقى النور شاعرية مرهفة ٠٠

النور يلامس أطراف أوراق الشجر الخضراء ·· ينحدر فى تؤدة ولطف ·· على السيقان ·· سيقان الأشجار الناعمة الملمس منها والخشنة فى نشوة بديعة وقد اكتسب وضوحا وقوة مع مرور الدقائق والثوانى ·

انكشفت الشمس ليكتسب نورها قوة · تضىء ما بين الأشجار من المسافات المتقاربة منها والمتباعدة ، فتبدأ معزوفة جـديدة تـ تمر طوال فترة انتشار ذلك النور المتمهل الواثق على أرض الغابة ·

سارت العربة فى طريقها وقد انكشف أمامها الطريق فى وضح النهار واستمرت المناظر تترى فى روعة الأشجار الباسقة التى تحد الطريق تماما حتى وصلنا الى المحطة الأولى · وهى قرية صغيرة : مجمـوعة من الأكواخ « القطيات » كما يسمونها وهى تشكل « الحلة » أى القرية ·· بها بعض المحلات البسيطة لبيع متطلبات العيش فى تلك القرى ، ولكن ··· استلفت نظرى بيت صغير مبني بالطوب وبه دكان صغير ولكنه عامر بالبضائع ، فنزلت مع عايدة لنرى ماذا يبيع هذا الدكان ··

كان صاحب الدكان يونانيا يتكلم العربية بطلاقة ، وقد رحب بنا داعيا ايانا للدخول الى منزله ، حيث انه قد عاش فى الاسكندرية مدة طويلة ، بل ان عائلته ما زالت تعيش فيها ·

دخلنا وفوجئنا بزوجته ترحب بنا · كانت زنجية من نفس القرية ، لها قوام ممشوق وملامحها مرحبة ، بل أقرب الى الجمال أيضا ، وتتكلم العربية ، فى صعوبة ، تعبر عن نفسها فى كلمات وليس فى جمل ·

كان البيت نظيفا ومرتبا : كنبة وبعض الكراسى حول طاولة فى وسط الغرفة · وعزم علينا بالغذاء ·

علب محفوظة بها لحم وخضر ، وفاكهة محفوظة فى شراب كلها من الدكان بالطبع · كان الأخ اليونانى كريما للغاية متلاطفا معنا ·· وبدأ يقص لنا طرفا من حياته ·

رحل من الاسكندرية مع صديق له الى السودان حيث أغراه صديقه بربح وفير فى العمل فى استخراج الذهب من مجارى المياه والخيران فى جنوب السودان ، بل حدد له بعض المناطق التى عمل فيها مع أحد الشوام احتكرها لنفسه وقد جمع منها ثروة طائلة ، ولكن من الممكن ايجاد مناطق أخرى غير محتكرة · وقد أقنعه بترك عائلته فى الاسكندرية ليعود اليها بعد جمع ثروة تغنيه طوال حياته وحياة أولاده ··

سافر الاثنان ، ولكن الأول أصيب بمرض خبيث من أمراض المنطقة الجنوبية أودى بحياته قبل اكتشاف أى منجم للذهب كما كان يرجو · أما صديقنا ومضيفنا فلم يجد مفرا من البحث عن عمل ليعيش منه ·

وفعلا بنى له غرفة يعيش فيها ملحقا بها دكان يبيع فيه ما يلزم لأهل المنطقة . وكان يستورد الأغذية المحفوظة وغيرها مما يطلبه الأهالى من البضاعة سواء للغذاء أو الملبس أو الزينة ، وكانت تأتيه من الخرطوم مع البواخر الآتية الى جوبا ، ثم تنتقل على عربة البوستة الى القرية الى محل اقامته ودكانه .

استطاع استكمال بيته بكل ما يلزمه ، وأصبح يزخر بشتى الأنواع من البضـــائع ، ونال من الثراء قسما لا بأس به حثه على ايواء زوجـة محليه من القرية تساعده وتعاونه ...

سألته بعد سماع قصته اذا ما كان يفكر فى العودة الى الاسكندرية لزوجته اليونانية ، فأجاب بأن هذا يدور فى خاطره من حين الى حين ، ولكن قد يكون هذا صعبا الآن وقد مرت السنون وأنه قد اعتاد على حياته الهادئة هنا ، والربح طيب وكاف .

ثم انه قد يعود الى الاسكندرية اذا ما تهيأت الظروف .

تناولنا الغداء مع هذا اليونانى المضياف الذى رفض أن يأخذ أى مقابل للضيافة ، وعدنا الى عربة البوستة تلبية لنداء السائق ، الذى بدأ بادارة موتور السيارة استعدادا للمسير الى ــ واو ــ .

ركبنا بجانبه .. وسارت العربة فى ذلك الطريق الضيق نسبيا وقد شق حديثا فى الغابة ولكنه مجهد الى حد كبير .

ومضت الساعات والسيارة تسير حثيثا بين صفوف الأشجار التى تكثف حينا وتخف حينا آخر ، حيث تتكشف أرض الغابة . وكنا نصادف بعضا من « قطعان » القرود تسير فى جماعة يقودها زعيمها . كانت فى بعض المرات تعبر الشارع الممهد وسط الغابة وعندئذ يقف السائق بسيارته حتى ينتهى عبور القطيع تماما . ثم يستأنف المسير . فسألته عما يمكن أن يحدث لو أثيرت القرود ، فأجاب بأنه هو وغيره لا يحاول اثارتها على الاطلاق فشرها خطير ، اذا أثيرت وهى مجموعة فى هذا القطيع الكبير .

لم نشــاهد حيـــوانات مفترســة على طول الطريق سوى خرتيت « وحيد القرن » يسير ببطء داخل الغــابة . وعلمت من الســـائق أن الحيوانات تخاف من ضجيج العربات فهى نادرا ما تقترب من هذا الطريق للعبور الى الناحية الأخرى منه ، وحينئذ تقف السيارة تماما حتى لا تزعج الحيوانات فى عبورها ...

وصلنا قبل الغروب الى واو وهى بلدة كبيرة نسبيا ·· اذ أنها عاصمة مديرية النيل الأزرق، ··

أوصلنا السائق الى الاستراحة الحكومية وأنزلنا حقائبنا وحاجياتنا اذ كنا نعتزم الاقامة يومين ·

تناولنا عشاءنا · علبا محفوظة ·· تونة وخبزا وجبنا وفاكهة ·· « مانجو وأناناس » · وكانت الفاكهة تعويضا كبيرا لنا عن باقى الغذاء ، فهى متوافرة وكثيرة وبلا ثمن تقريبا ·

كنا متعبين للغاية لطول الطريق واهتزازات العربة المستمرة بالرغم من الاثارة التى كانت تنتظرنا طوال المسيرة : من الأشجار وقد اختلفت أحجامها وارتفاعاتها ، والحيوانات التى كنا نتوقع ظهورها فى أى لحظة ، الى تغير الضوء والظلال على مدى مضى الوقت من الصباح الباكر حتى قبيل الغروب · كان هناك امتاع لا شك فيه أنسانا التعب حتى لمست ظهورنا الفراش ــ فى هذه اللحظة ، وفى هذه اللحظة فقط شعرنا بالتعب والارهاق · وكانت المناظر والرؤى تترى أمام أعيننا نصف المغلقة ·· نتبادل الحديث والملاحظات والكرى يدب فى أجفاننا · نمنا ·· نمنا حتى الصباح · لم نشعر بأى شىء حتى الصباح ·· ولم نشعر بالجوع الا فى الصباح · لقد نسينا العشاء من فرط التعب !

فى الصباح الباكر جاءنا حارس الاستراحة يعرض خدماته ، فطلبنا منه أن يقدم لنا فنجانا من القهوة ويشترى لنا بيضا وجبنا ، ثم يقلى لنا البعض وليكن بكمية كافية ·

استمتعنا بوجبة الافطار الساخنة ، وفوجئنا بالحارس بعد ان انتهينا من الطعام يسألنا :

ــ هل نمتم جيدا ؟

ــ نعم لقد نمنا حتى الصباح بدون أى ازعاج ·

ــ ألم تسمعوا صراخا وزئيرا ؟

ــ لا لم نسمع شيئا ·· استفسرنا منه عما يقصد فقال : لقد خفنا عليكم ، حيث ان أسدا شرسا هاجم البلدة وافترس بقرة ، وقام رهط كبير من أهل البلدة بحرابهم يطاردونه ، وقد تمكن الأسد من جرح اثنين منهم ثم هرب الى الغابة بعد أن رشقوه ببعض السهام والحراب ، وأظنه سيموت من جراحه ··· ولم يستطع مطاردوه الاستمرار فى المطاردة خوفا منه وهو جريح ، فالأسد الجريح يزداد شراســـة وجرأة فى مهاجمة مطارديه ···

بعد الافطار وسماع أخبار الأسد ·· خرجنا من الاستراحة لزيارة المدينة ، وهناك قابلنا مصريا يدعى فؤاد وهو يعمل بالتجارة فى هذه المنطقة وقد سرد علينا مرة ثانية أخبار الأسد قائلا : ان هذا يحدث فى فترات متباعدة أحيانا ، ومتقاربة أحيانا أخرى ، والأهالى يستعدون دائما لهذا الهجوم ـ من الأسد أو النمر أو أى حيوان مفترس ـ بحرابهم وسهامهم ، وكثيرا ما يقتلون الحيوان حيث يهاجمونه جماعة ومن كل صوب ، يرشقونه بحرابهم وسهامهم ، وفى بعض الأحيان يدخل المعركة وحيدا صاحب البقرة المفترسة للانتقام الشخصى ·· فى يمينـه حربة ويلف على يساره جلد بقرة سميكا بضع لفات ، والجماعة تدور حول الأسد فى حلقة تامة بحرابهم وسهامهم لتمنع الأسد من الافلات ، ثم يندفع صاحب الانتقام الى داخل الحلقة مهاجما الأسد ، ثم يمكن الأسد من ذراعه اليسرى ليتلقفها الأسد فى فمه من فوق جلد البقرة الذى يحمى الذراع ، وفى نفس الوقت يطعن الرجل بحربته القوية الأسد فى مقتل عدة طعنات قاتلة ، وفعلا يتمكن صاحب البقرة المفترسة أن ينتقم من الأسد بقتله وحيدا ، ولكن على حساب ذراعه اليسرى ، فبرغم جلد البقرة الملفوف عليه الا أن الأسد بفكيه القويتين يحطم عظام الذراع تماما !

هكذا حدثنا فؤاد المصرى قائلا انه علم بأننا مصريون مقيمون فى الاستراحة ، وكان منزعجا علينا من زئير الأسد وصراخ الأسد وصراخ الأهالى أثناء المطاردة ، ولكنه عرف أننا لم نسمع شيئا حيث كنا نغط فى نومنا تماما · ثم علمنا من فؤاد أن قبائل الدنكا هى التى تقطن منطقة واو وبحر الغزال ··

قبائل الدنكا ·· طوال القامة ممشوقو القوام محاربون أشداء عراة تماما ·· رجالا ونساء ·

نساؤهم جميلات ·· اذا جابهتهم نظرة وقحة من غرباء ردوها بنظرة غضبى متحدية وقد احمرت عيونهم أو كادت من الغضب بل والاشمئزاز ·

رأينا مثالا عمليا · الأخ فؤاد المصرى الذى عاش فى المنطقة سنين طويلة يعرف عاداتها وتقاليدها وهو المصدر الرئيسى لمعلوماتنا ـ حاول مع احدى الفتيات الجميلات ابداء اعجابه بها فى وجودنا ورأينا كيف تغيرت ملامح الفتـــاة فورا ودفعتـه بنظـرة حادة ثم تركته منصرفة الى حال سبيلها ··· !

علق فؤاد المصرى على ما حدث قائلا : ان فتيات الدنكا شريفات لا يقبلن الغزل من الأغراب بالرغم من العرى السائد فى المنطقة ·

اذا ما تزوجت الفتاة فانها تغطى عورتها بحزام من الجلد يتدلى منه

خيوط من الجلد أيضا ، تكفى لغطاء العورة ، وفى هذه الحالة يشير الحزام الجلدى الى أنها أصبحت زوجة ٠

منطقة بحر الغزال وعاصمتها واو ٠٠ منطقة من أروع مناطق جنوب السودان بغاباتها وحيواناتها ورجالها العمالقة ونسائها الجميلات ٠

لقد عشت أنا وزوجتى عايده بضعة أيام فى هذه المنطقة ، وكان لزوجتى الحظ الأوفر للتقرب من نساء الدنكا حتى قبلن أن تأخذ زوجتى صورا فوتوغرافية لهن وهن فرحات مبتسمات بل ومرحبات ٠

حان وقت الرحيل الى جوبا عبر غابات رائعة ، وعلى طريق التونج جاءنا سائق السيارة الذى وعدنا بها « جانسون سميث » مفتش التعليم : سيارة لورى مستهلكة تماما بلا أبواب لقد سافرنا الى واو فى سيارة « البوستة » وكنا نأمل فى ارسال سيارة بحالة جيدة تتحمل السير فى هذا الطريق الطويل ذى المئات من الأميال ، والطريق موحش يشق الغابة بكل ما فيها من أخطار ، جاء السائق مع فؤاد المصرى ، وكانت زوجتى تحزم حقائبنا وأنا على وشك الانتهاء من كتابة بضعة سطور عما شاهدته عن نشاط الارساليات التبشيرية « البروتستنتية » فى تعليم الأهالى ، لكى أضمن التقرير الكامل عن التعليم فى جنوب السودان وأدفعه لمدير التعليم فى الخرطوم مع ملاحظاتى الشخصية ٠

كنا نقيم فى الدور الأول من الاستراحة الحكومية بطبيعة الحال وأخذ حراس وخدم الاستراحة فى انزال الحقائب والحاجيات الى اللورى المعـد لنا خصيصا « بغير أبواب » !!

تركنا الاستراحة وقد اجزلنا المكافأة لكل الخدم ، وركبنا بجوار السائق وقد امتلأ « اللورى » من الخلف بصفائح البنزين وحوائجنا ٠

الرحلة طـويلة وشـاقة ٠ كانت عايدة قلقة بعض الشىء من تلك السيارة المفتوحة بغير أبواب ٠ لقد سمعت الروايات الكثيرة عن الوحوش التى زارتنا فى واو وزئيرها المخيف الذى لم نسمعه حيث كنا فيه ٠

حاولت ازالة القلق الذى شاب عايده بأن أخذت « الكاميرا » من عايدة وحاولت تصوير بعض الأشجار الضخمة التى قابلتنا فى الطريق ٠ مشيرا من وقت الى آخر الى روعة المناظر فى الغابة ٠ وكانت عايدة صامتة فى البداية ولكن بعـد فترة حركت الطبيعة القوية والأشجار العملاقة المنبثقة فى عنفوان ٠ حركت فينا الحس الممتاز بالطمأنينة للطبيعة النباتية والأرض الخضراء ، ومرت فى نفوسنا نشوة من البهجة والفرح ٠

قطعنا عشرات الأميال ٠٠ الطقس صاف بلا أمطار ٠٠

وعزمنا على التوقف في أقرب استراحة تقابلنا لتناول الغداء وقد حان وقته ، طلبت من السـائق · بأقصر عدد من الكلمات حتى يفهم أن يتوقف بنا عند أول استراحة وفعلا لم تمر نصف ساعة حتى وجدنا انفسنا أمام استراحة درجة أولى ·· « للانجليز ـ ثم المصريين وكبـار الموظفين » · للأسف كانت الاستراحة محتلة ببعض الموظفين الانجليز ، حيونا بلطف ودعونا لمشاركتهم الطعام واعتذرنا أيضا بلطف ، وحييناهم وطلبنا من السائق المسير وانتقاء مكان مناسب في الغابة لتناول الطعام · « القاعدة في الاستراحات الحكومية ·· الأولوية دائما لمن سبق ، وكنا نعرفهـا ! » ·

بعد مسيرة عشرين دقيقة وجدنا مكانا بين أشجار الغابة متسـعا ونظيفا ، فاوقفنا السيارة وبدأنا في تحضير الطعام البسيط الذى يمكننا تناوله في هذه الظروف · وأعطينا السائق نصيبا منه ، واستمتعنا كثيرا في صحبة ذلك الهدوء والسكينة التى رانت على الغابة · لا مطر ولا ريح تخل بتلك الوداعة ·

انتهينا من طعامنا وحزمنا حاجياتنا ووضعها السائق في صندوق السيارة اللورى ، وصعدنا الى جانبه وبدأت السيارة في المسير ، وقطعنا بضعة أميال لا تزيد على الخمسة ··· ثم همست عايدة ·· أعطنى الكاميرا ·· هناك بعض الغزلان يفترشون أرض الغابة بل جزءا من الطريق أيضا ، ولنحاول تصوير هذا المنظر النادر · وفعلا أعطيتها الكاميرا لأنها كانت تجيد التصوير الفوتوغرافى الذى لم أمارسه أنا على الاطلاق من قبل ·

ولكنها بعد أن سددت الكاميرا نحو الغزلان الصفراء توقفت تماما وهي مأخوذة ·· انها أسود وليست غزلانا « انظر ·· انها فعلا أسود وهي واضحة الآن بعد أن اقتربنا منها ·· انها على حافة الطريق بل ان بعضها يرقد في وسط الطريق ·· في منتهى الطمأنينة والسكون » · هكذا قالت عايدة ·· لم يعتريها أى خوف أو اضطراب ··

استمرت السيارة « اللورى » في سيرها ومرت بجوار الأسود ومعظمهم اناث : لم تتحرك الأسود على الاطلاق سوى ما لا حظناه من أن بعضا منها جاء من داخل الغابة متمهلا ليعرف تلك الضجة التى عكرت السكون في الغابة مأواهم ·

كان صوت موتور السيارة هو الذى دعاهم للحضور ·· نطق السائق يضع كلمات غير مفهومة ولكن في خوف حقيقى ولم نفهم من كلماته سوى « الدود ·· الدود » وصار يكررها بصوت مرتجف ، وحاول أن يزيد في سرعة السيارة ولكن السرعة لم تزد وسارت السيارة بقوة الدفع أكثر من

ميلين على ما قدوناه ، ثم خمدت سرعتها وتوقفت بعد منحنى طويل فى الطريق ٠

وسألت السائق ماذا حدث ٠٠ فقال ٠٠ « عربية موتو ٠٠ عربية موتو » ٠ وظل يكرر هذه الكلمات فى لهفة وخوف وهو ينظر وراءه ذاكرا لنا مرة ثانية « الدود ٠٠ الدود » ٠

وبعد مشقة فهمت منه أن الدود هو اسم للأسد وأن السيارة توقفت لأنها تحتاج الى « بنزين » والبنزين متوفر لدينا فى صفائح عديدة فى صندوق اللورى فقلت له مشجعا ٠٠ لاتخف ٠٠ احضر صفيحة بنزين ولنملأ خزان السيارة ، ثم ننطلق فى هدوء ، وخصوصا وقد بعدنا مسافة لا بأس بها عن « الدود » ٠٠

صعد السائق الى صندوق اللورى واحضر صفيحة مغلقة وطلبت اليه أن يفتحها ، فأحضر شاكوشا ومفكا من السيارة وبدأ عملية الفتح ٠ ولاحظت ارتجاف يديه فتناولت الأدوات منه وقمت بفتحها وعاونته فى ملء خزان السيارة بالبنزين ٠٠ وانطلقنا وبدأ السائق يضحك ويضحك مرددا ٠٠ الدود ٠٠ الدود وفهمت فيما بعد أن هذا السائق مر بتجربة خسر فيها أحد أولاده الذى أكله ٠٠ الدود : الأسد ٠

سارت العربة ولم يعترضنا أى حيوانات مفترسة أخرى على الطريق ، سوى قطيع من القرود أراد أن يعبر الغابة عبر الطريق المعبد الى الجهة الأخرى ، وفى الحال أوقف السائق السيارة وأعطى الطريق كاملا لقطيع القرود يقودها زعيمها ، حتى عبرت متمهلة فى سيرها الى الجهة الأخرى وحينئذ أدار السائق موتور السيارة وانطلقنا ثانية ٠٠٠

كان الوقت عصرا ومازال أمامنا أكثر من مائة ميل ٠٠ كما فهمنا من السائق ٠٠ السيارة ليست على ما يرام قد يحدث أن تتعطل ، ومازال منظر الأسود وقد افترشت الطريق ماثلا أمامنا ، وبحلول الظلام ستتغير الصورة الى الأسوأ ٠ حثثت السائق على الاسراع خصوصا وقد همست عايده فى أذنى أنها لاتستريح لحلول الظلام ونحن على هذا الطريق الموحش : لم يحاول السائق أن يغير من سرعة السيارة ٠٠ وربما لم يفهم كلماتى فأعدتها مرة ثانية متأنيا فى نطقها محاولا تقليد طريقته هو فى نطقها ٠ فهم وأسرع قليلا ــ ثم أبطأ ــ فسألته لم أبطأ ثانية فأشار الى الجهة اليمنى من الطريق حيث حيوان ضخم يسير متمهلا بعيدا عن الطريق بعشرات من الأمتار ، ثم بحيوان آخر من نوعه يسير وراءه ولكنه أصغر منه حجما ٠ لقد كان وحيد القرن : أم وابنها ٠ انه حيوان رائع مهيب لايهاجم

الا اذا هوجم ، يعيش على الحشائش ، قرن رخو يتصلب عند الهجوم ، هو خطير للغاية اذا ما أثير وهاجم ٠

أخذنا المنظر ٠٠ ان الأم والابن « أو الابنة » كانا يسيران في سلام تام ، لايشعران بنا على الاطلاق ٠ نسينا كل شيء عن سرعة العربة وما قد يصادفنا اذا حل الظلام ونحن لم نصل بعد الى جوبا ٠

سارت العربة بسيرها المعتدل ـ وقد قاربنا مشارف جوبا ولم يحل الظلام بعد ـ الى الفندق٠٠٠حيث الراحات متوفرة ٠٠ بعد أيام٠٠مرهقة ٠٠ مثيرة ٠٠ رائعة ٠

الى الحمام ٠٠٠ حلاقة الذقن ويضع قطرات من ماء الكلونيا ٠ ثم ابدلنا ثيابنا استعدادا للعشاء في قاعة الطعام ٠

تناولنا طعامنا في شهية ونهم٠٠ انها أول وجبة ساخنة بعد مايقرب من اسبوع ، ثم تناولنا بعض المرطبات ثم القهوة ، ثم الى الفراش وقد حل بنا التعب ٠

ولكن لم نستطع النوم مباشرة ٠ كانت مشاهد وأحداث الرحلة تمر بنا وتنعكس في أحاديثنا ، بعضها مبهج وبعضها مثير ٠٠ والبعض الآخر كان مخيفا ٠ والآن وقد انتهت الرحلة تقريبا ، كنا نستعيد كل أحداثها متأملين تلك الطبيعة الرائعة التي تحنو وتعنف في وقت واحد٠٠يصادقها الانسان فتحنو وترحم ، يعاندها فتقسو وتعنف ٠

لقد ذهبت تأملاتنا طوال الليل الى أحداث الرحلة نحلل حتى الجذور لنفهم٠وما زالت تأملاتنا للطبيعة والرحلة نتقاسمها بالفكر المسموع طوال الوقت ٠٠ بل وحتى الآن ٠٠ أمارسها وحدى بعد أن فارقتني عايدة ٠٠٠

كان علينا أن ننتظر في جوبا بضعة أيام حتى تصل الباخرة من رحلتها بل قيل لنا انها قد تتأخر عن ميعاها المعتاد بعض الوقت ، لأنها تعرضت لبعض المشـاكل المـلاحية لجنوحها لضـحالة الميـاه في بعض المنـاطق ٠

كان علينا بعض الالتزامات لابد من وفائها قبل الرحيل : أولا شكر مدير المديرية على الخدمات والتسهيلات التي قدمها لنا في لطف زائد ، ثم تلك الدعوة التي وجهها الينا «جانسون سميث» مفتش التعليم للجنوب لتناول الغداء معه ، وقد ألح في ذلك عدة مرات ، ولم يكن لي رغبة في ذلك لما شعرت من الحركات الصبيانية التي كان يمارسها معنـا في معظم الأوقات تقريبا ، والتي تنبع من سياسة استعمارية جاهلة ضد من ليس انجليزيا وخصوصا المصريين ٠

الاصدقاء الذين عرفناهم طوال ما يقرب من شهرين لابد من دعوتهم على الغداء فى الفندق لشكرهم · وهكذا بدأنا بالبند الأول ··

ذهبت فى الصباح الى مبنى المديرية وقابلت حامد السيد بشكاتب المديرية ، وأعربت عن رغبتى فى مقابلة مدير المديرية لشكره واخطاره بأننا سنرحل عائدين الى الخرطوم · فاستحسن حامد السيد الفكرة وفعلا قادنا الى مكتبه ، الذى قابلنا ببشاشة بلا تكلف واستفسر منا عن الرحلة ومدى استمتاعنا بها وعن الصعوبات التى قابلتنا ، ثم ودعنا بعد أن شكرنا متمنيا لنا رحلة طيبة للعودة ··

وعند عودتنا الى الفندق وجدنا جانسون سميث فى انتظارنا فى بهو الفندق ·· حيانا واقفا قائلا انه ينتظرنا غدا فى بيته ظهرا وأنه سيأتى بنفسه لاصطحابنا لتناول الغداء سويا · لأول وهلة ·· كدت أرفض ولكن عايده سبقتنى مرحبة بالدعوة ·· وربما كانت على حق ·· من الناحية الاجتماعية · وبعد رحيله ناقشتها فيما حدث فقالت ببساطة اننا راحلين ولا ينبغى أن نترك حزازات مع أى ممن عرفناهم حتى لو كانوا من المخطئين · لم أقتنع··لأنى كنت أعرف مقدما أن وراء هذه الدعوة غرضين : الأول تهدئة شعورنا نحوه حتى لانشكوه ··· وثانيا — وهو الأهم — أنه طالبنى بنسخة من التقرير الذى كتبته — أو سأكتبه — عن التعليم فى جنوب السودان ، والذى كان السبب لارسالى الى الجنوب ·

ولم يكن فى حسبانى على الاطلاق أن أعطيه هذا التقرير ·· اذ أن الجزء الأكبر منه كان نقدا لاذعا للسياسة الاستعمارية التى سادت كل سياسة التعليم فى جنوب السودان ، وكذلك بعض الطرق المضللة التى يقوم بها بعض الموظفين الانجليز أمثال « جانسون سميث » لتغطية الأخطاء البينة فى هذه السياسة ·

كانت سياسة التعليم تعتمد كلية تقريبا على الارساليات التبشيرية : الكاثوليك — ايطاليون — فى الشرق ، والبروتستانت — الانجليز فى الغرب — أما التعليم الحكومى فمحصور فى مصنع مدارس لتخريج موظفين حكوميين تحتاجهم الحكومة لسد بعض الفراغات المعينة ·· والمحسوبة ·· فى نظام الحكم الاستعمارى المرسوم ··

وكل هذا سواء المدارس الحكومية أو التبشيـــرية كاثولوكية أو بروتستنتية كانت محكومة بقواعد ونظم مدروســة من مصممى سياســة الاستعمار للحاضر والمستقبل القريب والبعيد — بل أيضا البعيد جدا ·

هكذا كانت ترسم السياســة ·· سياســة التفرقة وعزل جنوب

السودان عن شماله .. لغة . ودينا وثقافة اذا كانت هناك أية ثقافة ـ خطط لها ...

والسودان الآن وبعد مرور السنين الطويلة على تطبيق تلك السياسة البريطانية الاستعمارية فى السودان جنوبه وشماله .. نجد أن السودان يرزح تحت أعباء تلك التفرقة المخطط لها من قبل ـ الجنوب شىء ـ والشمال شىء آخر .. بل أن الجنوب الآن يطلب الانفصال بعرقيته ولغته ودينه وتعليمه ولا أقول ثقافته ... وقد اختلفت كلها عنها فى الشمال ...

فالعرقية فى الجنوب تختلف عنها فى الشمال بالطبيعة والجنس ، ولكن الشمال بعرقيته العربية ما هى الا خليط من العربية والزنجية التى يتميز بها أهل الجنوب . والشمال ليس عربيا خالصا كما أن الجنوب ليس زنجيا خالصا ـ ولكن ركز المستعمر على التفرقة الواضحة الآن بالعرقية وبالتركيز على جناحين أساسيين فى هذه الفرقة المحسوبة من قبل بل من زمن بعيد ..

الجناح الأول كان الدين :

الدين فى شمال السودان هو الاسلام لدى غالبية أهله . ولكن الدين فى جنوب السودان هو المسيحية فى غالبيته والوثنية ، بل لقد أصبح المستعمر يفرق بين أهل الجنوب فى مسيحيتهم فجعل التبشير للمسيحية الكاثوليكية فى أهل شرق الجنوب والتبشير للمسيحية البرتستنتينية فى غرب الجنوب ولم يترك المستعمر لأهل الجنوب الوثنى أى خيار فى اختيار دينه أو مذهبه ...

وهكذا نرى الآن وقد حقق المستعمر أهدافه فى الجناح الأول : الدين، يكاد يحقق أهدافه فى الجناح الثانى وهو التعليم .

أقول أنه يكاد يحقق أهدافه لانى اعتقد أنه كانت هناك مقاومة ايجابية ومدروسة من وزارة المعارف المصرية وقد أرسلت أول بعثة تعليمية مصرية الى الخرطوم وافتتحت أول مدرسة ثانوية مصرية فى عام ١٩٤٣ وكان على رأس البعثة رجل ممتاز أحسن اختياره لهذه المهمة .. معلم ومربى من طراز ممتاز . لبق وسياسى ، على مستوى رفيع من الذكاء وحسن التصرف . له مواقف رائعة مع الانجليز والسودانين سواء من كان منهم متعاطفا مع مصر أو كان غير متعاطف ، ولكن هذا الرجل بلباقة وكياسة استأثر بحب الجميع وبتقدير الجميع ..

لا أنسى يوم أن دعا هذا الرجل عبد الرحمن المهدى قطب المهدية

وحزب الأمة والمعروف بعدم تعاطفه مع مصر الى زيارة مدرسة « فاروق » الثانوية وقد أصبحت تدعى مدرسة الخرطوم فيما بعد ..

حضر عبد الرحمن المهدى « باشا » فى سيارة فخمة الى المدرسة وكان محمد عبد الهادى ناظر المدرسة مع بعض الأساتذة فى انتظاره على باب المدرسة . وقد شاهدت عبد الهادى يخطو مسرعا نحو باب السيارة بعد أن فتحه السائق ليأخذ بيد عبد الرحمن المهدى مساعدا اياه على النزول قائـلا :

« ان هذا يوم تاريخى يا باشا » ! ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه عبد الرحمن المهدى متمتما ببعض الكلمات شاكرا لهذا الترحيب ..

منذ تلك الزيارة كسب عبد الهادى الجولة وكسبت مصر بدورها ، واستمرت العلاقات بين المهدى وعبد الهادى تتقدم .

وقد ارسل المهدى ولده صديق المهدى لزيارة المدرسة والتعرف على أساتذتها ونظامها التعليمى ..

وعقب رحلتى من جنوب السودان .. زرت محمد عبد الهادى فى بيته وحكيت ما شاهدته .. فى المدارس التى زرتها من الشرق والغرب فى جنوب السودان : التعليم فى أيدى الانجليز . يحركونه ما شاؤوا ! .

فى جنوب السودان .. تتعدد لهجات ولغات ما يقرب من المائة ، واللغة الدارجة هى ... العربية .. « مكسرة » .

ولقد رويت لمحمد عبد الهادى ما زودنى به « حامد السيد » بشكاتب المديرية بجوبا من أناس جادين يعتمد عليهم فى القيام بتشكيل مكاتب متعددة فى الحلل والقرى فى الجنوب ، وهم مستعدون لتلقى التعليم المصرى . وعلى ادارة التعليم المصرى بالسودان .. أن تبعث بالمعلمين .. والكتب .. والمال .. !

وقد رد على عبد الهادى أنه قد تلقى بعض الطلبات بهذا المعنى وأنه راغب فى هـذا .. وهو معـد الآن لهذه الخطوة . وأحسب أن محمـد عبد الهادى قد حقق عهده وفعل هذا ..

تحركنا من الفندق .

وقد جهز لنا « حامد السيد » عربة لتصحبنا مع حقائبنا الى الباخرة ثم ودعنا ...

كان « حامد السيد » ذا خلق .. وشهامة .. جادا . وكان بين

.. المصرى والسودانى .. فى لهفة على الكرم فى جدية .. ما نسيته يوماً بعد رحيلى عن الجنوب السودانى .

وركبنا المركب .. ربان الباخرة أرشدنا الى القمرة التى تخصنا .. وأشار الى الحمالين بترك حوائجنا فى داخل القمره ..

كانت القمره مريحة .. بها سريران وكل ما يلزم .. كانت المرآه ــ رأيت رأسى وكان بها شعر أشعث .. غير مستو .. ولم أكن رأيت الحلاق منذ شهرين .. فماذا أفعل .. !

استسلمت لمقص « عايده » .. على أن تهذب شعرى قليلا ... حتى ألاقى حلاقا آخر ... ؟ دق جرس « الجونج » عند تمام الساعة ١٢ ظهرا .. ايذانا بموعد طعام الغذاء ..

خرجنا الى صالة الطعام وحجزنا « طاولة » على الجانب الآخر فى شرقى النيل .. حيث كان الجانب الأولى على الشط مزدحما بالعمال والسفرجية .. وبعض المودعين . وازدحم المكان بالمسافرين .. كانوا جميعا من الانجليز ولم يكن غيرنا ... من المصريين ..

وتناولنا الغذاء وكنا نتسامر .. عن الرحلة .. وما قابلنا فيها من العناء والمتعة .

وتلاقينا فيما كنا نتسامر بأناس وبلدان لم يغيبا عنا بقليل ..

وهناك « تواريت » فى أعلى هضبة فى شرق النيل ..

ــ قابلنا المفتش « District Commission » وهو رجل مثقف محب للفن التشكيلى .. وقد أضافنا فى بيته لبضعة أيام .. لطيف .. محبوب من الأهالى .. والأطفال .

حفيد الشاعر الانجليزى « Wordworth » « وردورث » .

وقام معنا لنجول فى القرى والحلل والأهالى يستضيفونا ... قال لنا « وردوثورث » أن هؤلاء الأهالى لهم نواح .. اجتماعية . وثقافية .. ودينيـــة ..

وانه يود أن يعبر هؤلاء الناس لحضارتهم هم بأنفسهم . هم رماد يخفى حرارة من حضارة افريقيا .. قديما . ان افريقيا صاحبة حضارة رائعة ... هو يؤمن بهذا !

« وردوثورث » كان من أهم من قابلناهم من الانجليز فى جنوب السودان..وهذا الفهم عن حضارة افريقيا ــ اذا قابلناه بالتفاؤل ــ يرسم

مجالا لشعب افريقيا ... وهو يهيىء نفسه للطريق الصحيح نحو هذه الحضـــارة ...

عايدة وأنا ... صمتنا .. لنفكر فى هذه المقولة .. قالت عايدة بالفرنسية .. ان افريقيا جديرة بهذا الذى يقول « وردزورث » .

بدأت الباخرة تتحرك ..صعدنا فوق المركب. النيل ينفتح أمامنا.. الشاطىء والناس والجدل بينهم .. يذهب بعيدا ..

سرنا مع الماء .. وسارت الباخرة تجرى مع تدفق الماء من المنبع الى المصب .. سريعا الى القرى والبلدان ونحن مبحرون من جوبا .. سبعة أيام الى كسلا بدلا من سبعة عشر يوما الى جوبا ..

عظام التماسيح .. مكومة على الشاطىء ..

تلك التى رماها بالرصاص مفتش الغابات الانجليزى عند الذهاب.

لحومها فى بطون الوحش وجلدها فى يد الأهالى .. يبيعونه .. على قدر مساحتها من الأقدام ..

التماسيح . وأفراس النهر ..

الأفيال .. تسير قوافل على مسافة من الشطئان ألفت نفوسنا هذه الحيوانات ، كما أن النيل والماء وشاطئيه قد ألف هذا .

على المركب .. سار الركب بما فيه من خلق يسبح فى عالم مادى والآخر فى عالم من الخيال .

تلك البهجة تتدفق .. مياه النيل فى ابهة وعظمة ، جراس النيل فى مصر .. أبدعوا الزراعة .. مياه وطين .. نبع حضارة للانســـانية جمعـــاء .

الرحلة فى جنوب السودان .. وذلك المطر المستمر طوال الموسم صيفا .. والشجر الذى ينبثق الى أعلى ولا تدركه أبصارنا .. والغابات التى تملؤها من كل جنس .. وهذه النفوس القوية التى يملؤها ايمان خفى .. أنها تستســـلم للطبيعة .. فى ذلك الـــوطن .. بهدأتها بعنفوانها ..

فى وثينتها .. دين جديد

لا يالوا جهدا لمصاحبة هذه الطبيعة الخشنة حتى تلتئم مع تلك النفوس فى رقة وفى عنف . لمتـابعة الحيـــاة من ريف حاصد ومع تلك الادغال .. الموحشة .. ليأتوا منها بالصيد .. والطعام ..

بالباخرة ·· وصلنا « كوستى » ثم بالقطار الى الخرطوم · تركنا كل مااصطحبناه معنا من الجنوب ·· فى أم درمان ، حيث كنا نقيم ·· واخذنا حاجياتنا لنذهب الى القاهرة· ركبنا القطار الذى تم حجزه من قبل الى وادى حلفا ·

أوائل أغسطس فى شمال السودان كانت الحرارة فى القطار تشوى أبداننا ·· كان علينا أن نبيت فى القطار ·

النوافذ لايمكن فتحها ·· لوقايتنا من الرمال ··

وقف القطار وقفة طويلة فى « عطبرة » ·· نزلنا من القطار وفى ظل شجرة ·· وقفنا ··

الأهالى ·· كل يبيع بضاعته ··· استوقفنا بائع اللحم ·· انه لحـم بقـر ·· يسـوونه على الزلط الساخن من حرارة الشمس ·· هو أطيب من اللحم المطيب على النار ، ويسمونه « السلات » ·

سار القطار ساعات طويلة فى صحراء « العطمور » هى رمال ·· ساخنة وحارقة ·· حتى وصلنا الى « حلفا » : مدينة صغيرة ··· وعلى أرصفتها وقفت الباخرة تنتظر الركاب ·· الباخرة تجر « صندلين » لركاب الدرجة الثانية والثالثة وللامتعة ··

الباخرة تبحر الى الشمال ·· الى الشلال بمصر · ركبنا الباخرة ·· الهواء يأتى من الشـمال ·· رطبا على الماء هينـا ولطيفا ·· بين الفينة والفينة ·· يضرب وجوهنا بلطف ··· كنا نتنفس ·

فى المساء ·· فوق ظهر الباخرة ·· حيث الهواء بارد الباخرة تشق عباب النيل ·· بلا هوادة ـ الموجات ·· تنساب نحو الشاطىء ·· بين الوردى والبنى · لقد تغير لونها تصخب تحمل غرينا ·· وطينا من أعالى النيل ·· تصخب عند اصطدامها بالشط ثم تتحول ·· لينة وفى هدأة ، نحو بساط النيل ·

كانت حركة الأمواج تأخذنا واياها·الماء المحمل بالطين ·· قوامه ثقيل يضطرب عند الشط ولما تعود الى حيث كنا ·· تلوب فى خفقـات لينة ·

موسيقى الشكل ·· والمضمون ··

هزت مشاعرنا ··



أوشكت الباخرة على الوصول الى الشلال ٠

على ظهر الباخرة طبيب وعائلته اصطحبناهم طوال الرحلة ٠ سألني الطبيب اذا كنت تعديت خط ٢٣ ؟ ٠٠ نعم تخطيناه عندما كنا في جوبا وهل طعمت ضد الحمى الصفراء ؟ ٠٠ نعم وأن زوجتى لم تطعم ٠

سكت ومشى ٠٠٠ ولما سألته فيما بعد ٠٠ « انه طبيب الحجر الصحى» فأجاب أن زوجتك ستحجز فى الشلال بضعة أيام وأنت حر ٠

وصلنا الى الشلال وقادنا علاء الطبيب الى الحجر الصحى مبنى بالحجر الأصم ٠٠ جحيم لا يطاق ٠ ليس فيه هوايات ٠٠ أو مراوح ٠

الحر يزداد فى الظهيرة ٠ وهناك فى المساء ٠٠ يلطف الهواء البارد حر الظهيرة ٠٠

كنت أركب القطار لاحضار ما نقتات به ، وأعود بالقطار التالى ٠٠ ثلاثة أيام ٠٠ هى أسوأ ما فى رحلة الجنوب ٠٠ ، ثم رحلنا فى اليوم الرابع الى اسوان ومنها الى القاهرة ٠٠

ذهبنا الى بيت الأسرة ٠٠ والدة عايدة رحبت بى ٠٠ وبنا ٠٠ وعلى وجهها ابتسامة ٠٠ ابتسامة وجهتها لى ٠٠ فى حنو زائد ٠٠

اسرتنى هذه الابتسامة ٠٠ وهذا الحنو ٠٠ حتى توفاها الله ٠

وفى اليوم التالى استأذنت من « حماتى » لكى أذهب الى أسرتى فى المنيب ٠٠ قالت عايده ٠٠ وأنا ؟

أنت تذهبين معى فى اليوم التالى ٠٠

وذهبت الى المنيب حيث والدى واخوتى والأقارب ٠٠

الكل يسأل ٠٠ أين « عايده » ؟

وفى اليوم التالى كنت وعايده فى ضيافة الأسرة كلها ٠

صارت عايدة ٠٠ طوال حياتها ٠٠ أثيرة ومحبوبة لدى أهلى وأقاربى حتى النهاية ٠

★★★

لم يبق سوى أسبوع واحد للعودة الى السودان ولم أزر أستاذى يوسف العفيفى بعد ، بل هو صديق وأخ لى ٠ تكلمت معه تليفونيا ٠٠٠ وفى المساء زرته ومعى عايدة وكان لقاءا أخويا ٠٠ وسأل يوسف العفيفى

.. مائة سؤال وأجبت .. وهو مبتسم وضاحك فى سرور وهو يناقش فى دقة « معاكسة » وأنا كنت معه فى ذلك . أما عايده فكانت وزينة .. مع ابتسامة .. رائعة .

الأستاذ يوسف العفيفى .. مرب ومرب فاضل .. نعم الصديق والأخ الذى يظلل علينا أنا وكل الفنانين من تلاميذه .. يحفزنا الى الطريق المائل لكل فرد فينا .. على سجيته وموهبته ..

كامل التلمسانى وسعد الخادم . فؤاد كامل .. ابو خليل لطفى . فتحى البكرى وكمال وليم الملاخ .. هم من بعض تلاميذه ، كل له شخصيته المتميزة والكل ظللها ولمس موهبتها فى دقة وفن متقن . كل ساعده العفيفى على أن يصل الى ما تبتغيه شخصيته وموهبته ..

وانتهت الزيارة والكل يسعد بهذا اللقاء ..

عدنا الى البيت .. حيث أن سفرنا الى السودان بعد بضعة أيام .. الى أين .. أم درمان .. حيث المدرسة التى انتسب اليها والتى انقسمت الى مدرستين .

هكذا قيل لى .. ولم أبرح القاهرة ..

مدرستين ثانويتين بدلا من مدرسة واحدة ..

وهذا أفضل ... للسودانيين أنفسهم .. وربما يتضاعف العدد بعد مرور سنين ...

مدرسة « وادى سينا » ... تبعد عن أم درمان والخرطوم بضعة ساعات بالسيارة ...

مدرسة « حنتوب » مواجهة « لواد مدنى » وهى على بعد ساعات طوال بالقطار ... « حنتوب » تقع على الضفة الغربية من النيل الأزرق واد مدنى على الضفة الشرقية :

والاتصال بين حنتوب .. مركب شراعى ...

والمواصلات ما بين واد سيدنا للخرطوم ، وحنتوب لواد مدنى يتحكم فيها مديرو المدرستين .

لماذا هذه التفرقة .. سياسياً ... يتفرق الطلبة .. بعيدا عن العاصمة ..

« اسماعيل الأزهرى » زعيم « الاشقاء » يثير المتاعب ضد حكومة الانجليز فى السودان .

اسماعيل الأزهري · مدرس رياضة في مدرسة أم درمان سياسيا لايستغنى عن أم درمان والعاصمة الخرطوم ·

ان نشاطه كبير « والاشقاء » لايستغنون عنه ··

استقال الأزهري ··· ثم سجن ··· وأطلق سراحه ···

رجل من رجال السودان · وثق في مبادئه ··

اجتاز فيها مراحل صعبة ثم مراحل أصعب من سطوة حكومة الانجليز في السودان ·· حتى الاستقلال ·· استقلال السودان ··

عدنا الى السودان ·· في مدرسة أم درمان ·· قابلت لانج مدير المدرسة ثم لويس براون ··· عرفت من لانج في التو واللحظة أن براون هو مدير « حنتوب » ·

براون قال لى Mr. Rateb Seddik S. M. of art انى انتظرك في واد مدني ··· بعد اسبوع ·· يوم كذا والساعة كذا ·· القطار الذى يبرح الخرطوم في يوم كذا والساعة كذا ···· ! من فضلك !

انى عرفت في هذه اللحظة أين مصيرى : « حنتوب » رتبت أمورى في أم درمان وشحنت منقولاتى في القطار الى واد مدنى وسلمت البيت الى صاحبه ···

ركبت القطار الذى أوصى عليه « براون » وعلى الرصيف ·· وجدت براون ·· حيانا وقد حمل شنطتين وسار الى المعدية ·· ان المشوار قريب ·· ورحنا وقد تخففنا من الشنط ·· الى « المعدية » ونزلنا على لوح من الخشب سارع براون للمساعدة حتى ركبنـــا المركب الشراعى · ســار المركب بنا الهوينى حتى البر الغربى حتى ظهرت مبانى حنتوب ·· كان الرمل على الشاطئ يصعب علينا المسير ··· الى الطريق السوى ·· « فيالغابة » ··

الغابة وقد قطعت أشـجارها لكى تبنى مدرسة حنتوب وانكشف الطريق السوى على بعد أمتار ··· وسرنا حتى واجهتنا المبانى : بيوت لطيفة على مشارف النهر غير مسورة ، وعلى الجانب الآخر بيوت ·· مسورة وعرفت فيما بعد أن البيوت المسورة هى للسودانيين وهم الذين طالبوا بالأسوار ··· وهى عقيدة عند الشرقى والمسلم ·

وأما البيوت التى على مشـارف النهر فهى بيوت الانجليز ···· « والمصريين » ·· طبقا للمعاهدة بين مصر وبريطانيا ··

البيت معد على الطراز الأوروبي ٠٠ الفرندات ودورة المياه والمراوح داخل الحجرات ٠٠ ٠وعلى ضفاف النهر ٠٠

سألت لويس براون ٠٠٠ عن بيتى ٠٠٠ !

فأجاب ٠٠٠ انك تسكن فى البيت الخامس من البيوت الغير مسورة حتى نهاية شهر ديسمبر ، حيث أنه أعطى وعدا لمدرس انجليزى له عائلة وولد بهذا البيت من قبل والمقاول يبنى بيوتا كمثل هذا البيت وربما تختار منها ما يروق لك ٠٠٠ اذا اكتملت ٠٠٠ والا ٠٠ يمكنك أن تختار بيتا « مسورا » حتى اذا تم بيت من البيوت فلك الخيار ٠٠٠ فشكرت براون على حسن استقباله ٠٠

سكنت فى البيت ٠٠٠ على ضفاف النهر ٠٠ وهو بيت عادى فراندات واسعة ودورة المياه أوربية والحجرات واسعة ٠٠٠

سعيت مع الفراشين ومساعدة بعض الأساتذة السودانين فى احضار منقولاتنا من المعدية ورتبناها هكذا ٠٠ « العنجريبات » فى الفراندة والناموسية مشدودة فوقها ٠٠

ووضعت بعض المنقولات فى موضعها ٠ ورأت عايده أن هذا يكفى ٠ لقد وعدنا السكرتير السيد فهمى أنه سيبعث فى اليوم التالى سفرجيا أو طباخا على عهدته ٠٠ لكى نستعين به فى نقل أشغالا فى المطبخ وفى الحجرات التى يصعب علينا أن ننقلها ٠٠

قالت عايدة انك جوعان وهذه شطائر بالجبن واللحم والبيض فهلا نأكلها ٠٠! ٠٠ ومددت يدى لآخذ شطيرة فاذا بالباب يدق واذا بطعام وفير يخرج من صينية مغطاة بغطاء (أبيض) من خوص ٠٠٠٠ انها من أحد الزملاء السودانيين الذين أقاموا فى حنتوب من بضعة أسابيع ٠٠

ان السودانيين كرماء ٠٠ لا حد لكرمهم ٠٠٠ فهمنا هذا من رحلتنا فى جنوب السودان ٠٠

لا يوجد فنادق فى السودان الا فى العواصم ٠٠ الخرطوم بور سودان – جوبا ٠٠٠ الأركويت فى الجبل ٠

انما ان رحلت فى السودان سيستضيفك انسان ماق أى بيت ٠٠ من بيوت القرية أو المدينة ٠٠٠ فكلهم كرم وأنت أخ ٠٠ كريم ٠٠

فى الصباح الباكر ٠٠٠ جاءنى « طباخ » أرسله الأخ فهمى السكرتير سألته عن اسمه وما فى وسعه أن يفعل فى خدمة البيت ٠٠ فأجاب « على »: طباخ – سفرجى ٠ يغسل الملابس ويكويها ٠٠ كل خدمات البيت ٠٠٠

انه قديم في المهنة وان مرتبه الشهرى هو خمسة جنيهات بما فيها طعامه .... وقبلته توا ...

احضرت له نقودا ليشترى بها طعامنا ولوازم البيت أرشدته عايدة الى خدمات البيت .. ثم الى طعامنا في ذلك اليوم . كان « على » لبقا وطيعا ..

كان بالباب زائر .. عرفنى بنفسه .. عبد العزيز عتبانى .. مدرس الرسم والاشغال ... رحب بى فى حنتوب .. وقد سمع عنى عندما كنت مدرسا فى أم درمان ..

عبد العزيز عتبانى وجمال مبارك كانا خير مساعدين لى فى حنتوب ... كان الأول بعثته فى مصر والآخر بعثه فى انجلترا .. وقد استجابا كلية لما رسمته من المنهج وظللنا على خير صلة حتى استقلت فى أكتوبر سنة ١٩٥١ .

اصطحبنى عبد العزيز العتبانى لكى نزور المدرسة .

المدرسة معدة اعدادا كاملا .. للدرس .. ثم مبانى للطلبة حيث يبيتون .. ثم مطعم حيث يأكلون ، ثم مطابخ .. وأحواش .. لكرة القدم .. وكرة السلة وأحواش للتنس فصول للمذاكرة معدة فى المساء للطلبة تحت اشراف بعض من الأساتذة ... بالتناوب ..

المطعم معد لكل التلاميذ .. وفيه مصطبة تعلو عن الأرض بنحو نصف متر .. وعليها طاولة وعليها صحون بعدد الطلبة الأول ثم مدير المدرسة ومدرس ، الكل يأكلون معا فى الغداء .. مع باقى الطلبة فى أماكنهم على الطاولات الأدنى ...

الطلبة يأكلون على نداء المدير « Let us bigin »

ـ دعنا نبدأ ..

الأكل واف .. طالما أن « العدس » موجود .

تطرقنا الى حيث مكاتب وورش الرسم والأشغال Art and Craft

جناح متكامل .. مكتب للمدرسين فى رأس الجناح ثم مخزن كبير للأدوات ثم صالة فسيحة للاشغال بها كل الأدوات .. بما فيها العجلات للنجار Battry ثم قواعد للتماثيل .. وأوانى للطين ..

ثم بعد ذلك صالة برحة للرسم معدة بكراسى مريحة .. على شكل اسطوانى .

والمدرسة معدة تماما للدرس والاقامة للتلاميذ وغذائهم مع شيء من

الفقر فى النزعة الجمالية والتشطيب والصناعة فى الأبنية حتى ان بيتا تمزقت حوائطه من السقف ورممناه بجنازير وشدادات من الحديد ..

المدرسة رحبة وبها كل الامكانات ثم أنها بعيدة كل البعد عن مجال السياسة .. والطلاب الذين يتركون المدرسة فى وقت العطلات لهم اذن من مدير المدرسة أو أب الأسرة أو من وكيل المدرسة .. انجليزى ..

والمركب الشراعى فى النيـل لا يحمل الا عددا معينـا مأذونا . الأساتذة نصفهم من الانجليز .. ومصرى واحد .. ثم أنتدب مصرى آخر للرياضة وهو محيى الدين أبو النجا .. وواحد آخر للغة العربية والباقى من السودانين .

ولقـد ذكرت للرياضـة Mathematics محيى الدين أبو النجا .. ولقد رحل عنا .. رحمة من الله عليه .. وقد أخمد حريقا للمدرسة كلها فى مخزن وسط معامل للكيمياء بين الفصول كاد يسبب أضرارا للمدرسة كلها وهناك زجاجات من الكحول المستخدم فى المعـامل .. وكان أمين المخزن يستطيب رائحة الكحول .. ويسكر .. ويدخن .

اندلع لهيب من النيران في زجاجات الكحول فى المخزن ، وخرج لهيب ودخان ... حاول كل من الأساتذة والطلاب اطفاء النيران التى ربما أحرقت كل مبانى المدرسـة .. ولكن لم يستطع كل منهم الا احضـار « الجرادل » مملوءة بالماء يصبونها على المخزن ... ثم جاء « محى الدين أبو النجا » فصعد الى سطح المخزن وهو « جمالون ذو سطحين » .. وأخذ فى تناول « الجرادل » وصبها على النيران من أعلى .. ساعتين كاملتين .. والكل مشدوه وخائف عليه وهو حافى القدمين يصب الجردل تلو الجردل مملوءا بالمياه الى أن اتى على النار فخمدت ..

انها التضحية والبطـولة التى سـكنت فى قلب محى الدين الشـجاع ..

★★★

اتفقت مع براون المدير على أن انقل من البيت « الانجليزى » الى بيت وطنى ذى أسوار ... وفى نفس الوقت .. أذهب الى المقاول حتى أطلب منه السرعة فى انجاز البيت الذى اخترته .. وكان البيت الأخير فى الجهة الشرقية من « حنتوب المدرسة » .

أقمت فى البيت ذى الأسوار وكان مريحا ـ بعضا من ستة شهور .. ثم كان البيت الجديد فى التشطيب ..

البيت الجديد ٠٠ رحب ٠٠ وغرفه أوسع وفرانداته مكسوة بالسلك ٠٠٠ تمنع الناموس والحشرات ٠٠ وبه مخزن وحجرة للغسيل والكى وحجرة للسفرجى ٠٠ خارج البيت ٠

والحديقة تقرب من الفدان ٠٠ والبستانى موظف بالمدرسة ٠٠ يزرع زهورا ٠٠ وتمرحنا ٠٠ وحشائش منظمة فى باقى الأرض ٠٠ كان البيت خفيفا ـ لطيفا وكنا سعداء ٠٠

فى البيت المجاور لمنزلنا كان السيد فوكس لى وزوجته الروسية تتكلم الانجليزية بسهولة ويسر صادقت عايده زوجتى ٠٠

كانتا تتزاوران ٠٠ عايده تدرس لها اللغة الفرنسية وكانت مسز فوكس لى تساعد عايدة على أن تنطق الانجليزية بلهجة سليمة ٠٠ عايدة كانت تقرأ الكتاب بالانجليزية وتفهمه تماما وعند القاء جملة بالانجليزية كانت تتعثر ٠٠ كانت تنطق الانجليزية بلهجة فرنسية وقد أفادتها كثيرا السيدة فوكس لى ٠٠

وعندما تزور عايده مسز فوكس لى كان الكلام بالانجليزية وعندما تزور مسز فوكس لى عايدة كان الكلام يدور بالفرنسية ٠

أنا ومحى الدين أبو النجا اتفقنا مع بعض الأساتذة أن ننشىء ناديا للمدرسين ٠٠ وطرحت هذه الفكرة على مدير المدرسة فرحب بها فورا ٠٠ واعطانا منزلا وجهزه بالكراسى والطاولات ٠٠ « طاولة للبنج بونج » وانتخبنا فراشا يدير القهوة والشاى فى الأمسيات ٠ النادى لا يفتح الا فى الأمسيات وفى يوم الجمعة بعد الظهر ٠

يقدم النادى السودانيون والمصريون ولكن الانجليز كانوا يأتون للعب تنس الطاولة أو لعب الورق « البريدج » ٠٠ وكان المدير نفسه يلعب البريدج بمهارة ٠ وقد تعلمته منه ٠

عندما يأتى الانجليز الى النادى ٠٠ يأتون اليه للمجاملة : ولاتكاد تمضى نصف ساعة فى لعب تنس الطاولة حتى يذهبون فورا الى منازلهم ٠٠٠

فى أجازة فى القاهرة بعد أن أمضيت عاما فى مدرسة أم درمان ٠٠ قابلنى سعد الخادم ، وذكرت له أننى الآن قد أعرت للحكومة السودانية عن طريق جرين لو Green lou مدرس اول Senior Master فى الرسم ٠٠ بمكافأة طيبة ثم انى نقلت الى أم درمان حيث المدرسة ستنقسم الى قسمين: مدرسة فى « حنتوب » والأخرى فى « وادى سيدنا » وانى لم أعرف بعد فى أى مدرسة سأتوجه بعد الأجازة ٠ وانى واثق انك يا سعد ممكن أن

تلتحق بالمدرسة الأخرى . فسر سعد .. وطلب منى أن أتوسط له فى هذه الوظيفة ..

فى اليوم التالى ذهبت الى سفارة السودان وقابلت Wiliams مدير المعارف بالصدفة .. فذكرت له ان لى صديقا فنانا موهوبا وقد درس معى فى تشلسى فى لندن ، وهو يريد أن يلتحق بالمدرسة الأخرى .. فى حنتوب أو فى واد سيدنا ..

فأجاب Wiliams أرجو أن تصحبه معك فى اليوم التالى فى نفس المكان فى الساعة الحادية عشر لأتعرف اليه ..

ذهبت الى سعد وقلت انى قابلت مدير المعارف صدفة فى سفارة السودان وقد وعدنى أن اصحبك معى فى اليوم التالى ليتعرف عليك ..

وفى سفارة السودان قابل سعد الخادم مدير المعارف وأعجب به William لطلاقة لسانه فى اللغة الانجليزية ولبشرته البيضاء وشعره الأصفر ..

وقال مدير المعارف عندما يعود بعد الأجازة فى انجلترا سيبحث مع المشرفين اذا كان ممكنا .. أن يختار سعد الخادم .

وبعد شهور طويلة .. أرسل لى سعد خطابا يسألنى فيه ما تم فى شأنه .. فذهبت الى مدير المعارف فى الخرطوم وسألته فأجاب بصراحة : واحد مصرى والثانى انجليزى ..... وابتسم !

فى مقابلة مع « جرين لـو » فى حنتوب ، وهو المفتش العام فى مديرية التعليم للرسم . سألته — وهو يعرف سعد الخادم من قبل فى القاهرة — ماذا يعيب سعد الخادم فى أن يحتل مدرس أول فى واد سيدنا .. مع الاعارة من وزارة المعارف فى مصر .. قال جرين لو .. (« انى اشرت على وليامز أن يضع انجليزيا فى وادى سـيدنا ... انه خريج « سليد سكول للفن « Slade School of Art وهى تتبع جامعة لندن .. وهو على مستوى المنافسة مع المصرى .. وهو أنا ») .

« ان هذا الانجليزى يجدر بك أن تقابله لأنه فنـــان ومتـذوق وابتسـم » ..

« ثم انه يقدر سعد الخادم ، وأن سياسة التعليم فى السودان تحد من تعليم الرسم على أيدى المصريين بالكامل ..

« ثم انها منافسة لطيفة .. » ! .

ثم قال « انه فى آخر العام سيفتتح معرضا للرسوم من حنتوب ثم واد سيدنا فى نفس المكان فى الخرطوم ... سيفتتحه الحاكم العام » ..

المنافسة بين خريج سليد سكول للفن Slade School of Art London

استاذ من لندن انجليزى وهى مدرسة عريقة فى لندن وبين خريج أكاديمية أوزنفانت للفنون الرفيعة لندن وأكاديمية الفن المعاصر فرنان ليمبه Fernaad Lége بباريس .

المعارض الخارجية ... ابداع من الطلبة .. والمدرس مسئول وعندما يحل الامتحان الذى يرد من « كمبريج » فى نهاية السنة الدراسية تكون نتائج الطلبة فى الامتحان موازية لرعاية المدارس..المدرس المسئول..هنا تعدو المنافسة كما يقول جرين لو .

اصطحبنى « جرين لو » الى مدرسة وادى سيدنا .. لكى أتعرف على الأستاذ : شاب انجليزى فى مثل سنى ... مهذب .. مبتسم .

رأيت بعضا من رسوم الطلبة ... يخيم عليها ما يلقنه الأستاذ من أكاديمية موروثة . فى مدارس الفنون ..

ثم بعضا من رسوم أخرى ملونة ... على شفا الفن الحديث .

لم أرتح لما رأيته ... تعصبا منى .. !

فى نهاية العام جاء « جرين لو » الى حنتوب واصطحب معه أعمالا كثيرة اخترناها له .. للعرض .. من أعمال الطلبة . وقال .. انه اصطحب عددا مماثلا من أعمال الطلبة فى وادى سيدنا .

وافتتح المعرض فى الخرطوم بالحاكم العام للسودان ... انجليزى !! كتب « جرين لو » مقالا فى جريدة انجليزية . قارن فيها ما يميز المدرستين : وقد كسبت حنتوب ..

وكتب مدير المعارف ومدير المدرسة تهنئة طيبة لى والأساتذة جمال مبارك وعبد العزيز عتبانى .

وعند الامتحان .. أقبل الطلبة بعد مضى سنتين على استبدال الرسم والنحت والخزف بعلم آخر فى نهاية السنة الرابعة « كمبريج » بما يزيد على ٧٠٪ من عدد الطلبة المقدمين للامتحان .

لا سقوط .. مقبول . ممتاز .. مميز

exét cresit ssod F

وكانت حنتوب هى الأحسن .. بلا منافسة .

تذكرت ·· سعد الخادم ·· استاذا فى مدرسة وادى سيدنا ·

ربما كانت المنافسة ·· جادة وجدية بهذا الأستاذ ·· سعد الخادم ملىء بالخيال الدافىء ·· وليس لديه تلك الأكاديمية التى تميل اليها معظم مدارس الفنون ·

كنت أسعد بالمنافسة مع سعد الخام · ان الروح الطليقة فى هذا المجتمع الساخن فى السودان تنطلق من هؤلاء التلاميذ فى المدرسة الثانوية فى جو مرح فى زهو واعزاز ····

تلك الألوان الدافئة ···· الساخنة فى بعض الأحيان تستخدم تشكيلا من قلوب تعمر بالدفء ·· « لوحات تعبر عن شعب ملىء بالحياة ··· كما قال « جرين لو » فى مقاله عن المعرض فى الخرطوم » ··

بين مدرسة الخرطوم المصرية·· وبين أمدرمان ثم حنتوب السودانية ··· مارست تعليم الرسم لهؤلاء التلاميذ فى دأب وجدية ··· ونسيت نفسى ·· لم أكن بالمعلم الكامل ··· لم أزد خبرة ولم احتك بعقول أكبر منى الا بالقراءة ··· ثم انى ازددت معرفة بالحياة مدها وجذرها ، ثم بذلك الشعب الدافىء فى السودان ·· ما فيه وما عليه ·· ثم بالانجليز ··· خارج وطنهم ··· ألاعيب وسياسة يمهدون بها للسيطرة على كل السودان ·· ثم تلك الجماعات من الشعب التى تأبى هذه السيطرة ·· تقاوم ·· تقاوم ··

ولا أنسى « أسماعيل الأزهرى ·· والخريجين ·· والاشقاء » الذين قاوموا حتى دخلوا السجون ···· !

لم آكن على وئام مع مدير المدرسة « لويس براون » : مدرس علوم ·· يقوم بجدول حصص بالكامل ·· ويأكل مع الطلبة فى المطعم كل يوم ·· ويحضر المذاكرة مع التلاميذ ·· ثم يلعب التنس وكرة السلة ·· والبريدج ··· وهو لا يحب الرسم · أنا أحب التجديف وهو غالى الثمن فى مدرسة حنتوب ، وهذا النيــل الأبيض على شاطىء حنتــوب · حيث تعلمته فى مصر وفى لندن وقمت بسباق مع فريق تشلسى ·· وخسرناه · ثم انى لا ألعب الكرة وكرة السلة ولا التنس وأحب الفن ·

كنا على خلاف ··

آخر السنة الدراسية رحل لويس براون الى انجلترا ورحلت أنا الى القاهرة · وأصيب « لويس براون » بالصفراء ·· وعالج نفسه وفى فترة النقاهه ·· رسم ٣ صور بالالوان ·

وفى يوم وأنا فى مكتبى بحنتوب دخل على براون وهو متأبط لهذه الصور الثلاث ··· معتزا بها ··· وقد شاهدت هذه الصور وأعجبت بها ·· وقد اثنيت عليها فهى صور جيدة ··

انه ··· نزل الى ميدان الفن ·· فطلب منى أن أنزل الى ميدان الرياضة ·· وقد أجبت ··

وقد طلب منى أن أشرف على أية لعبة فى يوم من الأسبوع ·· وقد أجبت ·· وكنت أحب هذا اليوم من أيام الأسبوع ·· عندما أشاهد لعبة كرة السلة ·· وقد تعلمتها فى حنتوب ·

أصبحنا على وفاق ···

أذكر حادثة مع براون ·· ووزير التعليم السودانى ·· اذ اختير وزيرا للتعليم سودانى ، وهى أول مرة : على طه ·· وكان أخوه أستاذا فى حنتوب ·

أبلغت وزارة التعليم ·· برقيا وتليفونيا مدير مدرسة حنتوب أن هذا الوزير سيزور المدرسة ·· فى يوم كذا ··

يوم الخميس بعد الحصص كنا نجتمع فى قاعة الاجتماعات ·· كل المدرسين مع مدير المدرسة « براون » لنناقش كل أمور المدرسة · وكل يقترح ونحن نناقش ما يقترح ·

واذا بالمدير يبلغنا فى نهاية اللقاء · ·أن وزير التعليم السودانى الأستاذ « على طه » سيزور المدرسة ·· مدرسة حنتوب فى يوم كذا · سرحت أنا فى هذا التاريخ وسألت الزملاء من المدرسين المصرين فقالوا عن هذا التاريخ انه يوم عيد جلوس الملك فاروق ·· وهو أجازة رسمية فى مصر والسودان طبقا للمعاهدة ·· سواء ملك مصر أو ملك انجلترا ··

وتأكدت من سكرتير المدرسة حيث طلبت منه التأكد من هذا التاريخ ··· قال نعم وهو أجازة رسمية فى المدارس والحكومة ·

وعندما انقضى الاجتماع وبعد أن تأكدت من كل هذا·· ذهبت لمقابلة المدير فى مكتبه ··· ان اليوم الذى اختاره الوزير هو عطلة رسمية فى المدارس والحكومة حيث أنه عيد جلوس الملك فاروق ·· الا اذا أخطأت البرقية هذا التاريخ ·

وقد حاول أن يناقشنى فيما كنت قد تأكدت منه وقلت له : اطلب سكرتير المدرسة وهو ينبئك بأن هذا اليوم هو عطلة رسمية ·· وأرجو أن

تتأكد من هذا اليوم بتاريخه المقيد بالبرقية أو أن هناك خطأ ما ٠٠٠٠
واستأذنت من المدير ٠٠

وعرجت على مكتب المدرسين المصريين كل فى مكتبه ودعوتهم الى منزلى ٠٠ حيث كان التليفون قد طلبته من عدة أسابيع وقلت لهم لابد من اخطار مدير التعليم بالسودان وطلبته فى التليفون ٠٠ ورويت كل ما حدث عن الوزير الذى سيزور مدرسة حنتوب فى يوم عطلة ٠٠ الملك فاروق فى عيد جلوسة ٠٠

أجاب محمد عبد الهادى ٠٠ مدير التعليم بالسودان وقد استمع الى كل التفاصيل ٠٠ انه سيطلب الوزير المصرى للتعليم وهو طه حسين وطلب منى أن أعطيه رقم تليفونى ٠٠

وفى اليوم التالى ٠٠ طلبنى عبد الهادى ٠٠ وأنه طلب الوزير طه حسين ورد عليه الوزير ابراهيم فرج بالنيابة ٠٠

ان هذا الوزير السودانى لابد أن يعتذر أو يعفى من الوزارة ٠ كان ردا ايجابيا يحقق ما اتمناه ٠٠ وأن الحكومة فى مصر اهتمت بهذه المسألة وأن الوزير السودانى سيبرق برقيه الى مدير مدرسة حنتوب بالغاء هذه الزيارة ٠ وأنه فى هذا الصباح تكون هذه البرقية عند مدير مدرسة حنتوب ٠ رحت مغتبطا مما سمعته من محمد عبد الهادى وأن الحكومة المصرية قد تدخلت بايجابية وسعيت الى بيت المدير فى الصباح الباكر وكان يلعب التنس مع رفيقة من معارفه ولما رآنى طلب من رفيقته الاعتذار حتى يلقانى ٠٠ وشرحت له أن الوزير سيلغى زيارته لمدرسة حنتوب وأن حكومة مصر قد تدخلت وأن برقية ستصله بهذا المعنى ٠ فى هذا الحين لمحت صبيا ذا عمامة بيضاء وقفطان أبيض وحزام أحمر مشدود على وسطه ٠ كان هذا الصبى من عمال البريد والتلغراف ٠٠ كنا نعرفه فى هذا الزى الجميل ٠٠٠

وناول المدير براون برقية ٠٠٠ وقرأها ٠ ثم مال على : « كيف يمكن أن تدبر هذا وأن البرقية معروفة لديك ؟ » ٠

« انى تحادثت بهذا مع حكومتى تليفونيا وجاءنى الرد تليفونيا فى هذا الصباح بما فى البرقية من الاعتذار ٠٠ اعتذار السيد الوزير عن هذا اللقاء مع مدرسة حنتوب وربما يكون الخطأ فى التاريخ ٠

★★★

انى أروى قصة مرضى ٠٠ حتى أقعدنى فى الفراش ستين يوما ٠٠ لأكف عن التدريس ٠٠ ولأقرأ كتبى القديمة ٠ راجعت كتابا وانا مبهور

بهذا الكتاب من القراءة الثانيـة ··· وتعلمت أن القراءة الثانية ــ وقد ازددت ثقافة ومعرفة · أوقع من القراءة الأولى ··

حنتوب المدرسة ··· أصابني ألم فى جانبي الأيمن واشتد الألم ، فأسرعت عايدة الى طلب طبيب من مستشفى واد مدنى ··· تليفونيا ·· وسأل المستشفى عن اسم المريض · وحالته ··· فأجابت زوجتى : راتب صديق أستاذ فى مدرسة حنتوب ·· فاجأه ألم شـديد فى جانبه الأيمن ·· وشرحت له أن الألم يشتد ·· قال انه سيبعث بطبيب باطنى الى حنتوب فانتظروه ··

حنتوب ·· فى الضـفة الغربية من النيـل الأبيض وواد مدنى فى الضفة الشرقية لا يفرقها الا النيل ··

بعد ساعات طوال ·· جاء الطبيب وطنى سودانى ·· جاء والعرق يسيل من جبينه · ان المواصلات ليست سهلة ·· المركب الشراعى يأخذ وقتا طويلا فى تعدية النيل ، والشاطىء الرملى عند حنتوب تغوص فيه القدم حتى يصعب السير فيه ·

جلس الطبيب ·· استمر نحوا من عشر دقائق يجس موضع الألم وهو يسأل وأنا أجيب انها الزائدة الدودية ولابد من جراحة لازالتها انى أنا طبيب لست بجراح ·· وأن فى مستشفى واد مدنى جراح انجليزى ممكن أن يزيل عنك الزائدة ·

وسألت الطبيب ألا يمكن ·· بالادوية ·· أن يزيح هذه الآلام ··؟ ·· خفت من الجراحة ·· لا أتحمل الحقنة فى العضل فماذا فى التخدير والجرح ·· ان هنـاك فى الخرطوم مستشفى أفضــل ··· ثم انى ذاهب الى الخرطـوم ···

ثم شكرت الطبيب وانصرف ···

رحلت الى الخرطوم أنا وزوجتى ··· نزلنا فى الفندق الحكومى على شاطىء النيل ·· طلبت تليفونيا مدرسة « فاروق ــ الخرطوم » رد على سكرتيرها « أحمد سيد أحمد » ··· تربطنى به صداقة منذ أن كنت أستاذا بالمدرسـة ·· أفهمته مرضى وطلبت منه طبيبـا ··· هنــاك طبيب ضابط فى الجيش المصرى بالسودان يأتى لمدرسة فاروق عدة مرات فى الاسبوع ·· انى أثق به ·· سأطلبه تليفونيـا وسـأكون معه فى الفنـدق ···

جاءنى الطبيب ومعه السكرتير ·· وفحصنى بعناية وذكرت له أن طبيبا فى حنتوب قال ان الزائدة الدودية لابد أن تزال جراحة ·· وفعلا

أعلن الطبيب المصرى أن الزائدة الدودية مصدر الألم .... ولابد أن تزال ...

مهـــلا .. اننى أخاف الجراحـــة .. ألا يمـكن التخفيف عن الألم بالأدوية .... ! ممكن اذا عالجناها بالسلفا ، والبنسلين غير موجود فى السودان وفى غيره ...

سأكتب لك ما يوجد من الأدوية ثم ترتاح طويلا ولا تأكل الا السوائل ... فى الأسابيع الأربعة التالية . ثم تأكل ما يسهل هضمه . قلت ثم هذا سيشفى الألم بدون جراحة ؟ ... فقال .. ممكن ... فشـكرت الدكتور والسكرتير... ورحلنا الى حنتوب ومعنا كل الأدوية التى نصحنا الدكتور بشرائها من الخرطوم ..

فى حنتوب لازمت الفراش ستين يوما . منها أربعة أسابيع أعيش على السوائل .. ومن بعدها أخذت زوجتى تصفى الفول المدمس .. المهروس .. وهذا ما جعلنى اشتد قليلا ... ثم جاءت بالشوربة واللحم المهروس .

تحركت من الفراش .. أتوكأ على العصى حتى اســـتقيم فى وقفتى ....

ذلك المرض اللعين آلمنى .. طوال هذا الوقت .. ومنعنى من العمل فى المدرسة ... وكان ذهنى قد شحذ من القراءة ... ووجدت نفسى من القوة بحيث اتجهت الى الرسم ...

فى لندن تعرفت على أخت زميل فى أكاديمية أوزنفانت ايطالى .. « بريولى » . وهذه الأخت كانت استاذة فى جامعة لندن ولها معرض بلغات أربع ... هى تقرأ الكف فى ذكـــاء .. فرأت كفى ... وقالت فى ثقـــة ...

أنت تمرض فى الثلاثين من عمرك .. مرضا خطيرا .. وتترك الفن سنين طويلة .. ثم فى الأربعين تترك كل الأمور غير الفن وتنكب على التصوير لتحقق ذاتك ...

لقد صدقت هذه النبوءة .. ولم انسها ... طوال السنين ....

بعد ذلك المرض اللعين .. ذهبت الى المدرسة .. اتوكأ على عصاتى . لم أكن استقمت فى مشيتى .. انحناء بسيط فى الجذع وفكرى مع الطلبة فى هذه الغيبة الطويلة . كنت على ثقة من الزملاء الوطنيين أنهم سيعطون الجهد للطلبة أثناء غيبتى .

أقبلت على فصول الدراسة أطالع رسوم الطلبة ومنحوتاتهم وخزفهم .. وجدت أن المنهج الذى أداه هؤلاء الزملاء قد فاق ما كنت أتصوره نجاحا فى الابداع فنا ، ونجاحا فيما سيؤدونه فى الامتحان .

كنت فرحا بما تم فى غيبتى ..

اذا ما رحلت عن هذه المدرسة فالزملاء يكفون عنى فى انجـــاح الطلبة فى الفن ..

ان الزملاء قد رجحت كفتهم فى العلم والتربية فقد علموا أنفسهم فى ذلك الجبس بمرور الســـنين وهـــا انا ذا قد علمت نفسى بمـــرور لسنين ...

والآن هؤلاء الطلبـــة قد مرســـوا أنفسهم فى قبس من الفن ، وقد خطا على أول الطريق بعض منهم ... وربما يأتى حين من الدهر حيث يلتقطون طريقا من الفن فى مستقبل حياتهم ... !

أخذت مدرسة حنتوب .. سبع سنوات من عمرى ، درست فيها من الرسم .. لتلاميذ فوق سن المراهقة .. درست هذا الفن بكل ما أوتيت من خبرة .. من السنوات التى عشتها فى التعليم فى لندن وباريس ومن السنوات التى عشتها مع نفسى فى تعلم الفن ... وكان نبراسى كل الأساتذة الذين صادفتهم فى مصر وأوروبا .. كانت نفسى تتفتح كلما أضاءها .

فى تلك السنين .. زادت الخبرة .. زاد الأمل .. فى أن أزاول الفن الذى ملك على كل تفكيرى . كان الفكر والقلب يحن لمزاولة الفرشاة على القماش « كانفاس » .. كانت موسيقى الشكل تنفجر فى ذاتى ...

تدريس الفن مهنة تحتاج الى خبرة طويلة .. طويلة طوال الحياة .. « الطبيب الناقص لا يحسن المعالجة » .

وأنا فى ذلك الوقت لـــم أكن الا الطبيب الذى لم يحســـن المعالجة ...

انا أعرف الكثير عن الفن بما تعلمته وبما قرأته .. ولكن انا لم أكن الفنان الذى نضج فنه . ربما كان ذلك الفن الناضج أقدر فى تعليم الفن لهؤلاء التلاميذ ..

هذا الفكر صدنى عن ممارسة التدريس .. فتركته .. لكى أعلم نفسى أولا ..

لم أعد أهتم بالمدرسة ·· ولا بتعليم الفن ·· كل ما فعلته فى المدرسة كان أحسن مما كان ·· ورضيت بهذه النتيجة ·· والأساتذة المعاونين قد استفادوا من هذا الأحسن ، والنتائج فى الامتحانات كانت طيبة ·· وكانت « كيمبريج » أكبر نجاح فى الاستفادة من الدرس · التلاميذ ينجحون ·· بامتياز ·· المدرسة ومديرها يهتمون بهذا النجاح ···· والنجاح فى الامتحان هو الأول ···

مللت التدريس ···

★★★

قامت رحلة من الأستاذة والطلبة الى شرق السودان · مدينة وميناء بور سودان ·· ثم ·· المرفأ المهجور ·· سواكن ·

فى شرق السودان ·· زرت سواكن ··· هذه البلدة الجميلة ·· مرفأ على البحر الأحمر ·· بناها السودانيون والأتراك ·· فى حضن خليج من البحر الأحمر تأتيه المراكب محملة بالبضائع والركاب ·· تصب فى هذه المدينة بعمائرها من الطراز العربى والتركى، بمشربياتها ونوافذها ·· بالخشب المزخرف والمخروط والتى تحتضن هذه المراكب عن قرب ·· فى الخليج · وسكان هذه العمائر ·· يتحدثون مع عمال المراكب والركاب ، يشترون ويبيعون ·· المرفأ يتعاطف مع المدينة ·· فى يسر واتزان ، تشعر به اذا ما أقمت بهذه المدينة الجميلة ·

المدينة ·· قد هدمت ·· سكانها تركوها ·· الا النذر اليسير ·· بنى الانجليز ميناء بورسودان الذى يتسع لكل المراكب التجارية والحديثة ·· واختفت المدينة الجميلة ، الا من بعض عمائرها ذات النوافذ والمشربيات ·· ذات الحوائط من داخل الغرف مغطاه بالخشب المشغول المزخرف عربيا ·

دخلت بضع منازل لا سكان فيها ·· فيها الأبواب ذات الزخارف العربية والمشربيات وداخل البيت منسق فى انتظام ·· لا سكان فيها ·· ولا حياة ·· خراب ·· فى خراب ·

لو كنت حرا من وظيفتى كمدرس للفنون ·· لذهبت الى هذه المدينة الجميلة سـواكن ، وفى هـذا المنـزل الخرب حيث يطـل على خليج من البحر الأحمر يدخله من حين لآخر بعض المراكب الشراعية والسمبوك ·· لأعيش فيه للعمل فى فن التشكيل ···

تعلمت كثيرا من التدريس فى السودان · قابلت كثيرا من الناس

الأفاضل فى ذلك السودان المضياف ٠٠ وتعلمت منهم الكثير ٠ زرت كثيرا من البلدان خلاف سواكن وبورسودان ٠٠ ثم الرحلة الى جنوب السودان ٠٠ من النيل الى الغابات والوحش ٠٠ الى الناس فى تلك البلدان ٠٠ لايسترهم شيء ما سوى بعض من الجلد أو بعض من قماش ٠٠ يستر عوراتهم وعوراتهن ٠٠ يمشون عرايا كمـــا ولدتهم أمهاتهم ٠٠ يبيعون ويشترون فى الأسواق ٠٠ ولا رقيب ٠٠ كل يعتز بقوامه السمهرى ٠٠ والفتيات بنهودهن القوية ٠٠ ثم الى « بخت الرضا » (كلية تربية) ٠٠ الى الأبيض ٠٠ الى جبال النوبة ٠٠ وليس لها صلة بالنوبة فى مصر بعد اسوان ٠

ادارة المدرسة فى حنتوب فى أيام الامتحانات فى المدارس الابتدائية ترسل أساتذتها لمراقبة هذه الامتحانات ٠٠ فى شتى النواحى ٠

فى جبال النوبة ٠٠ الناس هناك ٠٠ يعيشون على نهج فطرى ٠٠٠ أجسامهم عرايا الا ما يستر عورتهم من الجلد ذى الســيور المزخرفة والمنقوشــة ٠٠

فى يوم من العام يصطف بنات الحلة (القرية) صفوفا راقصة على انغام الطبول ٠٠ والشبان يذهبون بعيدا ليرسموا على أجسامهم زخارف وشرائط بيضاء ٠ كل يجمل نفسه ليعرض قوامه المزخرف على الفتيات٠ كل يحمل حربة أو سهما ثم يرقصون على دقات الطبول مع الفتيات وهم يحركون ســهامهم وحرابهم حتى يوهمون الفتيات أنهم رجال حرب وصــيد ٠٠

صفوف من الفتيـــات يرقصن رقصات مرتبة ومنسقة على دقات الطبول ٠٠ يزدن فى جمالهن ٠٠

فى آخر اليوم واذا انقضى هذا الرقص ٠٠ يختار الفتيــان بعض الفتيات اذا ما أعجب بها واذا هى أعجبت به ثم يتزوجون ٠٠ الى أن يحين العام القادم فيرقص الشباب رقصة الزواج ٠٠٠ !

★★★

جاء فى خطاب بالبريد من المهندس « ألبير شحاتة » ٠٠ أخ زوجتى الأصغر – جاء فى الخطاب أنه يطلب منى الاستقالة من التدريس ٠٠ وأن هناك مشروعا للمقاولات بعدة ملايين من الجنيهات ٠

المشروع ٠٠ هو طريق من مكة الى الطائف ٠ لم أكن أعلم بالمرة عن هذه المقاولات ، ثم قال فى الخطاب ٠٠ ان مكة لايدخلها الا المسلمون ٠ وهو وأخوه فؤاد مسيحيون كاثوليك ٠٠

وأنك أنت المسلم الوحيد فى هذه العائلة الذى نثق به . ولا تخف من هذا المشروع ، سيصاحبك مهندس كفء هو المهندس حسين مصطفى . ولقد تعرفت به فى مكتب الشركة .. وأنك ستنال راتبا أكثر من أربعة أضعاف مرتبك فى السودان وأنك .. كلما جئت الى القاهرة كنت تتمنى أن يمن الله عليك بالمال تذهب، أنت وعايدة الى باريس ، لتتم دراستك للفن وتزداد خبرة كما أخبرتنى ... » .

نعم .. كنت أدخر بعضا من المال .. خصما من راتبى فى السودان لعل وعسى أن أذهب الى باريس التى عشقتها فى ١٩٣٩ ، والتى امضيت فيها وقتا كافيا لانضاج حياتى كلها .. ذلك الشوق الى الدين وذلك الحنين الى الحرية .. أمنت حياتى الى كسبها بارادتى ... لم ادخر من المال الا القليل مما لا يكفى للسفر الى باريس والمعيشة فيها وكان ذلك فى ١٩٥٠ بعد الحرب .

رجعت الى الخطاب ... « مشروع المقاولات يلزم ستة أشهر حتى نتسلمه .. أرجوك يا راتب أن تتدبر الأمر .. اذ أننا محتاجون اليك فى هذه العملية ..

قرأت الخطاب مرة ومرات وعايدة تسمع .. ولم تنطق ببنت شفة وقلت لها .. ان الأمر بين يديك .. اذا قلت اذهب فأنا ذاهب واذا قلت لا تذهب .. فلك ما تشائين ..

صمتت عايدة..الى حين..ثم قالت : « راتب انك تريد أن تكسب مالا .. لتذهب الى أوربا لكى تتعلم « التصوير الزيتى » .. قلت نعم ..

القلم الرصاص كان مستقيما معك فى تناول الفورم لكى يقوى ويشتد ويتوتر فى انسجام تام مع فكرك ..

حقا ان القلم الرصاص أداة التحكم فيها الدقة حتى ينضج فيها الفورم بقوته كالأزميل ينحت فى صخر جلد ..

ان أوروبا عبرت عن نفسها فى التصوير الزيتى .. وبرعت فيه .. فيما بين عصر النهضة فى ايطاليا وفى الأراضى الواطئة بهولندا وبلجيكا ، قام فنانوها فى السبق رسما بألوان الزيت : ذرمير روزدايل .. فان ايك .. ثم رمبراندت .

ثم فى فرنسا ... فى الحقبة الأخيرة .. « التأثيريون » ثم سيزان العظيم .

كنت تحكى ما شاهدته فى متاحف انجلترا وفرنســـا واعجابك

بسيزان ·· ثم ما شاهدناه فى ايطاليا سويا ·· فنيسيا ·· تشيانو ·· جورجيـون ·· تسـتوريتو ·· اسكولارسان روكو ·· ثم فلورنسا ·· روائع التصوير الزيتى من رفاييل الى ليوناردو دافنشى ·· ثم روما ···

« كنت أراقب تجاربك في الرسم بالألوان الزيتية تجربة لا ترضيك ·· تجربة أخرى تترك سلبياتها وتحسن ايجابياتها ثم تجارب أخرى ··· الى الأحســن ··

« صحيح أنك لم تبلغ فى الرسم بالألوان الزيتية ما بلغته فى صلابة الفورم بالقلم الرصاص ··· ولكن ·· تجربتك الأخيرة تتيح لك الفورم الصـلب ·

أوروبا ·· هناك طرق كثيرة ليس لها صلة بما تريده وهناك ايزمس « Isms » تاشيزم · أوب آرت بوب آرت وغيرها كثير ·

« بل هناك ما يستفيد منه : « الايزمس » ·· سيريالزم ·· كيوبزم ··· ببوريزم ··

هناك أوزنفانت ـ لبجيه · « جنريه » « كوربيزييه » ·· بيوررزم وهناك براك ·· بيكاسو ·· كيوبيزم ··

« سـلفادور دالى ·· ماكسى ابرنست ·· تانجى ·· مدرسـة السيريالزم ··· هؤلاء ممكن أن تستفيد منهم ·· هكذا قالت لى عايدة بعد صمت طويل فى تؤدة وعلى مهل ·· لكى اسمع !

كلام عاقل ومدروس ··· انى قد سمعت !

★★★

جاءتنى برقية من « ألبير » تغرينى أن أترك التعليم كى أرحل الى السعودية ·· ·· وكان الاغراء ·· أن تزيد الشركة مرتبى الى أربعة أضعاف ما آخذه من السودان ·

أطلعت عايدة على البرقية ·· فلم تهتم ·· ثم قالت ان اخوتى ألبير وفؤاد مهندسون ممتازون ·· وأنك على غير نسـقهم ·· أرجو أن لا تقبـل ··

جاءت الاجازة فى مقتبل الصيف ·· فبرحنا حنتوب الى القاهرة ·· أقمنا فى منزل عائلة عايده ···

أفردت « حماتى » حجرة واسعة بها « بلكونة » تطل على سينما

صيفية ‥ في الصباح وخلال اليوم‥مساحة واسعة نطل عليها ولا ازعاج حيث لا سينما الا بعد الغروب ‥

في القاهرة ‥ كنا نعيث فسادا : أكل ونوم ثم سينما ‥ لم نزر معرضا واحدا ثم هناك المتحف المصرى ‥ لم نزره طوال ثلاثة شهور الاجازة ‥ لم نقرأ كتابا واحدا ‥‥ كان كل همى أن أرحل الى باريس . : كم يكلفنى أنا وعايده ‥ الاقامة فى باريس ‥ مدة سنة واحدة ‥ كنت أحسب كل التكاليف ‥ ومدخراتى لاتكفى ‥‥

جاءنى أخى ‥ وهو طبيب بيطرى ‥‥ وجاء بمشروع يأتى بمال كثير ولابد لذلك المشروع من عدة آلاف من الجنيهات : « استيراد أغنام من تركيا » وقد جاء بعدد من المصدرين للأغنام والعجول فى استنبول ٠ وقد حسب الجدوى من هذا المشروع أنها يمكن أن تؤول الى ٥٠٪ ٠ لم يكن عندى مال يكفى هذا المشروع وذهبت الى اخوة عايدة ، وطلبت منهم أن يشاركونى فى استيراد الغنم من تركيا ، وشرحت لهم انى لست أدرى ما هى الأغنام بل أخى طبيب بيطرى ويعمل فى الحكومة ٠ وهو مستعد أن يذهب معى الى استنبول لجلب الأغنام ٠ والأغنام كما أفهمنى أخى ستصل قبل العيد الكبير وستربح كثيرا ٠ اذ أن الأغنام ستطلب فى العيد للأضاحى ‥‥ وشرحت لهم أننى سأساهم ببعض مدخراتى ‥ ومجهودى أنا وأخى ، ثم أن الشركة تمول المشروع ٠

وبعد أن ارتبطنا بمصدر فى استنبول : شركة لتصدير الخراف والعجول ‥ سافرت أنا وعايدة وأخى الى هناك ومعى خطاب من البنك فى مصر لبنك فى استنبول بتكلفة الأغنام ولى حرية التصرف فى المبلغ ٠

اننا لا نعرف اللغة التركية ٠ نعرف العربية والانجليزية والفرنسية٠ أخذنا معنا بعض أسماء الفنادق وأخذنا الفندق القريب من « جلتا » هكذا حبئوه لنا ، واسم الفندق Komak Hotel كوناك أوتيل ‥ نزلنا فى المطار وركبنا تاكسيا الى الفندق وقلنا للسائق « كوناك اوتيل » واسترحنا لما أحنى السائق رأسه وأفهمنا أنه فاهم ‥

فى وسط ميدان فى استنبول ‥ وقف السائق واسترجع اسم الفندق ‥ قلت له « Konak Hotel » ‥ فاستفهم مرة ثانية وتكلم بالتركية ‥ أنه لا يوجد فندق بهذا الاسم ٠ كما فهمنا من اشاراته ‥ ! ثم جاء شاب فسألنا عن الفندق وقلنا له الاسم ‥ فابتسم وذكر للسائق ان « كفتال اوتللى » ‥ بالتركية ٠

عرف السائق وأوصلنا للفندق وشاور على اليافطة انه « كوناك أوتللى » وليس أوتيل ‥ فضحكنا ٠

كان الفندق بارحا ٠٠ وغرفه بارحة ٠٠ والأجر معتدل ، وليس فيه مطعم ٠٠٠ لابد لنـا من معرفة مطعم ٠٠ يتحدثون فيه الانجليزية أو الفرنسية ٠٠ ثم العربية ٠ فى المساء وجدنا بقالا يبيع الجبن والزيتون والخبز واحضرنا ما يكفى عشاءنا ٠٠ وكان الشراء من البقال سهلا نشير الى البضاعة ويكتب لنا الثمن على ورقة ٠٠٠

فى اليوم التالى سألنا عن مطعم فأجابنا موظف الفندق عن مطعم « صالح » . وصالح يتحدث الفرنسية ٠ وهكذا ضمنا طعامنا ٠

فى اليوم التالى ذهبنا الى الشركة المصدرة للأغنام ٠٠ كتبنا العنوان بحروف لاتينية حيث يقرأها السائق بغير لبس ٠٠ (اللغة التركية تكتب وتقرأ بالحروف اللاتينية منذ كمال اتاتورك) ٠

وصلنا الى الشركة وقابلنا موظفا وخاطبناه بالانجليزية ثم بالفرنسية ٠٠ اننا من مصر ونريد أن نقابل صاحب الشركة أو المدير ٠٠ أدخلنا فى غرفة فسيحة فيها مكتب وموظف وقد قال لنا بالفرنسية : ان المدير عنده زائر ٠ وبعد خمس دقائق أدخلنا الموظف الى صاحب الشركة أو المدير ٠ وحيانا بالفرنسية ٠٠ أنتم من مصر ٠٠ وتريدون شراء خراف ان اسـم شركتكم « شحاده » قلت نعم ٠٠٠ فسألنا من أى بلد ــ القاهرة ــ أو الاسكندرية ٠٠ هل كنتم تعرفون أسرة « منشى » أنا منهم ٠ عرفت أنه يهودى ٠٠ ان اسرة منشى يهودية وقال بعد أن عرف أنا لسنا من اليهود ٠ اننى بعثت لكم برقية تحدد الثمن ٠٠ ولم تبرقونا بالموافقة فى ظرف أسبوع ، ولذا رفعنا الثمن بمقدار ٢٠٪ ٠ لأن السوق قد ارتفع فقلت له : اننا جئنا الى استنبول بعد عشرة أيام من برقيتكم وأبرقنا لكم بأننا سنصلكم بعد أن حصلنا على المبلغ لحسابكم ٠٠٠ ولم تتجاوز المهلة غير عشرة أيام ولماذا ستزيد السعر المتفق عليه بهذه المناسبة ٠٠

وتركناه ٠٠ ان صاحب الشركة قد تأكد أننا لسـنا من بنى جنسـه ٠

رجعنا الى الفندق ٠٠ قال لنا موظف الفندق ان فى البهو شخصا يطلب مقابلتك أو أخـاك فقادنا الموظف الى ذلك الشـخص ٠٠ فعرفه أنور أخى فى الحال ٠ وقال انه تركى يعيش فى مصر ويتكلم العربية والفرنسية ٠٠ ثم التركية ورحب بأخى أنور الذى كان يعرفه من قبل ٠٠ « سيف الدين البكرى » يعرف تركيا ٠٠ وكل نواحيها ٠٠

تعرفنا على سيف الدين ٠٠ وهو لبق وكيس ٠٠ شغوف باهداء الخدمات لمن يعرفه ٠٠ له فى هذا الاهداء ٠٠ مصالح ٠٠

عرف منى ... ما نريد : صفقة من الأغنام من هذه الشركة « آكل » وأخبرناه بما جرى بيننا وبين مديرها .

قال سيف الدين : « نشكو للغرفة التجارية حتى تخضع تلك الشركة وأنت عنـدك من البرقيات ما يحملك على أن تتمسك بهذا السعر الذى حددته الشركة ..

أنا غريب عن هذه البلد فكيف اشكو هذه الشركة ولم آكن أنا على ثقة بما أجنيه من هذه الشكوى .

سألت سيف الدين .. عما اذا كان يعرف شركات تصدر الحيوان وخصوصا الخراف .. أجاب أنه يعرف .

فى الصباح الباكر جاءنا سيف الدين ومعه شـاب .. تركى كردى يعرف العربية : عصمت نوران ..

صاحبنا عصمت نوران بضعة أسابيع وهو يعد بالحصول على خراف بسعر مناسب . كان عصمت رقيقا طوال الوقت وكانت سيارته «البويك» تمتلىء بنا لنزول استنبول وكل الضواحى ، ولكن لم نستفد منه شيئا فى استيراد الخراف ... !

سيف الدين عرفنا بسيدة تركية « ميزيت » . كان أدبها جما ، وقد دعتنا لأن نزور عائلة تركية أصيلة من الوجهاء فى بلد اسمها « ازميت » وليس « ازمير » . « دوختر هانم وزوجها فيروزان بك » .

دوختر هانم كانت زوجة لتركى حاكم فى مصر .. وأقامت فى مصر ٨ سنوات .. ولا تعرف العربية ..

قام سـيف الدين بالترجمة لنا ... وكان فيروزان بك يعرف الفرنسـية ...

كان البيت مليئا بتحف نادرة من الفازات والقيشـانى التركى والمفارش المطرزة ..

وقد أعجبت ب « مانتيل بيس » : دفاية ، كلها بالقيشانى التركى، وقد قيل لنا أن هذا القيشانى مصنوع فى « كوتاهيا » .

ثم تركنا ازميت وهذه العائلة المثقفة من بداية نشأتها : أدب وحياء .. وكـرم ..

فى استنبول عرفنا « سيف الدين » على سيدة تركية .. زوجـة فنان تركى ... ودعتنا عندها لنقابل الفنان عندما عرفت أننى فنان وزوجتى فنـانة .

لا أذكر اسم ذلك الفنان ... أظن كان اسمه « حكمت » .. كان الفنان يعرف الانجليزية بركاكة ورأينا بعض أعماله « الأكاديمية » ، وقلت له هذه الأعمال ممكن أن تعرض فى القاهرة . كان يسأل عن كل شىء فى مصر والقاهرة .. وقال أنه سيجىء الى مصر فى العام القادم وأخذ منى عنوانى .. ولم يأت حتى الآن .

فى أوائل رمضان عرفنا سيف الدين بصاحب له .. « محرم بك » تركى صائم لرمضان .. لا يعرف العربية ثم له تلاوة من سور القرآن ركيكة ولكن مفهومة .. كان الصيام أصعب فى تركيا فى الصيف .. اذ كان الغروب فى التاسعة والنصف مساء . محرم بك انه صائم وله أن يحتمل أكثر من سبع عشرة ساعة ... بدون ماء ولا طعام .

قال محرم بك ان له أصدقاء بالقرب من (وسين) .. لهم دار واصطبل وهم يربون الخراف ثم يبيعونها لمن يشتريها ولكن هؤلاء ليس لهم تصريح بتصدير هذه الأغنام .. ثم أنهم يعرفون الكثير ممن لهم تصريح لتصديرها ..

ترجم هذا سيف الدين وقال لابد لنا من الذهاب الى هؤلاء القوم ولهم من الخبرة ما يفيدنا ... !

استنبول تلك المدينة .. نصفها فى آسيا والنصف الآخر فى أوربا وذلك البوسفور يقسمها الى قسمين .... الثلثين فى آسيا والثلث فى أوروبا ...

شواطىء صخرية تنحدر من عل نحو ماء البوسفور .. البوسفور ملىء بالمراكب .. والمراكب تغص بالناس . كل يركب المركب للذهاب الى الجزر فى قلب البوسفور . ركبنا نحن الأربعة .. سيف الدين يلازمنا فى كل رحلاتنا وكان ترجمانا أمينا وأنيقا ..

ذهبنا الى الجزيرة الكبرى « بيدك أضا » وهناك مطعم على الشاطىء فيه الأسماك « واللانجوست » .. وحيوانات البحر . أكلنا سمكا ولانجوستا وحيوانات البحر ولم ندفع الا ليرات تعد بالعشرات ... ولم يقارب الثمن الا مائتى ليرة : أربعة عشر جنيها نحن الأربعة ..

الطعام فى تركيا زهيد .. الماء للشرب غال . ماء الشرب «كوزولوك» الزجاجة ليره ونصف .. الزجاجة مثل « الكوكاكولا » ... فى حجمها الصغير .

فى استنبول .. مطعم يطهى الفراخ . فى النهار يعطيك صدور الفراخ فى شكل « طواجن » فى شكل مهلبية بالسكر . وهو أفخر طعام

من الفراخ ... وفي المساء يطهى الأوراك شوربة ، والثمن نصف أى صدور الفراخ بالمهلبية . وكنا نذهب في النهار حتى نذوق « الطووج س » وفي الليل نطعم بشوربة ــ أوراك الفراخ ...

فى الميدان .. مصطبة دائرية تعلو عن أرض الشارع مترا ونصف .. يقف عليها شرطى يدبر أمر مرور السيارات .. والمارة ... كان هذا الشرطى .. « جنرالا » بما يميزه من دقة الحركات يمينا وشمالا وغربا وشرقا .. فى ثقة زائدة حتى أن السيارات تمر وكأنها تنساب فى رحلة محكومة بهذا الشرطى .. يسهل عليها الانسياب .. فى حرية الحركة .. والسيارات ممنوعة من التزمير أو الجلاكس .

كل يخبط على جانبى السيارة اذا لزم الأمر ... للتنبيه ...

هناك تاكسيات « بالنفر » تسمى « دولموش » « محش دولما » كنا نركب هذه التاكسيات لرخص أجرها ..

شهر ونصف فى استنبول .. لم أر فيها جمال المرأة .. الفتيات .. لطاف .. الا من تلك الفتاة التى قابلناها فى المركب .. كانت أجمل مما رأيت فى لندن وباريس وروما وشهدت « عايده » بهذا ..

السيدات التركيات .. فى مصر .. بنات فؤاد : فوزية وفايزه .. جميلات..وتلك التى تزوجها الأمير محمد عبد المنعم . تركية من استنبول .. جميلة .. ثم أن هؤلاء قد شربوا « من مية النيل » .... فازدادوا حسـنا ... ؟

تذكرت ما قاله لى « محرم بك » .. لابد لنا من أن نذهب الى مرسين حيث أقارب محرم بك ولهم خبرة فى الخراف .

وسألت سيف الدين .. ان محرم بك يعرف الطريق ثم أننا نريد سيارة نستأجرها الى « مرسين » وقال محرم بك انه سيقوم بهذه المهمة . ولكن أطلب منكم التريث بضعة أيام حتى أكتب الى معارفى فى مرسين لكى يلقونا هناك .. وحدد اسم التاجر « شفيق كباش » الذى يهمه الأمر .

جاءنا محرم بك بسيارة وسائق ..

بلغنا مرسين بعد لأى .. وكان الطريق منحدرا الى اسفل ثم الى أعلى .. والخـوف كان من النزول الى أسفل .. وفرملة السـيارة . والموتور يسير على « واحد » أى أن الموتور يفرمل السيارة عند نزولها ومعه « الفرملة » من السائق . ولكن كان هذا الطريق من أجمل ما رأيت .. شجر التفاح واللوز والبشملة والوشنة وفواكه كثيرة .. كنا نقابلها ..

بلا ثمن فى هذا الطريق ... كان هذا الطريق يذكرنى بطريق « التونج » في جنوب السودان .. هناك المانجو والأناناس .. وكلها لمن يرغبها بغير ثمن ..

مررنا بعد بضعة ساعات بأنقرة .. العاصمة ..

أنقرة مدينة كئيبة بالمقارنة باستنبول ..

كان « محرم بك » وهو صائم .. يتلو القرآن بالعربية الركيكة .... بعد بضعة ساعات وصلنا الى البلدة . كان محرم بك يصل اليها ليقيم فيها بعض الوقف فى ريف تركيا عند صاحب له : منزل مشيد من طابقين : الطابق الأول اسطبل .. والطابق الثانى هو البيت الذى يسكن فيه أصحاب محرم بك ..

فى الطابق الثانى .. غرفة بارحة .. متسقة فى رياشها .. والخط التركى فى لوحاته على الجدران .. والبيت مرهف فيما احتواه من التحف الممتـازة ...

ولكن .. كنت اشم من الطابق الثانى ما فى الطابق الأول من بهائم . أكدت لى عايدة ما شممته .. رائحة الاسطبل ــ البيت فى الريف المصرى .. له غرفة فى جانب والاسطبل فى جانب آخر والكل فى بيت واحد ــ والرائحة تملأ المكان .

أهل البيت .. مثقفون .. عاشوا فى الريف بجماله ووفرة الرزق .. ثقافتهم موروثة من الأجداد ثم من هذا الريف الجميل ...

وقدموا لنا طعاما مليئا بالطعم وحسن الطهى ..

والأتراك لهم خبرة فى ذلك ..

شاهدنا الخراف ترعى .. فى اسراب ... فى هذا الريف الجميل وكنا نريد الخراف ... !

تركنا ذلك المنزل..المضياف..اهله كانوا فى غاية اللطف والحياء ... وسارت بنا العربة الى حيث .. شفيق كباش .. فى مرسين ..

مرسين .. ميناء .. صغير .. واقع على البحر الأبيض المتوسط مراكب وبواخر تشحن بالبضائع تجىء .. الى مرسين وتصل الى بلاد أخرى ...

مرسين .. جوها حار جدا فى الصيف ....

بعض من أهلها يتكلمون بالعربية ٠٠ في الفندق صاحبه يتكلم العربية ٠٠٠ ولذا أقمنا فيه ٠٠٠

في الصباح ذهبت أنا وأخي مع سيف الدين لشفيق كباش ٠٠ وفى بضعة أيام اتفقنا على السعر ٠ ولكن كانت هناك صعوبة فى اخراج النقود من البنك ٠٠ ولذا كنت فى حيرة ٠٠٠ ثم تلفنت مع مصر ، لكى يبرقوا بسرعة الى البنك ٠٠ ولكن عندما قابلت مدير البنك ٠٠ حل الأشكال فى التو واللحظة ، وقد استلم « شفيق كباش » مبلغا من المال ٠٠ والبنك ضامن ٠٠ وراح يشترى الخراف ٠٠

أقمنا فى مرسين ٢٠ يوما حتى يتهيأ « لكباش » الحصول على الخراف ٠٠

أقمنا فى الفندق ٠٠ مطاعم ومقاهى على شاطىء البحر ٠٠ وفى الأمسيات ٠٠ مطربات ومطربين ٠ نعم فى هذه المطاعم والمقاهى ٠٠ يطربون الزبائن والضيوف ٠٠٠ بأغانى رقيقة ٠٠٠ مستوى الصنعة ٠٠ رفيع ٠٠

فى استنبول ٠٠ كانت « بريهان » و « صفية » تشدوان فى المطاعم والمقاهى ، وهاتان المطربتان هما الصفوة فىاستنبول ٠٠

ولكن فى مرسين سمعنا من مطربة ٠٠ أغانى قوقازية رائعة ٠٠ القلب يزأر ٠٠ والثغر يعنف ثم فى رقة وحنان الى آخر المكان ٠٠ وكنا نذهب الى ذلك المطعم فى المساء لنسمع من تلك المطربة ٠٠٠ أغانيها القوقازية ٠٠

فى كل يوم ٠٠ نذهب فى الصباح لنقابل « كباش » لنعلم منه الى أى حد قد اشترى من الخراف ٠٠٠

كنا نتعلم أنا وأخي من كباش بضع كلمات من التركية نتفاهم بها معه فى اتمام الصفقة ٠٠

وعند الظهر كنا نذهب الى مطعم فى قلب مرسين أنا وزوجتى وأخى وسيف الدين ٠ وهذا المطعم يصنع الكباب ٠٠ اللحم لذيذ ٠٠ والصنعة لا تعادل صنعتها فى مصر ٠٠واللحم يشويه الفلفل الأخضر الحريف ولسعته فى اللسان ٠٠ وما أطيبها ٠٠

اقمنا فى مرسين حتى كان موعد ابحار الخراف ٠٠ دفعنا الثمن وصلت الخراف الى الاسكندرية ٠٠ وحجزت فى الحجر الصحى ٠ انتابتها الأمراض وخلافه ٠٠ خسرنا الصفقة ٠٠ كنت أعول على الصفقة كى أحصل

على مال يؤهلنى للسفر الى باريس أنا وزوجتى ·· ضاعت الصفقة وضاع الحلم !

تركت زوجتى فى مصر لتتعامل مع الأغنام الباقية ·· لتسترد مالا أعطيناه من « تحويشة العمر فى السودان » ومالا اعطاه أخوان عايده فى الصفقة ··

سافرت الى السودان ·· تأخرت عن الدراسة كثيرا ··· أخذت شهادة من تركيا وقد تعطلت كثيرا فى تركيا ؟ وأعطيت الشهادة لمدير المدرسة ·· لترجمة الشهادة ···

ولم يأمر بترجمة الشهادة وأخذ بما قلت له ·· !

استمررت فى تدريس الرسم وأنا قلق على عايدة وعلى مستقبلى ·· انى كرهت هذا الموقف ·· حتى أكتوبر سنة ١٩٥١ ·

وقررت الاستقالة من حنتوب ومن وزارة المعارف ·· أعلمت مدير المدرسة « لويس براون » بما قررت ·· جاء الرد : « لا يمكن أن نتركك ·· هكذا » « وهو يبتسم » ·· الا اذا احضرت بديلا لك وأن تختاره من مدرسى الرسم المرموقين ···

ذهبت الى المنزل وتلفنت على التو الى عبد الهادى بك مدير التعليم المصرى فى السودان ·· انى قررت الاستقالة وانت تعرف انى أحصل على الدرجة المعطاة للانجليز ·· درجة معادلة لكل مدرس انجليزى فى المدرسة، وأرجو أن توافق على بديل لى فى هذه المدرسة ·· وانى رأيت الأستاذ عبد الكريم المصرى فى مدرسة الخرطوم ·· وانى أرشحه لهذا المنصب ·· ورد عبد الهادى بك حاسما ، فى ظرف أسبوع سيكون فى حنتوب عبد الكريم المصرى ·· أبلغهنا الى مدير المدرسة حتى يوافق على اعارة عبد الكريم الى « مديرية التعليم فى السودان » أستاذا للرسم والأشغال ·· » ·

ذهبت الى « لويس براون » ·· انى اخذت لك مدرسا ممتازا وهو الذى زار حنتوب فى الشهور السابقة ومعه لفيف من مدرسة الخرطوم ·

والتفت الى « لويس براون » انه ذلك الشاب الذى يلعب كرة السلة فى اتقان ·· انى موافق عليه · وفى ظرف اسبوع أو أكثر قليلا ·· حضر عبد الكريم المصرى واستقام فى حنتوب ·· واستقام فى السودان ··

انطلقت أنا الى القاهرة ··

كان السودان حبيبا لدى ·· انى أقمت فيه تسع سنوات الا قليلا ·

وكنت صديقا لكل من عرفت من المدرسين السودانيين والمصريين والانجليز ·
السـودانيون ·· كانوا أعزاء على أضافنى الكثير منهم ·· وكنت على علاقة طيبة معهم على الرغم ان مصريتى كانت شديدة على سياسة الانجليز ·· كنت صريحا الى أبعد الحدود فى الاجتماع الذى يعقد كل خميس بين المدير والمدرسين ···

ولكن كانت هذه الصراحة ·· قابلة للاحترام من الانجليز ، وهى مشجعة من السودانين ···

ذهبت الى القاهرة مودعا من المدرسين ·· من كل جنس ·· وكانت جملة قالها «محمد صالح» وكيل المدرسة السودانى وكنا صديقين : « انك هدية لمن تعمل معه فى المستقبل » ·

كانت هذه الجملة ·· ترجمة من السودان كنت أتذكرها بين الحين والحين ··

★★★

فى القاهرة ·· قابلتنى عايدة باسمة ·· وهى تخفى ما عانته فى غيابى ·· مع مشكلة الخراف ··

وقد ساعدتها فى التخلص مما بقى منها حتى سددنا بعضا من ديون الشركة « أخويها » وعدنا خاليا الوفاض ·

كانت الصفقة ماليا صفرا ·· ومعنويا فقدنا تلك الثروة التى كانت فى حلمنا ، لنزور فرنسا ، ونلتحق ببعض المعاهد لنتم دراستنا ·

★★★

عائلة عايده ·· أفردوا حجرة فى البيت ·· لتكون مأوى مؤقتا لنـا ··

زرت الأستاذ يوسف العفيفى ···

زرت الأستاذ حامد سعيد ، وقد نوه بأن أكون مساعدا له فى « التفرغ » للأساتذة ، الذى كان يضمهم فى أوقات معينة ليتفرغوا من تدريس الرسم ، لمحاولة فهم واتقان العمل الفنى ·

رحت أفكر فى هذا ·· وقد كنت أفكر فى الاستقالة من السودان ومن وزارة المعارف فى مصر ·

في هذه الاثناء ٠٠ قابلت عبد الهادى بك مدير التعليم فى السودان ، وقلت له انى سأزورك فى البيت عندما تشاء لكى استشيرك فى مصير حياتى ٠٠

فى اليوم التالى كنت فى منزل عبـد الهادى بك ٠ وقلت له ان الأستاذ حامد سعيد ٠٠ نوه ٠٠ بأن أكون مساعده فى التفرغ للأساتذة٠ وفى الوقت نفسه كان أشقاء عايده قد طلبوا أن أكون معهم فى مقاولات فى السـعودية ٠٠

هذا وان العرض ظل فى تفكيرى منذ عهدى بالسودان وقد ألحوا على أن أقبل بمرتب مجز ٠

سكت عبد الهادى بك ٠٠ وقال الأحسن أنك « تدير ساقيتك » « كل واحد يدير ساقيته » لا تتشبث بطلب حامد سعيد ، أو الشركة ٠٠

خرجت من بيت عبد الهادى وكنت أفكر فى كلامه ! قابلت عايده وذكرت لها ما قاله ٠٠

سـكتت عايده ٠٠ « أجدر بك أن تدير سـاقيتك » كل يدير ساقيته ٠٠ !

فى الظهيرة ٠٠ فى وقت الغذاء ٠٠ سمعت الأخوين فؤاد وألبير ٠٠ المهندسين ٠٠ يتحدثان عن عملية مقاولات فى السويس مع شركة قنال السويس ٠ الشركة الفرنسية توقفت بعد أن هاجم المصريون الانجليز فى القنال ، وكانت البواخر تمر بسرعة خوفا من مهاجمة المصريين لها ٠ وكانت العملية هى دق ستائر صلب على شاطىء القنال من السويس حتى ٢٠ كيلومترا شمالا ٠٠ وقد كلف الاخوان زوج أختهم الوسطى بالاشراف على هذه العملية ٠٠

كان الضرب شديدا من المصريين ، وكانت البواخر بسرعتها تدمر مراكب الشركة « والبيجات » والأوناش ٠٠ « البيجم » لم أعرف معناها سوى ما عرفنى الأخ الأصغر « طشاشا » ٠

أقام زوج أختهم فى السويس اسبوعا ٠٠ لم يخرج من الفندق حيث كان الضرب مخيفا ، ثم تلفن الى الشركة ، وعاد الى القاهرة ٠

قال الأخ الأصغر « ألبير » ان خسارتنا تبقى كبيرة ٠٠ اذا لم يستطع « فؤاد شينارة » « زوج الأخت » ٠٠ تدارك الموقف ٠٠

ثم ان فؤاد قد عاد توا الى القاهرة ٠٠

كنت اسمع حديث الاخوين ٠ أنا لا أدرك من المقاولات شيئا ، وهذه العملية فى قنال السويس ومع الشركة الفرنسية التى تدير القنال ٠ تكلمت : اذا أرسيتمونى الى مفاتيح العملية وكنهها ربما أجد نفسى مشتاقا للحلول الصعبة ، فقد كان منها الكثير فى حياتى ٠٠ ؟

ألبير يشرح لى العملية : هى دق ستائر من الصلب فى شاطىء القنال حتى لا ينهار ويسبب ضحالة المجرى ، ثم تتوقف البواخر ٠

ان كل المعدات هناك ثم ان ضرب المصريين للانجليز وتخوف البواخر ٠٠ من أن تصاب باخرة وتتعطل ثم تسد مجرى القنال جعل البواخر تتحرك فى سرعة ٠٠ وهذه السرعة تغرق مراكب الشركة وتغرق « البيمة » التى تدق هذه الستائر ، وقال ٠٠ ان فؤاد شنياره لم يترك الفندق خوفا من المخاطر ثم أنت اذا أردت السفر أرجو أن تدبر أمرك مع عايده ٠

سافرت فى اليوم التالى الى السويس ٠٠ ونزلت فى فندق « بل اير » وعادنى « بتروتش » مدير الأعمال ، بتروتش ايطالى ، وهو يتكلم العربية بطلاقة ، وأخذ يحدثنى عن هذا الكابوس الذى حل بالعملية ٠ اننا لاندق زوجا من الستائر فى يوم كامل ٠ ان البواخر تسير بسرعة حتى تقلب الاوناش والبيجات ٠٠ كلما ابلغنا الشركة الفرنسية تبعث أوناشا قادرة على رفع البيجات والأوناش من قاع القنال ، ثم نرتب العمال لتدق زوجا أو اثنين من الستائر ٠

ان تكاليف دق زوج من الستائر يربو على عشرين مرة ثمن عطائنا فى مثل هذا الزوج ٠

امتد حديث « بتروتش » عن الستائر وفرق بين الستائر « لارسن » وبين الستائر « فردنجهام » ٠ ولم أع شيئا مما يقول ٠٠ وقلت له انك سترينى على الطبيعة ما يمكن أن أدركه ٠

ثم قال أن هذه الستائر تدق الى الآخر حتى يصدها صخر فى القاع ٠٠ وبعد ذلك ينزل «الغطاس» تحت الماء ومعه ماكينة لقطع الستائر تحت الماء توازى الخرسانة المصبوبة على الشاطىء ٠٠ ان هذا الغواص من اليونانيين ٠ ويتكلف يوم الغطاس والمركب ٠ ثمنا باهظا ٠٠٠

قلت كفى ما حدثتنى اليوم ٠٠ وسنقوم فى الغد صباحا نزور الموقع ونرى فيه ما حدثتنى عنه ، ثم البيجة والونش ثم العمال ٠٠

قال بتروتش ٠٠ ان المسيو فؤاد لم يستطع النزول من الفندق لكى يرى الموقع فى القنال ٠٠ خوفا من المظاهرات ٠ قلت أنا أستطيع ٠

في الصباح الباكر ٠٠ حضر بتروتش الى الفندق وذهبنا الى الموقع في القنال : الموقع يبعد عن السويس حوالى عشرة كيلومترات ٠٠٠

شاهدت العمال ٠ فوق البيجات والأوناش زوج من الستائر الصلب ٠٠ « زوج ستائر معشق في بعضه وينزل في الأرض سويا » الونش يدقه في الأرض من جانب وملصق في الشاطىء المغطى بكتل من الخرسانة سبق تجهيزها ، بضع سنتمترات ، ثم باخـرة تمر بسرعة زائدة فاذا بالبيجة والونش يكادان يغرقان في مياه القنال ٠٠

يحاول العمال تخليص الونش والبيجة من الغرق ٠٠ ثم نعمل في دق الستائر ٠٠

قال لى « بتروتش » ان دق الستائر يكلف الشركة باهظا ولو كانت البواخر تبطىء قليلا لكنا زدنا في الدق ٠ أما الأعمال التالية فتسير مع سرعة البواخر ٠ على أحسن حال ٠

خرسانة تصب في الماء المالح وجولوط « قمع كبير » تحت الماء ٠٠ ورمال تفرش في أرض الشاطىء ٠٠ من تلال في الجهة الشرقية لقناة السويس ، ثم قال «بتروتش» أنه اكتشف طريقة توفر للشركة ربحا أكثر ٠٠٠٠ كيف ؟ قمت بتركيب عدة طلمبات على مياه القناة وصوبتها على التلال ٠٠ فالرمال تنزل مع قوة دفع المياه ٠٠ على سطح مسطح الشط ٠٠ ثم العمال يسوونه على الشـاطىء بما يرضى ملاحظى الشركة من الفرنسيين واليونانين (« ملحوظة ٠٠ في حرب ٧٣ قام الجيش بتسوية الرمال ونقلها من أماكنها التى قام اليهود بتكوينها فوق شط القناة الشرقية ٠٠ لمنع الجيش المصرى من التقدم بطلمبات بدفع شديد من مياه القناة وكانت الخطة ناجحة تماما ٠٠ ») ٠

استمعت « لبنروتش » وأخذنى في عربته الى الفندق ، وأنزلنى وذهب الى بيته قال لى أرجو أن تستريح في الفندق الى غد ٠٠٠ واذا كنت ذاهبا الى الموقع فانى لن اذهب معك ٠ الى الغد وانى انتظرك في الساعة السابعة صباحا ٠٠

تركته وصعدت الى غرفتى لكى أستريح وأفكر فيما سيكون ، وفي الساعة الواحدة والنصف نزلت الى المطعم وكان المحل محجوزا ٠٠٠ كل المحلات محجوزة للزبائن القاطنين في الفندق ٠

أعطانى «النادل» خادم المطعم قائمة الطعام واخترت ما يطيب لى ٠٠ ثم صعدت الى غرفتى ٠ وكلى آذان صاغية لما قال لى « بتروتش » ٠٠

ان صب الخراسانة تحت الماء المالح بأقماع « جولوط » سهل والعمال يصبون هذه الصبات بسهولة ‥ ولماذا‥لا يسرعون فى هذه الصبات‥! اذ أن تكلفتها ‥ هى العمـــالة ‥ وأن الأسمنت يجلبونه من الشركة والزلط يجلبونه من محاجر جبل عتاقة ·

العمالة وشحن الأسمنت والزلط ـ كل هذه العملية ‥ عمالة فقط ، وبعض الحاويات وأوناش · أما الرمال من التلال‥وعماله ، وأدخلت فيه طلمبات بتروتش ·

ماذا لو أسرعنا فى هذه الأعمال السهلة ‥ ؟

ممكن ···· حوافز للعمال ···

فكرت فى هذه الحوافز للعمال ···

أما دق الستاير ··· عندما يكون البحر هادئا يمكن للحوافز أن تنتصر ···

فى الأسبوع الأول كنت أمر على الموقع وأتعرف على العاملين ···

وتعرفت على ريس العمال وعلى الونش والبيجة ‥

اسمه « بلاص » ‥ بللاص ‥ عامل نشط وذكى · حماسا فى عماله ···

بعد أسبوع تكلمت مع « بتروتش » فى الحوافز ···

ورد بتروتش · ان الشركة على هذا المنوال يقدر لخسارتها ١٤ ألف جنيه ··· وأنت تقترح حوافز للعاملين ‥ أنا لا أوافقك على هذا الرأى · على كل حال أنا سأتلفن الى الشركة مع رئيسها فؤاد شحاتة وسأقترح عليه حوافز للعمال ··· اذا كان رأيه أن الخسارة ستكبر ‥ أنا فى حل من هذه العملية ···

وفى اليوم التالى تلفنت الى ألبير الأخ الأصغر · وقال لى ان القاهرة تحترق ···· واستفهمت منه كيف يكون هذا ؟ القاهرة تحترق ؟ كان رئيس « النادل » بجانبى : هل القاهرة تحترق ؟ هم يقولون ذلك ·

وبعد ساعة قابلنى ضباط شرطة بلباس مدنى ‥ وسألونى هل القـــاهرة تحترق ؟ أنا سمعت هذا من ساع فى الشركة تليفونيا ‥ ولم أكن أعـرف أن القـــاهرة تحترق ···· انا ســـمعناك تقول ان القاهرة تحترق ؟ ولكنكم من ضباط الشرطة وانكم أعلم منى بهذا ‥

انا سمعنا هذا الكلام منك ·· أرجو أن لاتقوله حتى تتأكد من ذلك ان هذا الكلام يمكن أن يؤثر على جمهور السويس وأنت فى غنى عنه ··· السلام عليكم ·· انفضوا من حولى ··

خفت من هذا الحريق ··· فى المساء سأتلفن الى عايدة فى المنزل لأعرف شيئا عنه ·

ألبير قال ان القاهرة تحترق ··· رحت أفكر فيمن يقوم بحريق القــاهرة ·· الانجليز ·· الملك ·· المصريون ·· لم أعط حــلا فى هذا الحين ···

فى الصباح الباكر طلبت الجرائد ··· فيها الحريق شمل القاهرة بأكملها ··· من محلات وعمائر ومنتديات وخلافه ·

لايمكن أن يكون وراء الحادث الا أحداث جسام · ولم تمض شهور قليلة وانا فى الموقع حتى سمعت من الراديو الصغير أن الضباط الأحرار قد استولوا على السلطة ·· وان الملك فاروق قد خلع ·· وانه فى طريقه من الاسكندرية الى المنفى وأن الجمهورية ستعلن قريبا ·

مصر ستعود ملكا للمصريين ·· غمرنى الفرح ·· لم يمر وقت طويل حتى نصب رئيسا للجمهورية اللواء محمد نجيب ·· وهو أكبر الضباط الأحرار سنا وهو أسلمهم فى الحفاظ على الجمهورية ·· رئيسا ·

***

فى هذه الشهور ·· ما بين حريق القاهرة وجمهورية مصر ومحمد نجيب رئيسا ·· كانت العملية فى قنال السويس تشق نجاحا ، والأمل أن تذهب الخسارة ويحل معها الربح ·

أخذت الموافقة من أصحاب الشركة ·· « فؤاد وألبير » بأن استعين بالحوافز للعمال ·· فى دق الستائر ··

ذات صباح جمعت عمال الونش والبيجة « البيجة مركب مسطحة يوضع عليها الونش وشاكوش من الصلب ٢ طن ·· ثم يسحب بالبخار الى أعلى وينساب الى أسفلها بثقله على عارضة تركب على زوج من الستائر·· لينزل فى الأرض لابسا فى الزوج السابق ·· يرتفع الشاكوش وينزل بثقله حتى تغوص فى الأرض كسابقتها : اذا صادفها حجر تعجز عن اختراقه ·· يتوقف الدق · وهذه الزوائد فى الستائر ·· تقص تحت الماء بغطاس ·· وبآلة تنفث شعلة من اللهب تحت الماء بضغط هوائى ··· حتى توازى أطراف الستائر الخرسانية المصبوبة على شاطىء القنال ··

ان هذه الستائر هي مفتاح الانفراج ٠٠ اذا عملنا على أن العاملين على الونش والدق يدقون عشر أزواج من الستائر تكون خسائر الشركة أقل واذا زدنا عشرة أخرى تكون الخسائر أقل من القليل اذا زدنا عشرة أخرى نكون من الرابحين ٠

هذه المشكلة كانت تدور فى رأسى ٠٠٠ هذا المشكل الصعب ٠٠ لابد أن أواجهه ٠٠٠

جمعت عمال الدق وعلى رأسهم رئيسهم وهو رجل حاسم يخشاه كل العاملين معه ٠٠ اسمه « بلاص » هذا « البلاص » صادقنى كل هذا الوقت طوال هذه العملية فى القنال ٠٠٠ هو يرغب فى ربح الشركة المصرية ثم فى ربحه هو ٠٠٠

طلبت من الريس والعمال أن يجتهدوا اذ أن الشركة تخسر وطلبت منهم أن يذكروا لى ما فى استطاعتهم أن يقدموه الى الشركة ٠٠ هل عشرة أزواج من الستائر أو أكثر أم أقل ٠٠ فأجاب « بلاص » رئيسهم « اذا اجتهدنا ولو زدتنا فى الأجر فيمكن لنا أن ندق ٦ ستة أزواج من الستائر » قلت هذا ما يمكن أن تدقوه ٠٠٠ !

اذا كان هذا ما يمكن أن تدقوه فى اليوم الواحد فلكم أجركم ٠٠٠ واذا زاد ستة أخرى فيكون أجركم مضاعفا وكل ستة أخرى يكون أجر يوم كامل يضاف الى أجركم ٠ اذن أنت يا بلاص زدت ٦ أخرى فيكون أجرك اليوم جنيهين بدلا من جنيه واحد ومثلك العاملون يضاف لليوم ٥٠ قرشا واذا زدنا : كل ٦ أزواج بيوم كامل يضاف الى أجركم ٠

حييتهم ورجعنا أنا و « بتروتش » الى الفندق ودعوته الى قدح من الجعه ٠٠٠٠ !

ثم هاج بتروتش ٠٠٠ وكان ساكنا فى موقع العملية ٠

« أنت ٠٠٠ الشركة ستخسر كثيرا وهى خاسرة من قبل لابد أن تتلفن الى فؤاد شحاتة لتطلعه على ما عولت عليه ٠٠ انها خسارة فادحة للشركة » ٠ اذا أعطيت للعامل ثلاثة جنيهات وللريس ٦ جنيهات اذا ما دقوا ستة وثلاثين زوجا من الستائر ٠٠

طلبت له قدحا من الجعة ثانية وهدأت روعه ٠٠٠ ورحت أحسب ٠٠ أن الفئات المعطاه لنا من الشركة الفرنسية المديرة للقنال ٠٠٠ تجعلنا نربح اذا ما دققنا ٣٦ زوجا من الستائر ٠٠٠ بفئات العمالة المعطاه فى عطائنا ٠٠ وان الأجور المزادة لا تنقص من ربحية الشركة ٠٠

انني سهرت الليلة بأكملها وأنا أحسب هذه الأجور بالنسبة لعطائنا ·· اذا وصلنا الى دق ٣٦ زوج ستارة في اليوم ·· سنكون من الرابحين ···· اذا وصلنا ··· ؟

واذا زدنا ·· أرباحنا ستزيد ··

قال بتروتش ·· حسبت أن « بلاص » ستزيد أجرته من واحد جنيه فى اليوم الى خمسة جنيهات وأن العامل ستزيد أجره خمسة أضعاف ·

قلت ·· انى أحسب أن الأجور ستزيد عشرة أضعاف وأن ربحية الشركة ستزيد أكثر فأكثر ··

فى اليوم التالى فى الموقع تحدثت مع « البلاص » وعمال « الدق » ان ستة أزواج من الستائر يجب أن تدق فى اليوم الواحد وان الزيادة ستحاسبون عليها ·· ستة ستائر أخرى سيتضاعف الأجر وستة أخرى يزيد أجركم يوما كاملا ··

وتركتهم يحسبون الزيادة فى اجرهم ··· وهل يمكن الشركة ··· أو مندوب الشركة ·· محمد راتب ·· أن يفى بهذا الوعد ·

وانتقلت لصب الخرسانة ··· الأسمنت حاضر وأكياس الزلط حاضرة والعمال حاضرون ··· وذكرت لهم أن الصبات التى ستزيد على المقـــوم اليومى ستحسب زيادة فى الأجر اليومى بنسبـــة الزيادة فى الصـــبات ··

ان هذه العملية مع شركة قنال السويس هى « عمالة » فقط مع الاستعداد للاوناش والبيجات وآلات القطع تحت الماء ثم الطلمبات ··· كل هذه الأشياء وفرتها شركتنا لخدمة العملية ·· ثم العمال ·· موجودون ·· يقبضون مرتباتهم وهم لايعملون ··· البواخر تسير بسرعة والمصريون يضربون الانجليز فى القنال ··

والكل يخاف ···

فى المساء تلفنت الى فؤاد شحاتة فى القاهرة · وقلت له وعدت العمال فى دق الستائر بمضاعفة الأجر اليومى اذا ضاعف العمال دق الستائر ·· ولكل يوم ستة أزواج من الستائر ··

وقلت له اذا نجحت التجربة سأستمر فيها ·· واذا لم تنجح سوف يعمل « بتروتش » لدقتها ، أما أنا فلا وجود لى فى السويس يمكنك أن تنتدب مندوبا ليحل محلى ···

ناداني رئيس الجرسونات .. ان طعام العشاء جاهز .

تناولت طعام العشاء وخرجت الى الشرفة وجلست فى ركن قصى ... لافكر فيما فعلت : انى فعلت الصواب .

فى اليوم التالى جاءنى « بتروتش » وذهبنا الى الموقع .. فى الصباح الباكر وقربيا من موقع الونش والبيجة ..

دقات تتوالى ... زوج الستائر ينزل .. ثم يرفع زوج آخر ليلبس فى الزوج المدقوق .. ضربات الشاكوش تتوالى .... فرحت فرحا شديدا .. سألت « بلاص » هل كنتم تتولون الدق منذ وقت طويل ؟ فقال : اننا أوقدنا البخار من الفجر ودققنا ثمانية أزواج من الستائر .. حتى الآن ... ومرت البواخر بسرعة .. وتركنا الدق ولحقنا الونش والبيجة من الغرق ، وشددنا الحبال والهلب حتى لا تغرق ... وحينما تمر البواخر الى الاسماعيلية .. نقوم بالدق .. مرة أخرى . وعند الظهر تتوالى ضربات « الشاكوس » على الستائر ...

التفت العمال وعلى رأسهم « بلاص » الى مواقيت مرور البواخر من بور سعيد الى الاسماعيلية فى بحيرة التمساح وعندما يقتربون من العمل . يوقف العمل نهائيا وتشد الحبال والهلب وكل العمال يقفون بالمرصاد لكى لا يغرق الونش والبيجة .

فى اليوم الأول تم دق ١٥ زوج ستائر ونال كل من العمال ٢½ يوم من الأجر ..

فى اليوم التالى قفز الانتاج الى ٢٤ زوج ستارة .. ونال العمال ٤ أيام من الأجر .

وفى المساء تلفنت الى فؤاد شحاتة .. ان «العمال جادون» وأخبرته بما تم .

فأجاب فؤاد شحاتة .. ان هذا الرقم يجيز ما أنت فاعله من زيادة الأجور . وانا سعيد بهذا وأرجو أن تواصل رحلتك ، ثم لابد لك أن تقابل «لاروشى» مدير الشركة الفرنساوية للقنال فى السويس..وتعلمه بنجاحك فى التقدم وتطلب منه أن تكف شركته عن الغرامات والخصومات التى تنزل علينا كالمطر اذا ما رفعت أوناش القنال والبيجة والونش الغريق فى القنال، وأن السبب هو سرعة البواخر التى تضطر أن تسرع .. ولا ذنب لنا فى

هذا ··· وأنى سأزوره فى الأسبوع القادم ·· لتجنب تلك الغرامات والخصـــومات ·

السبت والاحد ··· زرت القاهرة و ··· سألتنى عايده عن الشغل فى الســـــويس وأن فؤاد شـــحاته أخوها أخبرها بأنى جاد فى هذه العملية ···

استعرت سيارة قديمة ماركة هدسون من فؤاد وقلت له ان السيارة التى يركبها « بتروتش » يؤجـرها بايجـــار مزعج ··· يؤجـرها من « ابن امرأته » ··

وأن السيارة الهدسون ستكون وسيلتى ووسيلة بتروتش · وسافرت بها الى السويس ··

كانت السيارة سببا فى الوصول الى المواقع فى الصباح الباكر قبل الافطار ·· ضربات الشاكوش فى الستائر تنعشنى ··· ذلك الشـكل الصعب بدأ يتنفس · العمال يزدادون حماسا ·· للأجر ! وحماسا ··· من غير الأجر ··· حماسا يلهب نفوسهم للنجاح ··· للنجاح فقط ··· وعيت هذا من احتكاكى بالعمال ··· النجاح يحقن نفوسهم الى نجاح أكبر ·

وهكذا ذهب عمال « الونش والبيجة » الى نجاح أكبر وعلى رأسهم « بلاص » الذى لا يرحم فى العمل · فى هدوء النفس واشتعال الهمة « بلاص » هادىء رزين ·· الكل يحترمونه ·· بهدوئه قام بالعمل فى منتهى الدقة ·· العمال يعاونونه ·· فى كل دقة من الشاكوس فوق زوج الستائر ··

بعد بضعة أيام وصل « بلاص والعمال » الى (١٠٠) مائة زوج من ستائر الصلب ·· أنزلوها فى غاطس القنال ··

(١٠٠) زوج من الستائر··طلبت فؤاد شحاتة وأخبرته بما وصل اليه العمل ··

لم يخطـر على بال فؤاد شحاتة هذا الرقم ·· وقال أنت قلت ١٠٠ زوج ؟ ·· قلت له « مائة زوج » وأقفلت التليفون ··

ان هذا المشكل صعب فى شركة المقاولات وعند العمال بل هو صعب فى حياتى ·· لا أبغى منه ربحا ماديا ·· ان الربـح المادى هو لشركة المقاولات ·· ولكنى أبغى ربحا ·· نفسيا وعقليا ·· وقلبيا · وكل حركة منى فى هذا الخطر الكامن ·· كانت ·· تربح ·· الربح ·· كان تسوية لازمة فى النفس ··

تركت السويس ·· وكانت عزيزة لدى ·· تعلمت منها فى ذات العملية ·· أن الاصرار والنفس الطويل ·· له طريق فى حياة الانسان·· حياة أفضل ··· !

★★★

رحلت الى القاهرة ·· كان الاعداد لسفرى الى السعودية · لدراسة عطاء الطريق من مكة الى الطائف ·· لم أكن ذا خبرة الا ذات الخبرة التى اكتسبتها من عملية القنال ، ولكن الشركة نجدتنى بمهندس ذى خبرة وكفائة استضافوه من مصلحة حكومية ·· لدراسة عطاء الطريق · كان المهندس مسلما بطبيعة الحال : حسين مصطفى ·· رحمة الله عليه ·· أخذنا تعليماتنا من المهندس فؤاد شحاتة ·· أوصانا خيرا ·· ان الطريق ستبلغ تكاليفه عشرات الملايين من الجنيهات ·

فى المساء طلبنى تليفونيا أن أذهب اليه فى مكتبه · وجدته ممسكا بورقة وقد كتب فيها شروطا للتعاقد معى فى هذه العملية ·· الملخص ·· اننى سأنال الأموال اللازمة لسفرى واقامتى فى السعودية بمرتب يكفينا نحن الاثنين أنا وعايدة ·· عند عودتى الى القاهرة · أمضيت العقد ، ثم قال « اذا نجحت العملية لك منى وعد أنك ستنال كل ما تحتاجه للسفر أنت وعايده الى باريس والاقامة هناك طوال الدراسة ··

كان هذا الوعد له أهمية كبرى · ان كل ما اسعى اليه هو هذه السفرة لأتم دراستى فى فرنسا ، ثم دراسة عايدة فى النحت ·

تعرفت على المهندس حسين مصطفى ·· عندما جاء الى مكتب فؤاد شحاتة ·· وشدتنى صداقته ·· وهو ذو خبرة وسافرنا سويا الى المملكة العربية السعودية · بعد أن أعطينا فيزة الدخول · وهناك فى جده وجدنا شريكا من السعوديين ·· قد قام حسين مصطفى باشراك أحد أصدقائه فى جدة فى عملية الطريق ·

اسم الشريك ··· الجميل وأخيه عبد اللطيف الجميل ·

عائلة الجميل ·· لها قصر فى مدخل الطريق الى مكة وهو قصر جميل ·· وقد أمدونا بسيارات وجيب ، ثم سواقين ·

حصلنا على مافات وخرائط بعد دفعنا الكثير من الريالات ·· وقمنا على دراسة الطريق على الورق ·· لم تكن لى معرفة بهذه العملية · كل ما فهمته أن الطريق سيرتفع فوق جبال الحمراء الشاهقة حتى يصل الى الطائف ··

فى اليوم التالى ركبت مع المهندس فى جيب ووصلنا الى الطائف ، وذلك مع ملفات عن الطرق الصعبة ٠

وعلمت أن الطريق الجديد الذى ينشأ سيوفر نصف هذه المسافة ، يسير فوق الجبال ٠٠ ثم ينزل الى مكة ٠

هناك فى الطائف ٠٠ قادنا المشرف على الرحلة ٠ الى ٠٠ دليل ٠٠ يحفظ كل الجبال ومسالكها ٠

وبتنا ليلتنا فى الطائف ، وفى الصباح الباكر ركبنا الجيب الى مشارف الجبال ٠ ثم قام الدليل واستأجر حميرا مع أصحابها وركبنا الحمير ٠ كان الحمار يسير فى مسالك الجبال ٠٠ كان لايشعر بمخاطر ارتفاع الجبل على الوادى ٠٠ أما نحن ٠٠ فكان الذعر يملأ قلوبنا ٠٠٠ وسرنا حتى مشارف الوادى وكأننا متيبسين على ظهر الحمير ٠٠٠ وأرجلنا تيبست اذا نزلنا على الأرض لا نشعر بها ٠٠ وكأن الاقدام ليست لنا ٠

تحرك المهندس حسين مصطفى ٠٠ وجال بانفه فى البقيع ٠٠ « انى شممت رائحة القهوه » ٠٠ وسأل الدليل اذا كان مقهى قريب من هنا ٠٠ وأجاب الدليل اننا سنركب الحمير لنبحث عن المقهى ٠٠ انى اشتم رائحة البن فى تحميصه ٠

رحنا نبحث عن المقهى والدليل يرشدنا حتى وجدناها ٠ وشربنا القهوة ونحن جالسون على الأرض ٠ واستمرت رحلتنا على الحمير حتى اقتربنا من مكة ، ثم أخذ أصحاب الحمير أجرهم وذهبوا الى الطائف ٠٠

الرحلة بركوب الحمير أثرت فى أعصابنا ٠ ساعات طوال من الصبح حتى تانى يوم فى فجره ٠

الحمير تنساب على شريط عرضه قدمين والهوة تحته ولا احساس للحمير بالخطر ٠٠ انما الاحساس بالخطر قائم فى نفوسنا ٠ بين لحظة وأخرى ، تلك الهوة الفظيعة تحتنا ، والحمير تسير فى شريط ضيق ٠٠ لقد صحت أن يعود بى من هذا الخطر ٠٠ وكنت أغمض عينى لأستجيب لحرص الحمار الذى أكد خطوته على هذا الشريط الضيق ٠٠

وفى مكة ٠٠ وجدنا « الجيب » ينتظر ٠٠ وعدنا الى جده الى الفندق ٠٠

فى الفندق ٠٠ ركزنا على دراسة العطاء ٠٠ وكل تفاصيله من عمالة ومشتروات ٠

وكان المهندس حسين مصطفى رائعا فى خبرته وكنت أنا ٠٠ أتعلم من هذه الخبرة ٠

قدمنا العطاء بعد أن قدمه فى الشركة فؤاد وألبير شحاتة ، ثم أضافوا الى ما قدرناه ٠٠ ٢٥٪ للمخاطر ٠٠٠

فقدنا العطاء ٠٠ وفقده بعد حين « بلادن » وهو الحضرموتى المقرب الى عبد العزيز آل سعود ، وكان العطاء فى جيب « بلادن » من قبل ٠

وقد قابلت « بلادن » بعد حين ٠٠ وهو فاقد عينه اليمنى ٠٠ وعلى ذكاء خارق ، ونصحنى اذا كنت أريد أن أعمل فى السعودية ٠٠ أن أدق آبارا ارتوازية فى المدينة المنورة اذ كنت أمثل شركتنا المصرية والبلجيكية « هيدروليك أفريك » ورشح لى المدينة المنورة اذا كان لدى الحفار ، ويمكن أن يساهم معنا ٠

وطلبت من شركتنا ٠٠ « شحاتة الهندسية » أن ترسل لى الحفار وأيضا الحفارين المصريين ٠٠ وكان عندنا « مصطفى » حفار ممتاز ٠٠ والمدينة المنورة لايدخلها الا المسلمون ٠٠ وقدرت الأرباح بما أملاها على « بلادن » ٠ انها تغنى شركة باسرها ٠٠

ولكن الشركة المصرية تقاعست ٠٠ ولم ترغب فى ارسال الحفار الا اذا وقعت عقدا بالاتفاق على مئات من الآبار للمياه فى السعودية ٠٠ ذهبت العملية ٠ كان معى مهندس فرنسى « كامو » وبعد حين طار الى السعودية وتعاون مع شريكنا « الجميل » ثم قاموا بهذه العملية وعمليات أخرى للمياة ٠٠٠

طار مشروع طريق الطائف ، وطار مشروع المياه ٠

وفى العقد طلبت من شريكنا ٠٠ أن أذهب الى الرياض مع توصية منه ٠٠ للتعرف على الفيلات والمدارس التى يمكن أن أبنيها مع الجميل وشركتنا ٠ وقد أوصانى أن أقابل الأمير « ترك » ٠٠ ثم أمر بسيارة ستيشن واجن ٠ وقد طلب من أخيه عبد اللطيف الجميل أن يرافقنا حتى الرياض ثم يقدمنى الى شريكهم « غانم » فى الرياض ٠

السيارة مزودة بقرب المياه ٠٠ الماء هو الحياة فى وسط تلك الصحراء القاحلة ٠

فى طريقنا فى الصحراء خيمة بها فتاة وفتى اخوة ومعزتان ٠٠ جاءت الفتاة تطلب ماء فأوقف عبد اللطيف الجميل السيارة ٠٠ ثم قدم لها

قربة ماء ... وجاء أخوها وحمل القربة ثم حيانا وذهب .. أما الفتاة فقد دعتنا الى فنجان من القهوه ..

الفتاة .. تغطى ثلث وجهها من أسفل .. ثم عيناها .. ناعستان .. ترى ما يدور حولها . كانت الفتاة جميلة .. ذهبنا عبد اللطيف وأنا نشرب القهوه عند الفتاة وأخيها .. جلسنا على الأرض .. بجوار الخيمة من الخيش المرقع .. هذا بيت الفتاة وأخيها .. معزتان وفنجان من القهوة مكسور . ملصق حوافه .. وجراب فيه خبز جاف .. ومطحن للبن . أوقدت النار فى حطب يسير ثم حمصت البن ثم غلته فى وعاء صفيح .. ثم صبت القهوة فى هذا الفنجان المكسور قربت الفنجان من عبد اللطيف وشرب .. ثم قربت الفنجان منى وشربت .

عيناها ترمقنى .. عيناها تروقان لى . قال عبد اللطيف .. ان هذه الفتاة أعجبتك انها جميلة ، اذا شئت عقدنا لك عليها..الليلة ، ثم تعطيها مهرها وتسافر غدا اذا شئت . وكان الكلام جادا من عبد اللطيف .. اتزوجها ليلة واحدة ؟ ثم أعطيها مهرها .. ؟ أجاب عبد اللطيف : اذا شاءت الفتاة .. ثم استدار الى الفتاة .. أيعجبك هذا الشاب المصرى المسلم .. ؟ استدارت الفتاة نحوى ثم نحو عبد اللطيف ، ثم قدمته على.سافرنا وأعطاها جنيهات ذهبية بلا عقد زواج .

سألت عبد اللطيف هل يجوز لنا الزواج ليلة واحدة ؟ أجاب نعم .. سارت بنا السيارة على هدى علامات الطريق التى ترسمها السيارات باطاراتها التى سبقتنا .. كانت السيارة تخطىء ثم ترتد الى العلامات الصحيحة .. ثم بلغنا « النفوذ » .

النفوذ منطقة رملية ناعمة .. اذا أخطأت السيارة وسقطت فى هذه الرمال الناعمة .. لا يمكن انقاذنا الا بعد حين ..

فى الليل وقفت سيارتنا فى ظل خيمة تبيع القهوة والشاى والماء .. حيث تداركنا الصباح .. ثم تحركت السيارة .

ثم انتزع قائد السيارة ألواحا من الصاج من حقيبة السيارة .. ومرت من فوقها حتى تنجلى تلك الرمال الناعمة ..

وصلنا الى الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية .. نزلنا فى بيت « الغانم » . هو صديق وشريك للجميل ..

تجولت فى الرياض وقابلت الأمير « ترك » ولما لم أجد عملا رجعت الى جدة . ثم الى مصر .. خالى الوفاض ..

في مصر عرض على رئيس شركة « شحاتة الهندسية » قبل مشاركته في شركة « هيدروليك أفريك » للبحث عن الماء ‥ « الآبار الارتوازية » — وهذه الشركة بلجيكية فرنسية — أن أزور مرة ثانية المملكة العربية السعودية مع المهندس الفرنسى « كامو » المختص فى البحث عن المياه ‥

تعرفت على المهندس « كامو » فى احدى عمليات ألبير فى الخانكة على بعد ١٨٠ مترا داخل الأرض ‥ لتبريد مصنع الذخيرة ‥ اذ كانوا يظنون أن الماء من هذا البعد يصير أبرد من الماء على سطح الأرض · وقد كان خاطئا ‥

ذهبت أنا «وكامو» الى السعودية وعرفت «كامو» المهندس الفرنسى المختص فى البحث عن المياه على «الجميل» شريكنا فى جدة ‥ وسر الجميل بهذا المهندس الباحث عن المياه فى السعودية ‥ وأوصانى أن أزور وزير المالية « عبد الله السليمانى » فى بيته · فى جدة ‥ هو الذى سيوفر لنا الرحلة الى الرياض لمقابلة ولى العهد « سعود » ·

لقد بذلت جهدا كبيرا لمقابلة الوزير · أخيرا حدد لنا ميعادا فى الساعة السادسة صباحا فى منزله ‥ بعد غد ‥

تقابلت مع وزير المالية عبد الله السليمانى ‥ شيخ فى السبعين من عمره ذى ذكاء نادر : انا جئنا الى المملكة لنبحث عن المياه ومعى مهندس فرنسى مختص بذلك ‥ قال الشيخ عبد الله « ان برميل المياه أغلى من برميل النفط » نأخذ هذا المهندس ونذهب الى الرياض ثم الى الدمام حيث تقابل المهندسين فى شركة الزيت هم يفيدونكم عن الحفر واذا كانوا وجدوا المياه خطأ ‥

ان كامو يغلب على فكره أن الآبار التى حفرتها أرامكو فى الرياض هى آبار اكتشفوا فيها المياه ثم سدوها الى حين ‥ انهم يبحثون عن النفط · قال الشيخ عبد الله ‥ اذا كان هذا الكلام صحيحا ‥ فارحلوا ثم انتم ضيوف المملكة ‥ فى رحلة الى الرياض والظهران ‥

رجعنا الى « الجميل » وقد فرح واستبشر خيرا · فى الصباح جاء مندوب الشيخ عبد الله ومعه تذاكر الطائرة الى الرياض · فى الرياض أرسلونا الى بيت الضيافة ‥ فى الحجرة أسرة مريحة · قال كامو ان هذه الأسرة مريحة عما فى منزله ·

كل واحد أخذ سريره وبدأنا نطالع الجرائد والمجلات · بعد ساعات جعلت الحرارة الكامنة فى هذا الجدار السميك تنتشر فى الغرفة ‥· فتكسبها دفئا ‥ ثم حرارة تأخذ فى الازدياد ، ثم سخونة تنبىء بأن الجحيم سيأتى ‥

كنت أراقب المهندس « كامو » الفرنسى ٠٠ أخذ يتململ من صهد الحرارة ٠٠ ثم انفجر صارخا ٠٠ الى الباب ثم طرح نفسه على أرض السطح ٠٠ متلهفا على نسمة هواء ٠٠ ثم عاد الى الغرفة ٠٠ اقتلع مرتبته من فوق السرير ٠٠ ومددها على سطح المبنى ٠٠٠ يحاول أن ينام ٠٠ وأنا مددت المرتبة بجواره على سطح المبنى لكى يتنفس الليل بنسمة تشعرنا بأننا أحياء ٠

راقبنا الليل ٠٠ وهو ينساب على هذا الجحيم ٠٠ يلطفه قليلا اذا ما انجلى الليل حتى يتنفس الصباح ببعض نسماته ٠

فى آخر الليل ٠٠ نمنا قليلا ٠٠٠ حتى بزغ الفجر ٠٠ وتلطف الجو ٠٠ فقمنا ٠٠ لنزاول نشاطنا ٠٠٠

جاء رسول من عند ولى العهد : سعود بن عبد العزيز ودعانا فى المساء وحدد الساعة ٠٠ وأن السيارة بالســـائق ستصحبنا الى قصر ولى العهـد ٠٠

سألنى « كامو » عن هذه الرسالة ٠٠ فقلت له أننا مدعوون للعشاء فى قصر ولى العهد ٠٠ سعود بن عبد العزيز وان السيارة تأتى فى الساعة المحددة لتصحبنا الى هناك ٠

جاءت السيارة ٠٠٠ ونقلتنا الى قصر من قصور ولى العهد « سعود بن عبد العزيز » ؛ اصطحبنا مندوبه الى ايوان فى الحديقة ٠٠ يجمع عددا من الزوار المرموقين ٠٠ عربا وأجانب ٠

ثم ظهر بعد ذلك ولى العهد سعود ٠٠ حيا الجميع ٠٠ وانتقلنا الى « المائدة » ٠ المائدة ٠٠ كل ما عليها أمريكى ٠٠ بصحونه وكاساته ثم المعالق والشوك ٠٠ بما فيها من كرم العرب ٠ جلست أنا و « كاموه » المهندس الفرنسى فى مقعد مخصص لنا بعد أن جلس ولى العهد سعود فى صدر المائدة ، والحاشية من بعده ٠٠٠

سمعت كلاما من « اخ شقيق من العراق » ٠ كان سبابا فى مصر ٠ كان هذا العراقى « وقد نسيت اسمه » مطرودا من العراق فى ذلك الوقت وفى مصر عبد الناصر ، وولى العهد سعود ٠٠ يبتسم ٠٠ وهو ينصت الى هذا المنافق ٠

كنت أضغط على أعصابى ـ وقد اعترانى الغضب ـ كى لا أرد عليه ٠ وأنا فى وضع لا يسمح بذلك ٠

سألنى كامو ماذا يقول هذا الشخص ٠٠ ولماذا تكدرت من هذا

الكلام ؟ . « إن هذا الشخص يتحدث عن مصر عبد الناصر وهو عراقى » .
واكتفيت بهذا الكلام ..

انفضت المائدة وحيا سعود هذا الحشد وقال انه سمع من قال اننا نبحث عن الماء فى المملكة .. وقد قال لنا :

أن نقطة الماء أفضل من نقطة الزيت . فى هذه المرحلة بالذات .

خرجنا من المأدبة الى السيارة .. أخذتنا الى استراحة الضيوف . هناك استقبلنا « غانم » وقال قابلتم ولى العهد سعود .. فاجبنا بالايجاب . فى الصباح الباكر فى السابعة ستأتى سيارة « جيب » بسائق يعرف الطريق الصحراوى الى « الخرج » حيث الماكينات تدور بالكهرباء تروى الأفدنة من الزراعات المجاورة .. وتعود من الخرج ما يقرب من الساعة الخامسة بعد الظهر والسيارة الجيب مجهزة بقرب الماء .. ثم انها حديثة .. والسائق يعرف الطريق وأنتم ممكن أن تأخذوا زمزميات من الماء البارد ..

ترجمت هذا الكلام الى « كامو » .

قال « كامو » « اننى أعرف هذه المسالك فى الصحراء .. وشربت ماء « ردياتير السيارة » لكى أحتفظ بحياتى .. وأنا لن أذهب الى الخرج .. اذا كنت تريد أن تذهب .. لى رجاء أن تروى ما شاهدته هناك حتى اكتب تقريرى » ..

أجبته « أنا لست بالخبير بآبار المياه وأنت الخبير وانى اصحبك حتى اترجم لك ما يصعب عليك فهمه ، وأنت تستعين بى فى فهم ما تكتب عنه تقريرك عن المياه فى المملكة العربية السعودية ؟ » قال كامو .. انه لن يذهب « واذا كنت أنت لا تذهب فاصرف السيارة الجيب عندما تأتى فى الصباح .. » .

وقال ذلك بحزم ...

قلت « لغانم » انى سأذهب الى الخرج وسأنقل ما أشاهده الى « كامو » حيث أن كامو لايحتمل حر الصحراء وهو يخاف من قلة المياه فى الجيب .. وهو سيكتب تقريرا عن البئر الذى حفرته شركة البترول أرامكو بالقرب من الرياض ثم ردمته حينما لم يكشف عن زيت و « كامو » يعتقد أن فى البئر ماء ..

ذهبنا الى غرف النوم .. حيث قرأنا فى المجلات والصحف الموجودة هناك الى أن تأخر الليل ..

سحبنا المراتب الى السطح ونمنا حتى الصباح ..

جاء الخادم بالافطار .. ثم انبأ الخادم أن السيارة الجيب فى الانتظار .. حييت كامو وتركته لأركب.. وقد حذرنى كامو . واصطحبت معى زمزمية فيها من الماء البارد ما يكفينى فى الذهاب والعودة ..

خرج بنا الجيب أنا والسائق خارج الرياض .. فى طريق متعرج فى صحراء جرداء .. والسائق يتبع العلامات التى رسمتها اطارات السيارات التى سبقتنا على الرمال ..

مرت ثلاث ساعات وأبصارنا فى الطريق تتبع علامات الاطارات .. ثم طالعتنا فى خط المنظور الابعد مساحات خضراء .. كلما قربنا منها تبين منها زراعات وأشجار ونخيل ..

وصلنا الى « الخرج » ...

الخرج كما شاهدتها .. عدة آبار ومضخات تدور بالكهرباء .. ذات أقطار واسعة تطلق الماء على أرض صحراوية .. تخرج منها أشجار ونخيل ومزروعات ومحاصيل عدة . الآبار لا تنضب مياهها ... والمضخات لا تتوقف اذ لها ساعات وأخرى لها ساعات أخرى .. مناوبات ..

حوالى الخامسة من هذا اليوم وصلت بنا الجيب الى الرياض الى استراحة الضيوف .. رأيت « كامو » يكتب فى صفحات عديدة .. ولما رآنى كف عن الكتابة . استمع الى .. حكيت له ما رأيت وما شاهدت وأن الرمال اخضرت .. والمياه تنساب من الآبار الى أرض الصحراء . الأشجار والنخيل والمزروعات تملأ الصحراء بخط أخضر وفى مساحة لابأس بها وقد جاوبنى كامو بأنه كان يعرف هذا من كتيب كان يقرأه .. وهو يتساءل .. هذه المياه تنبعث من تحت الحجر الرملى أم لا ..

سألت « كامو » ماذا يعنى بأن المياه تنبعث من تحت الحجر الرملى ؟ أجاب « كامو » اذا انبعث الماء من تحت الحجر الرملى فهو لا ينقص الا قليلا فى البئر بعد العديد من السنوات .. هو فى مجرى ثابت . واذا كان الماء من أسفل الحجر الجيرى فهو سطحى ينقص بعد سنة أو أكثر .

طلب كامو أن نسافر الى الدمام .. الى الخبر حيث أن شركة « أرامكو » التى تحفر آبار زيت البترول .. ادارتها فى « الخبر » .

قلت للمندوب فى الصباح الباكر اننا نود أن نسافر الى الدمام . قال المندوب أنه سيحجز لنا فى الطيارة التى تطير الى الدمام من بعد غد ... اذا لم يعترض المسئولون على هذا الميعاد .

في الميعاد الذى حدده المندوب ... ركبنا الطائرة الى الدمام ... ونزلنا فى فندق الدمام الذى تشرف عليه البلدية . فندق مكيف الهواء ذو فناء واسع وفى هذا الفناء .. تبلغ الحرارة ٥٢ درجة فى الظل ... وعندما نترك الحجرة الى المطعم .. لابد لنا من أن نعبر الفناء اللعين .. نسير بأقصى سرعة الى المطعم .. مكيف الهواء .. بارد .. يشعرنا بشدة الحرارة فى الفناء .

موظف فى الفندق . شاب لبنانى . كنت استلطف لغته اللبنانية وهو كان يسمع الى لهجتى المصرية ويعجب بها ..

حكى لى هذا الشاب .. أن حرارة الجو فى الظل تبلغ اثنين وخمسين درجة مئوية وهى تبلغ فى الشمس أكثر من سبعين ، وأن فى الفندق رجل يكبره فى السن حكى له أن من تعذيب الرجال أن يربط الرجل من رجليه فى صبة أسمنتية وينزل فى الشمس حتى يموت ..

لم أصدق هذه الحكاية حتى قدم لى الشاب هذا الطاعن فى السن وحكى نفس الحكاية . ثم انى لم أصدق .. !

فى هذا الفندق .. لم نعرف طعم الماء .. الماء مر .. فى المطعم يعطوننا شايا باردا بدلا من الماء ...

وبتنا ليلتين..ثم ذهبنا الى «الخبر» حيث شركة أرامكو للبترول . .. هناك ادار كامو حديثا مع الموظف المختص حول البئر فى الرياض الذى حفروه من بضع سنوات هل اكتشفوا بترولا أو ماء ... وترجمت هذا الحديث الى الانجليزية ... ثم قال الموظف الأمريكانى انهم لم يجدوا زيتا ولا ماء ، ولقد ردمناه ... تشككنا فى هذا الكلام فاذا اكتشف بترولا ولم يكن هذا فى الوقت المناسب للكشف عن البترول ردموه ولو كان الكشف عن الماء ولم يكن هذا فى حساب شركة أرامكو ردموه ... انى ابحث عن هذا فى وقت لاحق .. مع « كامو » .. رجعنا الى الفندق فى الدمام ..

بتنا ليلتنا فى الفنـــدق ، وفى الصـــباح وجدنـــا المنـــدوب فى المطعم وذكرنا له أننـــا نرجو العـودة الى جـده . قال المنـدوب انـه سيستعلم عن الطائرة اذا كان فيها مقعدان خاليان فسنحجزهما لكما .. وفى المساء جاءنا وفى صحبته التذاكر وبتنا ليلتنا فى الغرفة ، وشربنا الشاى البارد بدلا من الماء .

وفى الصـــباح الباكر جاء المندوب ومعه ســـيارة وركبنـــا الى المطـــار ..

ركبنا الطيارة وكان موعد قيامها العاشرة صباحا . ولكن حتى الساعة العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة لم تتحرك الطائرة ونزل قائد الطائرة وهو أمريكى .. وهو ساخط ... ســألته ماذا عطل الطائرة ؟ .. كان جوابه .. أن أميرا قد حجز أماكن على الطائرة وأن الشرطة ستضطر بعض الركاب أن يخلوا مقاعدهم للأمير وحاشيته ..

جاءت الشرطة ومرت علينا ... قلت لكامو اننا لن ننزل ولو كان الأمير ولى العهــد .. مرت علينا الشرطة وابتســمت وأبقينـا فى محلاتنا ..

بعد ساعة حضر قائد الطائرة ... وطار ..

وأخبرنا المضيف فى الطائرة بأن سمو الأمير قد أخر سـفره الى الغد . وسافرت الطائرة بعد خلوها من عشرة ركاب وقد حملوا امتعتهم الى منازلهم ...

ذهبنا الى جده .. وفى الفندق أخذ كامو يكتب تقريرا عما شاهده وما ظنه عن الاحتمالات على وجود المياه فى المملكة العربية الســعودية (وفعلا بعد أن انشقت الشركة البلجيكية . « هيدرليك افريك » عن شركتنا فى مصر أقنع كامو الشركة البلجيكية بالبحث عن المياه ثم اشتركت الشركة البلجيكية مع شريكنا « الجميــل »فى السعوديــة ، وهو عامل مساعد ، ثم أوجدوا المياه فى بعض المناطق .

عدنا الى القاهرة وقدم تقريرا الى مدير شركة شحاته رئيس شركة المقاولات ووعد مدير شركة شحاته بأنه سيدرس الموضوع ...

فخرج كامو من المكتب وهو مكتئب .. اذ أن الشركة لم تعمــل شيئا فى مصر الا حفر ثلاثة آبار فى الخانكة لمصانع الذخيرة وكان على رأسها « صدقى سليمان » ... ثم كتب خطابا للشركة البلجيكية للتحرك الى السعودية ولها أن تنفصل عن مصر ..

وكنت قد تكلمت مع مدير شركة شحاته أنه فى المدينة المنورة يمكن لنا فتح فرع لحفر الآبار وسنربح أرباحا طائلة .. ولكن فؤاد شحاتة تخوف من أن المعدات التى تذهب الى هناك ربما لن تعود .. وقفل باب الربح !

★★★

ذهبنا الى القاهرة وقد خلا منا الوفاض : لا ربح بل خسارة ... لم أعد الى السعودية بعد ذلك ..

كانت عايده زوجتي ... تحثني على أن أترك شركة المقـــاولات لاخوتها المهندسين .. واترك هذا الربح الى ربح أوفر منه ، ذلك أن أعيش مع فن قد اقترب مني ثم من عايده .. وذلك .. « انت عندك ثروة ضخمة تلك الأربعة فدادين في المنيب تزرعهم ، وأنت قانع مع فنك .. والله يرزقنا ... ! » .

ذلك كلام عايده وهو صادق . اني كنت عنيدا وواخت مني سبعة أعوام أشتغل بالمقاولات ولم يدخل جيبي الا معيشتي ..

أعطاني مديرو شركة شحاته ثلاثة مدارس لابنيها للحكومة في ملوى ودير مواس وقيل لي انني سأربح ١٠٪ وسلمت المدارس قبل موعد تسليمها وسبق أن وعدت الحكومة بأن كل أسبوع تسلم قبل الميعاد يعطى ٧٥ جنيها . كان الجنيه جنيها في ذلك الوقت . وربحت أربعة أسابيع في مدرستين ولم أنل منها شيئا . غير شكر الحكومة لي ... « أنا المنفذ » . كنت جادا.. بفكر صائب .. والفكر الصائب يعلو على الخبرة ... وكان الطابق الأرضي يعلو عن الأرض ثم الطابق الثاني والثالث وأنا فرح . بهذا التطور المعماري .. كان المبنى ليس بالقبيح ولكن تطور المبنى كان يفرحني .

المدرسة ذات ثلاث طوابق .. كل طابق يحوى ستة فصول دراسية يضم الفصل ٤٠ تلميذا .. تضم المدرسة حوالى ٧٠٠ تلميذ وربما أزيد، بنيت ثلاثة مدارس تضم ألفين من التلاميذ والتلميذات .. ربما أكثر !

كان هذا العدد ... يفرحني ... من الفكر .. والعقل .. والقلب .. ان هذين الألفين .. سيتعلمون .. !

ان التعليم في مصر ذو أعطاب وسلبيات ... أعطوهم المعلم الصالح .. المثقف .. حتى يكتمل نضـجه اذا لم يكتمل نضـجه كان تعليمه ناقصا وغير صالح اذ يحضرني قول للامام الشافعي ..

« الطبيب الناقص .. لايحسن المعالجة » وأقول أن المعلم الناقص لايحسن التعليم .

انتهى مبنى المدارس الثلاث .. ثم تركت ملوى أنا وزوجتي الى القاهرة .. قالت لي زوجتي ان مقاولة المدارس رابحة .. كم سيعطونك منها ؟

حاولت مع الأشقاء المديرين أصحاب شركة المقاولات وكان ردهم .. سيحسبون الأرباح فيما بعد ، ولم أنل من هذا الربح شيئا ، الا ما كان

يصرف فى المأكل والمشرب ثم السجاير لى ولعايدة والباقى أدبره من الأرض التي أملكها .

فى نهاية بناء المدارس عدنا الى القاهرة .

فى ركن من الحجرة عايده تقرأ فى كتاب فرنسى عن مسرحيات حديثة عابثة . أنا أقرأ وفى مخليتى تلك المسرحيات العابثة التى شاهدتها وأشاهدها فى فن المقاولات .. فن للربح ، وأنا لم أربح مالا .. ولكن الخبرة تكفينى !

فكرت فى كلام عايدة منذ بضعة أيام .. ان الفن هو كل حياتى وأنا أكره حياتى الآن .. حياتى رابحة أم خاسرة ليس ذلك بالمهم .. أربح مالا .. يكفينى أنا وعايده للسفر الى أوروبا والنهل من متاحفها الفنية ..

ان أوروبا تكفينا متاحفها حتى تلقى اقبالا من الفنانين وذوى التذوق ..

ادخرنا مالا من مرتبنا فى السودان . وذهبنا الى ايطاليا . ان متاحفها حقا وافرة باللوحات القيمة فنيا .. فى يادوفا .. جيوتو فى ارينزو فرانشيسكا فى فلورنسا عديد من الفنانين .. ليناردو . رفاييل ــ مايكل انجلو ــ مزانشير .. وهناك فى البندقية .. تشبن العظيم وجورجيون . مزانشيو .. وهنـــاك فى البنـدقية .. تشيان العظيـم وجورجيون . تينتوريتو .. ثم فى الفاتيكان فى روما « سستين تابل » اللوحة المفضلة لمايكل أنجلو وقد ثبت أنه مصور بل فاق تصويره نحته .. « اللوحة .. القيامة » .

ثم سقف السستين شابل .. فى الفاتيكان ..

كـان الرواد فى القرنين التاسـع عشر والعشرين .. أمثال سيزان رنوار وسبراه .. بيكاسو ــ قرنان لبجيه .. وبعض السيرياليين ايف تانجى . والاسبانى العظيم سلفادور دالى ..

ثم ماكس ارنست .. كلهم ذاقوا من التراث فى بيئتهم ثم التراث للانسانية .. القيم فى التراث الأصيل جددت فى تعاقب النفس والأحداث والزمن والثقافة ..

نعم تجددت فى قيم تواكب الزمن والأحداث .. اضافة الى القيم الموروثة .. قيم تسابق الزمن .. الى أعلى .. ثم تنخفض إلى أدنى .. ثم انها قيم جديدة تحوى الغث والسمين نقبلها الى أن تستقيم .. أو تهوى مع الزمن .

ان الفن طريق حياة .. حياة انســـان فنـان .. تهوى القيم الأرفع ..

ان شطحات الفن الحديث فى أوربا ثم فى العالم المتجدد لاتستهوينى الا فيما ندر يحرك فى الفكر والعقل الا القلب تركيبات جمالية تختارها العين والفكر ·· تسر لها العين والفكر وليس لهـا من غطاء من الروح والقلب ·

اننا سنزور أوروبا لكى نرى الفن فى أرقاه وليس فى ادناه شهرا من كل عام ·· هذا يكفى ·

كان هذا ما يدور فى مخيلتى ·· ردا على ما حدثتنى به عايـده من قبل ···

ثم دق جرس التليفون أجابت «حماتى» ثم قالت ان فؤاد ابنها يطلبك أنت يا راتب ·

قال فؤاد شحاته فى التليفون ·· أنت تعرف السودان جيدا قلت له ·· أنا أعرف بعض المناطق ···

انت تعرف البحر الأحمر وبور سودان · قلت انى أعرف البحر الأحمر وبور سودان وسواكن ··· وماذا ·· قال فؤاد ·· بالقرب من بور سودان هناك جزيرة تدعى « سنجاتيب » كذا علمت الاسم من على الخريطة ··· ثم قال تعالى عندى فى المكتب حتى تعلم ما أريد ··

انبأت عايده بحديث فؤاد ·· انها مقاولة فى السودان وأنا المرشح لهذه المقاولة اذا كسبنا عطاءها ·· وقالت عايده ·· لن تذهب ! ··

ذهبت الى فؤاد فى مكتب المقاولات ·· وأطلعنى على ملف فيه خرائط وعطاء لمنارة فى جزيرة سنجاتيب فى البحر الأحمر وتبعد عن بور سودان ما يقرب من ثلاثة كيلو مترات وقال لى فؤاد خذ هذا العطاء ودرسه بما يعن لك ثم أرجعه لى وناقشه معى ومع المهندس حسين مصطفى ·· ولكن أرجح أن هذا العطاء سيكون صعبا تنفيذه على أن الجـزيرة تبعـد عن بور سودان وهذه الجزيرة على رقعة من الأرض لايزيد عرضها وطولها على بضعة أمتار · وعندما تدرس العطاء لابد وأن تضمن الخسائر عند نقل المون من بور سودان الى سنتجاتيب قال فؤاد اعطنى جواز سفرك سآتى بالفيزا فى عرض البحر ، وأن المشرف لابد أن يسكن ببور سودان وينقله الرفاص· ما يمكن عمله فى تلك المنارة فى سنجاتيب اذهب ودقق فى كل مصاريف المون والعمال واللنش واذهب الى ستجاتيب ··

بعد يومين اعطانى جوار سفرى وتذكرة الطائرة ومبلغ مائتى جنيه للمصاريف ·· ثم الطائرة من الخرطوم الى بور سودان وبالعكس « عايده

... أنا ذاهب الى السودان لاعطى تقريرا عن المنارة فى سنجاتيب ثلاثة أيام وأعود اليك » ..

ثم سافرت الى السودان وقابلت بعض مدرسى مدرسة فاروق وحجزت الطائرة الى بور سودان وكانت الطائرة لعشرة أفراد وكان معى محمد محمود وكيل المدرسة فى نفس الطائرة .

وفى بور سودان حجزت غرفة فى فندق البحر الأحمر الحكومى .. ورحت الى الميناء أسأل عن اللنش الذى سيوصلنى الى جزيرة سنجاتيب وهناك فى الميناء قابلنى الأخ بازرعه وقال أنه صاحب اللنش وأنه سيوصلنى الى الجزيرة وعند رجوعى سيعطينى أثمان الرمل والزلط والمون والانفار من باطن العملية .. ان الجزيرة جرداء وفوقها المنارة وبها موظفون يعملون بالورديات وهم كرماء فى حدود معيشتهم ..

وألقيت نظرة على الجزيرة وأن الرمال ممكن أن نستفيد بها وباقى المون من بور سودان .

كان فؤاد يثق بى فى بعض العطاءات وقد جئت بخطاب من سودانى هو الأخ بازرعه يعطى عطاءه فى بعض المون والعمـال ونقلهـا من بور سودان الى سنجاتيب وكان عطاؤه مقبولا فى بعض الأحيان اذ كانت النقود مصرية فى ذلك الحين .

قلبت الملف من الألف الى الياء وحسبت الربح يكفى : الشركة عشرون ألفا وأنا .. عشرة آلاف .. اذا كنت أنا المشرف على التنفيذ .. وضعت الملف داخل درج المكتب وأوصدته بالقفل . وأخذت مفتاحه معى..ورجعت الى البيت وعايده .. أخبرتها بأن العطاء سيعطى ربحا للشركة عشرين ألفا من الجنيهات كما زعمت ــ وأنا ربحى سيكون عشرة آلاف جنيه كما زعمت .

قابلتنى عايده بابتسامة .. « كفى بالنسبة الى المقاولات .. أرجوك أن تبتعد عنها اطلاقا .. » أجبت ان العملية صعبة وأنا كفيل بها ، ولابد لاشرافى على العملية..أن يكون نصيبى فى الربح ربعا فى نصيب الشركة من الربح .. فأنا سأتولى الاشراف على هذه العملية اذا كان فؤاد موافقا على دفع الربع مكتوبا فى عقد بينه وبينى ...

أجابت عايده ... « ان فؤاد لايمكن أن يعطيك ورقة بدين عليه واذا ربحت الشركة لايمكن أن يعطيك مثل هذا المبلغ .. » .

لاتحزن واصرف النظر عن هذه العملية ..

وفي اليوم التالى سألنى فؤاد اذا كنت قد انتهيت من فحص العطاء ٠ تاولته العطاء كاملا بما قدرته من اثمان وقد زادت على اسعار بازرعه ٢٥٪ سوى مصاريف الشركة ٠٠٠ و ١٠٪ ٠

فتصفحه بتأمل ٠٠ انك زدت على أسعار بازرعه ٢٥٪ وهل هذا يكفى ٠٠ ثم نادى على الساعى اذا كان المهندس حسين مصطفى موجودا فليناده ٠ وجاء حسين مصطفى ٠٠ وبعد أن فحص الملف صفحة بصفحة قال : ان راتب أصاب بما زاده على بازرعه على ٢٥٪ ثم ١٠٪ مصاريف الشركة ٠٠!

ولكن هل لك اعتراض يا فؤاد ان العملية خطرة ولابد لنا أن نؤمن الشركة على تلك المخاطر وأننا سنزيد العطاء كله ٢٥٪ فيكون ذلك أمنا من المخاطرة ٠٠ لو كان العطاء سيرسى علينا ٠

لم يعد كلامى نافعا مع صاحب الشركة ٠٠

وعدت الى البيت رويت لعايدة ما حدث ٠٠

وكنا سنذهب الى السينما مع حماتى ٠ ونزلنا الى السينما بجوار البيت ثم تناولنا الصميت أبو سمسم ومعه الجبنة الرومى ٠٠

وكان الفيلم يمر على مر الكرام ٠ وفكرى يشـــغله هذا العطاء الصــعب ٠٠

هذه العملية قد شدتنى بربحها ٠٠ قد يكون هذا الربح ليغير الأحوال ثم نمضى الى الفن فى تؤده وجده ٠٠

***

عشر مجمعات فى الصعيد ٠ فى اسيوط ٠٠ حضرت أنا وحسين مصطفى وقبضنا المقدم ٠٠ وهنا تقدم فؤاد « انك ياراتب خبرة بالمبانى ٠٠ فلك ما يمكنك عمله فى هذه المجمعات وللشركة ١٠٪ من أصل العطاء ولك أنت ما تبقى من الربح ٠٠ وعليك أن تشترى كل اللوازم من العروق والأخشاب التى تكون ملكا لك اذا ما استوفينا حقوقنا ١٠٪ من أصل العطـاء ٠

فى هذه اللحظة جاءت منارة سنجاتيب ورسى عطاؤها علينا وثبت عليها مشرف « شامى » شاب يسمى « عظم » ٠

استمررت فى عملية المجمعات بجدية وفكر حتى أنهيت الجزء الأكبر منها وكان فؤاد يستدعينى فى مشروعاته التى لى خبرة بها ٠

هذا طريق شربين وكان لى الضلع الأكبر فى نجاحه مع زيارة خاطفة

للمناجم والمحاجر وسرعة ايصال التربة الزلطية بالقطار ثم حدث أن اختلف مهندس الحكومة مع المشرف على الطريق ٠٠ أن التربة الزلطية المقصود بها الزلط صافيا ٠٠٠ وبعد أن أبرق لى أن التربة الزلطية ٠٠ هى زلط صاف تركت أسيوط وواجهت المشرف على الطريق « لبيب جرجس » : ان التربة الزلطية موجودة فى العطاء وليس الزلط وقال أن مهندس الحكومة يظن أن التربة الزلطية ٠٠ هى الزلط صافيا وراجعنا العقد ٠٠ التربة الزلطية مكونة من نصف زلط والباقى تربة رملية من المحاجر ثم أن المشرف ، مهندس الحكومة رافض التربة وقابل للزلط ٠

ثم ذهبت الى المحاجر وقلت لهم خففوا من التربة واشحنوا القطار زلطا ٠٠ وبعد اسبوعين ٠٠ جاء مدير الأعمال ليشاهد الطريق ٠٠

ورأى زلطا ليس فيه التربة ٠٠ ان التربة أساس للزلط ليتماسك ٠ تحت الهراس (وابور الزلط) ٠

هذه حكاية فكاهية أرويها وهى صحيحة مائة فى المائة ، مهندس جاهل فى المواصفات لرصف الطريق ٠٠ والمشرف على العملية من الشركة جاهل ٠٠ يرضى المهندس الجاهل والشركة تخسر ألوفا من الجنيهات لهذا الجهــل ٠٠٠ !

★★★

لم أنل منارة سنجاتيب فى السودان ، ثم تسلمت عملية تلك المجمعات فى اســيوط :

ذهبت الى اسيوط فى قطار النوم الذى يصل فى الساعة الواحدة صباحا ونبهت على الفراش أن ينبهنى فى محطة أسيوط ٠

نمت فى الفندق القريب من محطة القطار ٠٠ وفى الصباح سألت صاحب الفندق هلا أجد شقة بالقرب من المحطة ٠٠ ان سفرى سيدوم ٠٠ قال صاحب الفندق ٠٠ اذهب الى العمارة فى صف محطة البنزين واسأل البواب لعلك تجد شقة ٠ العمارة جديدة ولها مصعد٠٠؟ العمارة عمارة الشرق للتأمين ٠

ذهبت الى العمارة كما وصفها لى صاحب الفندق ٠٠ سألت البواب عن شقة فى هذا المبنى ٠٠ قال ٠٠ هناك شقة ٤ غرف فى الدور الرابع ايجارها ١٥ جنيه شهريا وتأمين يدفع ١٥ جنيه ٠٠ فى جانبك ضابط مرور شــاب ٠٠ وفوق شقتك قاض فى المحكمة وكل النــاس هنا فى حالهم ٠٠ !

أيمكن أن أرى الشقة ٠٠ انتفض وقام وفتح المصعد بمفتاح معه ووصلنا الى الدور الرابع ٠٠ الشقة ٠٠ بارحة ٠٠ والتواليت والحمام

لابأس بهما ·· ودفعت الايجار والتأمين وقال البواب في غد تستلم عقد الشقة · واستعلم عن اسمي وعنواني في القاهرة · ثم في الغد استلمت عقد الشقة وسافرت الى القاهرة ·

قابلت عايده ·· ابتسمت ·· بحنو بالغ · هذا الحنو البالغ هو الذي استمرت عليه حياتنا ·· في المر والحلو ··

قلت لها : أنا استأجرت شقة بارحة في أسيوط ولك أن تختاري ما يعن لك من أسرة ومراتب ·· ثم اننا سنشتري فريجيدير وكل ما يلزم هناك ·· في اسيوط ·

كنا قد استأجرنا شقة في القاهرة ملك « فؤاد وألبير » في العمارة التي شيدوها على شارع النيل بجوار كوبري الجلاء ·

ذهبت الى المكتب ·· شركة المقاولات ·· قابلت ألبير وشرحت له ما استأجرته وفي بحر ثلاثة أيام أكون هناك أنا وعايده ·· صاحبني ألبير الى مكتب فؤاد وشرح له ما اخترته من المجمعات : ستة مجمعات في باقور ـ النخيلة ·· الزرابي · دير الجنادلة العقال البحري ثم أولاد الياس ··

واستعرضنا ما يمكن عمله بصدد المهندسين الذين سيعملون معي · وقال فؤاد ·· مهندس مقيم ·· يصلح كمهندس للحكومة معه شهادة من كلية الهندسة ·· هذا ما تشترط الحكومة مع شركة المقاولات ، ثم مدير أعمال هندسية ·· وهو أصلح من مهندس » ·· وذكر اسماء من كان على علم بهم وأنه سيرسل لهم في الحال حتى يحضروا في الغد ··

وفي الغد ·· حضروا : واحد يهودي ـ واحد شامي ـ وواحد يوناني ·· والكل يتكلم العربية · ثم المهندس صديق وهو مسيحي قبطي ··· ثم اني سأقوم بعمل مشرف يفهم البناء والهندسة من تجربتي بملوي التي اشتغلت بها في بناء المدارس ··

ثم أخذت زوجتي ورحلت الى اسيوط ···

اسكنتها الشقة وكل ما ترغبه اشتريته لها من أسيوط ·

وكان عندنا غفير في ادفو وكنت ابني مدارس في ادفو من قبل ، وهذا الغفير ظل معي حتى اسيوط وقال انه طباخ ومرمطون ثم ان الخادم الذي كان معنا في مصر · حضر ·· الطباخ والخادم ·· يخدموننا ··· ثم ان عايدة يمكن أن ترسم وأن تقرأ ··

ذهبت الى البلدية ·· في اسيوط لآخذ الأمر بالبدء ثم ان مدير البلدية ·· تعرف على شركتنا وبعث مدير الأعمال لتوضيح مواقع العمليات

.. ومدير العمل اقترح أن أؤجر مكتبا فى أبوتيج يتوسط العمليات من باقور الى أولاد الياس ففعلنا .

رتبت كل العمليات ووضعت مشرفاً على كـل عملية وعمـالا فنيين وأصبحت اشرف على كل العمليات ٤٠٠ كيلو متر فى اليوم أقطعها بالسيارة . أحضرت سائقا للسيارة واشتريت سيارة جديدة ..

وفى المساء أكون فى المكتب بالشقة .. وهنا يحضر المقاولون من الباطن .. يأخذون حقهم بما عملوا .. فاسهر الليل الى العاشرة مساء .. ثم أتناول غذاء العشاء ثم اتحدث مع عايده .. ثم أنام حتى الفجر ، ثم اصحو وأتناول السندوتشات التى اعدتها عايده من قبل ثم اخرج ومعى السائق لأمر على العمليات كل يأخذ حقه من الاشراف والشـكـوى اذا حدثت ..

وأعود فى المساء ومعى السندويتشات لم أذقها ... ثم تلقفت عايده اللفافة وفتحتها .. وكم عجبت من أن السندويتشات لم تفتح .. ثم صبت لعنتها على المقاولات ...

اشتريت « لوارى » بمائتى جنيه وحولتها من خردة الجيش البريطانى الى لوارى تحمل الزلط والرمل .. بمائة جنيه .. وأجرتها للمقاولين من الباطن .. ثلاثة لوارى ربحت ألفا وخمسمائة جنيه فى سنة . وهذا خلاف المقاولة . انها ملكى أنا وبعد السنة احتاجوا للوريات من أجل شارع فى شربين .. بعثت اليهم باثنين ولم يأتوا بربح فى شهرين .. ثم بعثت .. برقية الى فؤاد أن يعيد لى اللوريين مع السائق .. وبعد شـهر جاءت اللوارى ...

هذا كل ما ربحت من تلك العملية .. اشتريت سيارة جديدة بمبلغ ١٢٠٠ جنيه ثم تلك اللوارى الثلاثة ...

ومرت الأيام والمجمعات تكتمل .. والنقود التى تصل من القاهرة قليلة .. كنت أتحدث تليفونيا مع صاحب الشركة .. العمليات تحتاج الى كذا وكذا فكانت الاجابة .. فى الغد ابعث اليك بالنقود .. وفى الغد .. يصل الى الربع .. كنت أبيع العروق والأخشاب التى انتهى عملها فى احدى المجمعات وأسد الفرق بما وصلنى من النقود ..

الأخ الأصغر لصاحب الشركة قد توفى اثر مرض طويل .. الأخ الأصغر كان الصخرة التى لا يفلت منها مال لا تستفيد منه الشركة . وبعد الوفاة .. كان المال يفقد فى بطون مقاولى الباطن .. وأن أحدهم ضيع على الشركة آلافا فى حفر ترعة ذات تربة صماء وكان صاحب الشركة

يضع خطابات ضمان لعملية الترعة .. اذا ذهبت عملية الترعة . ذهب خطاب الضمان بآلاف الجنيهات .. وقد صرف على الترعة ما يوازى خطاب الضمان .

منارة سنجاتيب .. خسرت .. وطريق شربين خسر لكن صاحب الشركة ضامن للمقاول من الباطن فى طريق شربين .. حيث أنه كسب فى طريق الصعيد .. مالا كثيرا .. والناس تتغير .

منارة سنجاتيب .. تكسب أربعين ألف جنيه كما حسبتها ولكنها فى الواقع قد خسرت آلافا من الجنيهات .

صاحب الشركة .. مهندس رائع ..

تعلمت منه كثيرا فى فن المقاولات .. تعلمت منه فن العطاءات ..

تعلمت منه .. الدوران فى الفكر لحل المشكلات .

واذ مات الأخ الأصغر الذى لا ينفق أى مال لا يستفيد منه العمل فى الشركة . أخذ المال ينفق فى أعمال لا طائل منها .. ولم يجرؤ على ايقاف هذه الأعمال ربما بسبب خطاب الضمان ..

الشركة .. على وشك الافلاس اشترينا اسهما فى الشركة باسم زوجتى عايده شحاته بحوالى ٣٠٠٠ ثلاثة آلاف جنيه .. من باقى مدخرات السودان . وتحويشة العمر .. ذهبت مع افلاس الشركة .

ذهب صاحب الشركة الى باريس .. ومن هناك ذهب الى الكويت.. حيث أن عملية كبيرة باسم الشركة فى مصر حولها باسمه ... ولكنه كان أكثر اضرارا من افلاس الشركة ..

ثم رجع الى مصر .. أنه سيعود الى الكويت ثم باريس فلم يبق الا أنا .. فى تحمل العبء كله .. قال صاحب الشركة فؤاد انى أوكل لك فى الشهر العقارى توكيلا كى تقبض ايجار العمارتين ، وأن تعطى لزوجة أخى مبلغا معينا فى الشهر وفى الصيف أن تعطى ثلاثة أضعاف هذا المبلغ ...

فعلا عمل توكيلا باسمى .. واشترطت عليه مرتبا شهريا ٢٠٠ جنيه ... ووافق .. ثم سافر الى باريس ثم الكويت ..

انفضت الشركة وأعلن افلاسها .. ولم يبق الا ايراد العمارتين ١٦٠٠ جنيه شهريا .. كنت استلم الايجار وأدفع ما يلزم وكانا يحوزان كمبيالات .. لابد من سدادها للبنك ..

مللت الحديث عن المقاولات ، والربح المفترض والذى لم يأت بعد ·

انسحبت من هذا المجال ·· وقررت فى ١٩٥٨ ·· أن أعود للفن فى بيتنا فى المنيب ·· حجزت فى الدور الأرضى استوديو للنحت وفى الدور الثانى جهزت استوديو للتصوير ··

وانسحبت من الشقة من شارع البحر الأعظم أمام كبرى الجلاء ، ونقلت منقولاتى للبيت الصغير فى المنيب ـ وجهزته بالموسيقى الرفيعة ·· ثم نقلت عدة كتل من الأحجار الى استوديو النحت ·· وما أن هل الشهر التالى الا وقد نحتت عايده رأسا من الحجر ·· كانت مصداقا لكفاءتها فى نحت الحجر ·· كان أزميل طويل مدبب ·· تنقر به الصخر نقطة بعد نقطة يزيح الحبب من الصخر ، حتى يظهر الوجه بسمات أصيلة ومحببة·· حكيمة جليلة ·· بين فن الفراعين ·· وسمات ما بين النهرين ··

كنت أتابع دقاتها ·· تتحسس قليلا ·· دقاتها تسرع ·· ثم تهدأ ودقاتها تأخذ مجرى ضيقا ·· وذلك طبقا للمنطق : ترفع الشوائب حيث تظهر الحقيقة ··

كان هذا الرأس ـ وهو لفتاة ـ مفتاح لفكر وقلب عايده للنحت · بعد هذا الرأس لم تنحت الا فى الحجر ·· وفى الحجر ·· أتمت ثمانية عشر قطعة نحتية · خلال عشرين عاما حتى مماتها ···

اسعفتنى عايده ·· غيرة ·· من هذا الرأس ·

صعدت الى مرسم التصوير ·· لم يكن عندى الا القلم الرصاص والورق ··

الموسيقار ·· « جريج » له لحن : رقص الأرواح الطيبة ثم رقص الأرواح الشريرة ··· رقص الأرواح الطيبة كانت تهز فى نفسى مشاعر رقيقة كنت اتبعها من بداية اللحن الى انتهائه ·· مرات عديدة ·

ان فكرى التصق بهذه الموسيقى ·· فكرت أن أصوغ هذا اللحن بتصويره فى لوحة ··· هل هذا ممكن ؟ ···

اننى انقل « القيمة » كما تلقيتها من هذه الموسيقى الى الرسم وذلك ممكن ··· القيم الكلية ·· فى الموسيقى ·· تنقل الى الرسم فى قيم تشكيلية ·· وهـذا مـا عـانيته ·· القيم التشـكيلية تعـادل القيم الموسيقية ··· !

فى الأمس ١٩٨٣/٩/١٣ زرت مع ريموند « **Raymondé** » **مثقفة** تشكيلية فى متحف (بوبور) الذى أمر بتشييده «بومبيدو» رئيس فرنسا والمتحف رائع من الداخل ومن الخارج له أعداء ·

صالة «فرناند ليجيه» : صورة مبهجة ‥ لفنان قدير « ليجيه » ٠
على صدر شخص من رسومه ستة خطوط من الأحمر ذات سمك ، منتشرة على ذلك الشخص تزين صدره ‥ تنتظم في صوره ذات قيم من الموسيقى الرفيعة ‥ تنبع ‥ من قيم تشكيلية قيمة تبهج القلب ‥

في مصر كنت أعرف زملاء في الفن التشكيلي ‥ يرسمون خطوطا طولية وعرضية ومحورية ‥ تعبر عن الموسيقى التي يسمونها « الآن » ولكن شتان بين هذه التفاهة ‥ وعن القيم الموسيقية التي ينقلها ‥ فرناند ليجيه ‥

الموسيقى ‥ قيم ‥ ولابد لنا من قيم تشكيلية تعادل القيمة الموسيقى لبتهوفن ‥ السمفونية السادسة ‥ « باستورال » ‥ الريفية ‥

حكاية ركب ‥ يرتحلون في اطمئنان ‥‥ ثم تهب عليهم زوبعة ‥ أمطار ‥ رعد وبرق ‥ بل صواعق ‥ ثم ترتحل عنهم تلك الزوبعة ‥ والناس يركعون ويصلون لله شكرا ‥ بتهوفن وصل الى المعادل الموسيقى ‥

بين الفنون التشكيلية ‥ الأدب والشعر والموسيقى جذور مشتركة ‥

لابد من معادل أدبي للموسيقى والفن التشكيلي ٠

لابد من معادل تشكيلي ‥ للموسيقى ثم الأدب والشعر ٠

لابد من معادل موسيقى لفن التشكيل ثم الأدب والشعر ٠

ان الفكر والقلب الواعي للفنان ‥ يلقى في مسيرته ذلك المعادل ‥ اذا كان ذلك ذا أثر في فن ذلك الفنان ٠

ان « فرناند ليجيه » جسد في فنه التشكيلي المعادل للموسيقى والشعر بأروع معانيه ‥ في لوحته التي رأيتها لأول مرة في « بوبور » بالأمس ٠

ان فحلا من فحول الموسيقى ‥ كاد ‥ أن يعبر بالموسيقى عن الكلام الانساني ـ في بعض أعماله الأوبرالية ‥‥ فشل ‥‥ ولكنه خلق ذلك الاوركسترا الرائع في موسيقاه ‥ « فاجنر » ٠

في الصفحات السابقة ‥ كنت أعاني في ايجاد المعادل لموسيقى « جريج » الأرواح الطيبة ‥‥ وأمسكت بالقلم الرصاص ‥ وعلى ورق بمساحات أكبر مما كنت أستعمله ‥ رسمت الأرواح الطيبة ‥ « لجريج »

هذه اللوحة لم أعرضها الا لزوجتي عايده ٠٠ وفي هذه السنة ١٩٨٣ وبعد مرور ٢٥ سنة على بدايتها كنت ٠٠ أرحب بها واستلطفها ٠٠٠ كانت معبرة عن الأرواح الطيبة ٠

سأجد اطارا لهذه اللوحة عندما أعود من باريس ٠

***

في سـنة ١٩٥٨ ٠ سمعت من رمسيس يونان عن نادى « أتلييه القاهرة » وانه أصبح عضوا فيه ، عندما استقال من الاذاعة العربية في فرنسا ورجع الى مصر ١٩٥٦ ٠ ثم زرت هذا الأتلييه للفنانين والكتاب ٠٠ مع رمسيس ٠٠ وهناك تعرفت على راغب عياد ورحب بي أن أكون عضوا هناك ٠ وكان راغب عياد يشرف على مرسم في الأتلييه يضم بضعة من الأعضاء وغير الأعضاء يرسمون « الموديل » وأشياء أخرى وهناك حوامل وكراسي ٠٠ معدة للأعضاء الرسامين ٠

وهؤلاء الفنانون يدفع كل منهم في الشهر جنيهين لأجر « الموديل » ٠٠ وكان راغب عياد يمر أثناء الرسم يومين في الاسبوع ٠

التحقت بأتلييه القاهرة واشتركت في المرسم وأخـذت جانبا في المرسم اختار من الموديل ما أشاء ٠ ورسمت كروكيات عديدة هناك ٠

كانت عايدة معي في « أتلييه القاهرة » عندما التحقنا به كعضوين كنا نساير ونتحدث مع بعض الأعضاء الفنانين ٠٠ كانوا من الأجانب والمصريين الذين يتحدثون بالفرنسية ٠

وكانت من المميزات في النادي٠٠المرسم ويشرف عليه راغب عياد ثم في الصيف ٠٠ النادى يستضيف عضوا من المركز الألماني ٠٠ وهذا العضو ٠٠ مثقف ٠٠ وكان يجلب معه شرائط السينما ١٦ مللي والآله التي تعرض هذا الفيلم ٠٠ فيكون عرضا سينمائيا ممتازا ٠٠ أفلام تسجيلية ٠ وكنا كنا نأتي بأفلام من كندا واسبانيا ٠

كانت جلسة في السينما التسجيلية ٠٠ من الفن والعلم ٠٠٠ كان ذلك من الأسباب التي خضمناها في هذا الأتلييه ٠

ولكن كان هناك أعضاء شغوفون باللهو٠٠ عندما يحضرون الى النادى لهم في لهوهم أمور نستهجنها انا وعايدة ورمسيس ولويس عوض ٠٠ وغير هؤلاء من الأعضاء المثقفين ٠٠ الذين يحترمون الغير ٠٠

كنا نترك الصالة فى الدور الارضى وندخل الصالة الأخرى المجاورة لها .. وكنا على صلة بالثقافة نناقش أمورا تهم فنوننا وثقافتنا ... فى عزلة عن هذا الصخب فى الصالة الأولى : فيها « البار » والخمر .. والصخب شديد والأغنية التى يلهون بها هى « يامصطفى يامصطفى » وكانت اغنية بالعربية داخلها سطور بالفرنسية .

وكان الرقص حول هذه الأغنية .. وعندما بلغهم أننا ننعزل عنهم فى مناقشاتنا الجادة .. كان أحدهم أو اثنان أو ثلاثة يقذفوننا بالطوب من شباك بين الصالتين .. ليرغمونا على فض هذا الجمع الجاد .... ولم يفلحوا . وقد فكرت فى أن أتصدى لهم ولكن الزملاء أجمعوا على أنه بالصمود لهذه التفاهه .. يبعدونهم عن مثل ذلك ..

ولقد كف هؤلاء الغوغاء عن رمى الطوب عندما تكلم العقلاء منهم حتى يلزموا العقل فى تلك اللعبة التى اذا ما زادت قد تكون وبالا على الرامين. وقد سمعت أحدهم يقول « الطوب كثير فى الحديقة واذا لزم الأمر هم فى حل أن يرموا الطوب على أم رأسنا .

كف الطوب .. ثم بدأ الرقص .. واذا هم يحولون هذا الرقص الى الحلبة فى اسبانيا لموت الثور .. واحد منهم ... ثور ... والباقى يهاجمونه ... والثور لا يموت .. الا بالويسكى ..

هذا ما حدث فعلا أرويه ببساطة اذ كنت مأزوما من هذه الأفعال فى ناد ثقافى يعمل لخدمة الأعضاء ثقافيا ... الأعضاء العقلاء يبتعدون عن اللهو الجارح للآدمية ....

منذ تلك الليلة فى « اتلييه القاهرة » .. كنت افكر فى انقلاب فى تلك المرحلة المهينة للثقافة والمهينة للانسانية .

فى المنزل كنا نستعرض مع عايدة حالة النادى وماذا يمكن عمله الآن ... اننا أشخاص معدودون .. وهم على كثرتهم تافهون . هم يملكون زمام الأمر .. وأعضاء مجلس الادارة ثلثهم من الأجانب والباقى ممن يتكلمون الفرنسية .. ولا يهتمون الا بثبات مراكزهم فى مجلس الادارة فى كل سنة . فى الجمعية العمومية لايستبدل أى عضو من مجلس الادارة الا اذا أراد الرئيس أبو بكر خيرت أن يدخل عضوا آخر فى المجلس .. والرئيس .. عنده توكيل من ١٧ عضوا فى النادى من الأجانب الذين لهم صلة بالرئيس فى الموسيقى .. اذ أن أبا بكر خيرت مهندس معمارى ، ثم انه مؤلف سيمفونيات وقصيد صيمفونى. وهو قابض على سبعة عشر توكيلا ويمكن أن يخرج عضوا أو يدخل عضوا بهذه التوكيلات .

في ليلة من ليالي السهرات في النادي تكاتفنا أنا ورمسيس يونان ولويس عوض وقررنا أن نرشح أنفسنا لمجلس الادارة ٠٠ وفعلا رشحنا أنفسنا في اليوم الأخير في الأسبوع الثاني من مدة الترشيح ٠٠٠

وقد حصلنا على ٣ أصوات من ٣٠ صوتا هي أصواتنا نحن ٠

وقد رسبنا والكل من أعضاء المجلس الناخبين يسألون لماذا رشحتم أنفسكم ٠٠ هكذا ٠٠٠ ؟

* * *

« المنيب » ٠٠٠ ذهبنا الى الحقل ٠٠ انها ميراث من والدتنا عن أبيها الحاج عثمان راتب منيب ٠٠ اختي وأنا وأخي ٠٠ ستة أفدنة الا قليلا ٠٠ (اشتريت نصيب اختي منذ سنوات سابقة) ٠

أخي أنور طبيب بيطري ٠٠ وهو زارع ماهر وقد أصاب في زراعته للأفدنة الستة رزقا طيبا ٠٠ ولما جئت الى هذا الحقل قلت لأخي ٠٠ أود أن أزرع هذه الأرض باشجار المانجو ٠٠ انها تمنعك عن زراعة الأرض بالطماطم والعديد من الخضر ٠٠ فقط أنك لن تزرع القصب مرة أخرى ٠٠ « كان زارعا للقصب » لأن القصب سيهلك شتلات المانجو ٠ ثم أنا بسأولى الأرض بالسماد والرى ٠٠

اقتنع أخي ٠٠ ثم ذهبت الى أحد أبناء عمومتنا المحامي والزارع وصائد الطيور حسن جلال يزرع عشرة أفدنة بالمانجو فنصحني ان اتوجه الى قسم البساتين ٠٠ لأحجز خمسمائة شتلة قبل نهاية أغسطس ٠٠ ثم انى سأتسلمها في فبراير ومارس ٠ ورأى أن الأصناف التي يطيب زرعها في الجيزة هي قلب الطور ـ جابلور ـ الفوس ـ جولك ـ عويسى ٠٠٠!

ذهبت الى مصلحة البساتين في الجيزة ٠٠ وطلبت الخمسمائة شتلة حسب الاصناف التي أملاها على حسن جلال ٠٠

ثم ان الموظف المختص طلب مني ايصال المال والضرائب على مساحة الأرض المنزرعة في المنيب ٠٠ ثم قال ان الأصناف المطلوبة بعضها في قها ٠٠ وبعضها في الهرم ٠٠ وأخذت العناوين وايصالا بالمطلوب ٠٠

في فبراير ٠٠ طلبت تليفونيا المزرعة في قها ٠٠ فقال الموظف ان الشتلة ستكون حاضرة بعد اسـبوع ثم قال في يوم كذا تأتي بلورى وتأخذها ٠ وبعد أسبوع نقلت شتلة المانجو من مزرعة قها ومزرعة الهرم ٠٠ الى حيث الحديقة في المنيب ٠٠

بعد اسبوع انتهت « البرك » في أرض الحديقة بعمق ٥٠ سم وتركنا سبعة أمتار بين الواحدة والأخرى وزرعنا الشتلة ٠٠ ثم ان الفلاحين شقوا

خطوطا طولية ـ قنوات فى الحديقة ـ ليروى منها الزرع مع استقلاله عن بقية ارض الحديقة ٠ أنا وعايدة باشرنا تلك الحديقة ورتبنا الوقاية من البرد ومن الحر ٠ من البرد نلقى بحزمه من البوص شمالا من الشتلة حتى نحجز الهواء البارد والصقيع ٠ وفى الصيف تعكس حزمة البوص جنوبا لنحمى الشتلة من الشمس والحر ٠٠ بين الفصول كنا أنا وزوجتى نحمى الشتلة من التراب ٠ كنا نغسل الورق بأيدينا وكنا سعيدين لانشاء هذه الحديقة ٠٠

وكبرت الشتلة وأصبحت شجرة ثم اثمرت وأخى يزرع أرض الحديقة بين الشتلة وأشجار المانجو وهو يأخذ ثمار الطماطم والخص والخضار ونحن ننتظر ثمار المانجو ٠٠

★★★

فى الصباح تخلد عايده الى الحجرات ثم الى المطبخ ٠ وآنا أرسم على الورق ٠٠ لحين أن آتى بنتيجة ثم ارتحل الى اللون على القماش ٠ ولكن لا يأتى هذا الارتحال !

فى العصر ٠٠ أذهب أنا وعايده الى الحديقة ٠٠ ثم نرى الأرض قد تغيرت وان حزم البوص تناثرت على الأرض ثم لابد لنا من أن نكشف عن البوص لكى تتنفس شتلة المانجو ٠

فى المساء ٠٠ نكون فى « اتليبه القاهرة » فى بعض الأيام عندما تكون « الموديل » موجودة فى المرسم ٠ ثم تنعقد جلسة من الرفاق ٠٠ رمسيس يونان ٠ فؤاد كامل ٠٠ وانور كامل ولويس عوض وأنا وعايده ٠٠ ثم يأتى من المثقفين من يعن له أن ينضم الى مجموعتنا ٠٠ نقاش فى الفن ٠٠ فى الأدب وفى السياسة ٠٠٠ مجلس ادارة الاتليبه ٠٠

كنا نريد حريتنا من هذه الطغمة اللاهية ٠٠ !

فى نهاية السهرة ٠٠ تناولنا وضع أعضاء مجلس الادارة هناك اثنا عشر عضوا ٠٠ من الذين يمكن أن نسقطهم من مجلس الادارة فى الجمعية العمومية المقبلة ٠٠ هناك رأى من رمسيس ومن لويس عوض وحتى أنا ٠٠ أنه لا يمكن أن نسقط أحدا من مجلس الادارة حتى نستطيع أن نبطل التوكيلات الشفوية والمكتوبة من بعض الأعضاء والمزورة باسم البعض الآخر ٠ والتزمنا أن نفصح فى الجمعية العمومية عن أن التوكيلات لابد أن توثق فى الشهر العقارى ٠٠ والا فلا يؤخذ بهذه التوكيلات ٠

وفى الجمعية العمومية التالية ٠٠ رشحت نفسى ثم لويس عوض ورمسيس وكنت أنا متحمسا ضد هذه التوكيلات ٠٠

استأذنت من الرئيس أبي بكر خيرت ·· وقلت التوكيلات لا تؤخذ بما هي عليه اذا لم تشهر في الشهر العقاري حتى نستجيب لها جميعا · استهجن بعض الأعضاء هذا التصريح مني أنا ولزم الصمت معظم الأعضاء · ·قال أبو بكر خيرت ان هذا الرأي سيبحث في مجلس الادارة وأن هذا الاقتراح لم يوضع في جدول الجمعية العمومية قبل هذا بنحو اسبوعين كما كتبناه قبل شهر ·· كل اقتراح لابد أن يكتب قبل اسبوعين في جدول الجمعية العمومية ··

لم آخذ من الأصوات الا من رمسيس يونان ولويس عوض وهم لم يأخذوا أصواتا الا ثلاثة أصوات ·

كانت احدى السيدات الأجنبيات تجلس بجواري وسألتني أنت مرشح ·· فقلت نعم ·· ثم انها صوتت في صالحي · ان الأربعة أصوات التي أخذتها في هذه الجمعية كانت مثارا للاتهام بالخيانة من رمسيس ولويس عوض ··

ثم ماذا ؟ كل أعضاء المجلس فازوا بالمقاعد مرة ثانية ··

في حديقة اتلييه القاهرة ·· كنت أنا وعايده مع رمسيس يونان وزوجته « بونكا » ·· جالسين حول طاولة ·· كنا نتحدث ··

ومرت فتاة ايطالية ابنة « دلبورجو » مهندس طلياني يهودي ·· هذه الفتاة كانت توزع « لوتريه » على من يطلبها لنيل زجاجة ويسكي ·· وقفت بجانب الطاولة ·· تريد توزيع التذاكر ·· عايدة طلبت تذكرة فيها رقم ٧ ·· وظلت الفتاة تنتقي من التذاكر ما فيها رقم ٧ · كان حسن مظهر (سفير سابق في الحبشة) يتابع هذه الفتاة ·· وقد مر عليه تطهير في الخارجية ·

نظر هذا السفير الى الفتاة وطلب منها الذهاب فورا الى طاولة أخرى · قالت عايده ·· بغضب : « أن هذا الذي حدث أمر غير مؤدب » ·· ثم عاد السفير ونظر الى عايده بحقد : « أنا غير مؤدب » ؟ وقمت أنا ·· « أنت غير مؤدب وأنا سأضربك بالحذاء ··· أنت وغيرك من السكارى وغير المهذبين » ·

فوقف هنيهة ولما رأى انني جاد ·· أسرع خارج الحديقة ·

انتهت السهرة وأنا غاضب ·· ولم آت الى الاتلييه بعض أيام ··· ثم ان رمسيس قابلني وأفهمني أن ١٢ عضوا اتهموني بأني عاكست ابنة دلبورجو ··· ولما قلت لهم انه جالس مع زوجته فلا يمكن أن يعاكس امرأة

أخرى وأنه يعرف أن راتب لا يمكن أن يعاكس فتاة أخرى ولو كانت زوجته ليست معه ·· !

وأن السفير ساكن فى نفس البيت مع رمسيس ، ورمسيس اتهم السفير بأنه يلقى الكلام على زوجة رمسيس واشتكت له منه ··

السفير ذهب الى البيت وأحضر مسدسا ·· وشرب الوسكى ليسكر ·· وبعد أن سكر جاء الى رمسيس ليقتله ·· وفر رمسيس من امامه · السفير سكران وفى يده مسدس ·· وقام الأعضاء ليحولوا بين السفير ورمسيس هكذا قال رمسيس ·· !

مضى أسبوع على هذا الحادث ثم حادثة رمسيس ·· وكنا فى عرض سينمائى فى حديقة الاتلييه ·· كانت عايده تزور اختها ·· ثم جاء أبو بكر خيرت واختار كرسيا بجانبى وحيانى ·· وقدم لى كأسا من الويسكى جاء به « النادل » ···

وقال لى أنت فنان ·· تحب الفن الرفيع ·· وأنت تحب الموسيقى ·· نعم ·· اذا كنت تحب الموسيقى أرجو أن تحضر الى مكتبى فى عمارة مجاورة للاتلييه ·· ولقد تسمع من مؤلفاتى بعضها ···

ولم يشر الى الشكوى التى دسها لى ١٢ عضوا فى الأتيلييه ··

فى هذه الآونة ·· هدأت الحال ·· وقد كان العنف الذى ساد الموقف مع السفير كفيل بأن نحتفظ بحقوقنا فى هذا النادى ·· وأن نجلس فى أى مكان وأن نتحدث فى أى جمع···ولا رقص خليع ولا «موت الطور» ولا يقذف أحد الطوب على رؤوسنا ···

وبعد بضعة أسابيع سأل عنى أبو بكر خيرت وذهبت أنا وفؤاد كامل الى مكتبه ·· فاسمعنا من مؤلفاته وحكى لنا ما كان منه عندما يتوقف فى نغم ·· ثم يندفع مرتلا اياه ·· ثم قال فى آخر الجلسة ·· انه سيساعدنى فى أن أحصل على مقعد فى مجلس الادارة عندما يحل وقت الانتخاب ···

فى المرسم فى أتلييه القاهرة ·· كنت أرسم النموذج « الموديل » الفتاة العارية من زوايا عديدة ··· ولما كنت احتفظ بهذه الكروكيات ·· كانت تساعدنى فى لوحاتى ···

★ ★ ★

وفى المنيب ·· أتأمل هذه التخطيطات ·· لأخلق شيئا آخر منها ·· حتى ينسجم مع ما اختاره من رسوم للمرأة العارية : كانت المرأة العارية تملأ نفسى بفرحة ·· لا تدوم الا اذا اتممت رسمها ··

المرأة ·· تطغى على ··

في خمسة عشر لوحة كانت المرأة والطفل ·· تشبع نفسي من بين لوحاتي ·· وفي آخر لوحة من هذه الخمسة عشر رسمت المرأة ·· المرأة لاغير تسعين مرة بدون أطفال النساء التسعون ·· يبحثن عن السلام ··

في مرسم المنيب ·· الفنان رفعت أحمد زكي « موديلا » جميلة في الثامنة عشرة ·· احضرها لي في المرسم · هذه الفتاة اسمها ابتسام ··· جسد رشيق مكتمل الأنوثة ·· نهد بارز وسيقان سوية تدب فيها الحياة مع اكتمال الشكل ، رقيقة في وقفتها ·· قوية في جلستها ·· مستبشرة في جلوسها أمام فنان · أما في رقادها فهي تملأ جفونها ثم تنام حقا · هذه الفتاة ·· « ابتسام » كانت معلمتي في الدرس للمرأة العارية··في شهور عدة··تأتي مرتين في الأسبوع · العاريات في لوحاتي كانت من وحي هذه الفتاة ·

سنة ١٩٥٩ · استعملت بعض الكروكيات التي رسمتها من الموديل ·· ابتسام ·· كونت فيها تكوينا من النساء العاريات في منظر من النخيل والأشجار ·· بالألوان الزيتية ·

وقد جرى هذا بسهولة ويسر ·· تحضير الأشخاص كان تاما بالقلم الرصاص ·· الأشخاص ذوو تعبير ملزم من الفنان ·· المنظر ·· كان تافها ·· احترمت الأشخاص في هذا المنظر التافه ·· الأشخاص أقوى وأعنف منه · تخلصت من هذا المنظر سوى سمائه··والأشخاص هم كل شيء ·· والمنظر ·· متسع بضم هؤلاء الأشخاص والدراما ·· هي كل الأشخاص ·· مجتمعة أو متفرقة ·· تكللها سماء ·· هذه السماء تعطيها قوة وعنفا ··

مجمل لوحاتي خصوصا « مركب السلام » كانت الأشخاص تملأ اللوحة كاملة ··· انى أخاف من الفراغ ··

***

أعود الى اتلييه القاهرة ·· وقد حلت الانتخابات في هذه السنة ١٩٦٠ ــ رشحت نفسي ·· ولم يرشح ·· رمسيس ولويس عوض نفسيهما ·· خوفا من فضيحة كل سنة ··

بعد العنف الذي حدث في الاتلييه مع السفير ·· واللقاء الودي مع الرئيس أبي بكر خيرت ··· قام بعض الأعضاء ــ الذين مالوا الى التغيير في أعضاء مجلس الادارة ·· وليس حبا في شخصي ــ باعطائي أصواتهم ·· !

فى هـذه الجلسة مى انعقـاد الجمعية العمومية لاقرار الميزانية تم ترشيح الأعضاء القدامى والجدد ‥ اذ أن ثلث أعضاء مجلس الادارة ـ وهو اثنا عشر عضوا ـ أى أربعة أعضاء ستسقط عضويتهم بعد أن كانوا أعضاء لمدة ٣ سنوات ، والأعضاء القدامى الذين سقطت عضويتهم لهم الحق فى ترشيح أنفسهم ‥

فى ذلك اليوم قال لى أبو بكر خيرت انه سيساعدنى فى الانتخاب ‥ وله من توكيلات الأعضاء الأجانب الموسيقيين : ١٧ سبعة عشر توكيلا ‥ ثم ان بعض الأعضاء فى النادى يزورون التوكيلات ‥ ولا ضابط لهذا التزوير ٠ ان كل عضو فى النادى يدعى أن له احترام ‥ ولا يجوز أن يتهم بالتزوير واذا اتهمنا أحد الأعضاء ‥ سيرد العضو الذى باسمه التوكيل أن التوكيل صحيح ‥ كلهم ذوو مصالح متوازنة وأنا سأعاقب ‥ بتهمة كاذبة ‥

انعقدت الجمعية العمومية العادية ‥ بحضور خمسين عضوا ‥ وهذا أكثر من الضعف عما كان فى العام الماضى ‥

نلت واحدا وأربعين صوتا وفزت على « بقطر » وله من الأصوات ‥ أربعون ٠

فزت بصوت واحد ‥ ودخلت مجلس الادارة ٠ وكان الساعد الأكبر هو أبو بكر خيرت ٠

فى أول لقاء مع مجلس الادارة ‥ انتخب رئيسا ‥ أبو بكر خيرت ٠ وسكرتيرا صدقى الجباخانجى وأمينا للصندوق « شفتر » وكلهم مصريون ‥ ثم عرضوها على راغب عياد وقد اختار منها ما يريده وأضاف اليها قيل « انى شاب طموح وأن المعارض سيئة » ٠ ثم عاد من ايطاليا راغب عياد ‥ وفى هذا اللقاء الشهرى بلغه أن راتب صديق هو المقرر للجنة المعارض ‥

مجلس الادارة ‥ قرر أن أخرج أنا وراغب عياد من غرفة المجلس حتى يتشاوروا ٠ من الذى سيتولى هذه اللجنة فقلت للمجلس ٠ ان راغب عياد أحق منى فى هذه السنة ‥ وخرجت وخرج راغب عياد ‥ ثم تداول من فى المجلس ‥ وقرروا أن راغب عياد هو الأولى بهذه السنة ‥ ثم ان راتب صديق يتولى العام القادم ‥

كنت قد قدمت قائمة ببعض المعارض للشباب والشيوخ حسبة جادة ثم عرضوها على راغب عياد وقد اختار منها ما يريد وأضـــاف اليهـا ما يشين هذه القاعة ٠

ميزانية اتلييه القاهرة ·· مفلسة ·· انقطعت الكهرباء ·· الايجار لم يسدد ·· رواتب الفراشين والموظف الكفؤ محمـــد خيرى لم تعط لهم ·· أبى بكر خيرت عندما علم من أمين الصندوق ما حدث ·· عقد جلسـة لمجلس الادارة · وأمين الصندوق « شفتر » قام بالمهمة ·· وقد عرض أبو بكر خيرت أن يتبرع الأعضاء بعشرة جنيهات لانقاذ ما يمكن انقاذه وقد تبرعت أنا بخمسة جنيهات ·

فى الغد سدد أمين الصندوق شفتر الفراشـين والموظف وجـاءت الكهرباء ···

قبل حادث انقطاع الكهرباء ·· قام شفتر أمين الصندوق بالاستعداد لعمل حفلات ثلاثية ·· ليلة كريستماس ·· ليلة رأس السنة الميلادية ·· ليلة ميلاد المسيح عند الأقباط ·

كثير من الأعضاء اشتركوا فى الحفلات الثلاثية ودفعوا الاشتراك ثلاثة جنيهات ··

ازدانت صـــالات أتلييه القـاهرة ببالونات وشرائط وأوراق ملونة للزينة ·· الخ ···

وطلب من مطعم الجمال ــ وهى ادارة لبنانية ــ عشاء لخمسين فردا ·· واشترى ديكا روميا واحدا لهذا الجيش الحافل ···

جلب عمال مطعم الجمال الطعام فى سـيارة ·· وكذلك فى حفل رأس السنة الميلادية ··

وعندما بدأت الموسيقى الراقصة ·· راق لبعض المدعوين الرقص ·· واذا بالشجار يأتى من المطبخ : السفرجى مع فراش الاتلييه واذا بالصحون تتكسر ·· ودفع الأتلييه تعويضا عن الصحون المكسرة ··

الحفل الثالث مولد المسيح ٧ يناير ·· قل عدد المدعوين عما كان فى الحفل السابق وانتهت الحفلات الثلاث بخسارة فادحة ·

اقترحت على المجلس أن نزيد من أجر صالات العرض وأن نوفر واحدا من الفراشين ·· اذ أن « المترودوتيل » يجىء فى السهرة لابسا جاكتة بيضاء على بنطلون أسود ويربط بابيونا على ياقة قميصه ·· ليسقى الويسكى ·· ثم الشاى والقهوة ·

هذا منظر مريح وكان النظام المتبع مهذبا · ولولا قلة المال لاسترحت مع هـذا النادل ·· هو هادىء الطبع وينظم عمله ولكنهم وفروه رغم اعتراضى ··

زدنا ثمن تأجير صالات العرض وطلبنا من الأعضاء الاشتراكات المتراكمة منذ بضع سنوات .

فأتت بمال يسمح للأتلييه أن يمر من هذه الصعاب المالية .. الى حين ..

***

زرت حامد سعيد .. كان الحديث عن مشروع تفرغ الفنانين والكتاب والموسيقيين .. لفنهم .. وأن هذا التفرغ كان قد سبق للفنانين التشكيليين .. ولم ينجح .. هذا ما قاله لى حامد سعيد ..

وأنه كتب للوزير ثروت عكاشة عن هذا المشروع وقد رحب به ..

ان هذا المشروع يقتضى أن من يحوز منحة التفرغ لابد أن يكون متميزا فى فنه .. وأن التفرغ .. صعب .. هذا ما قاله لى حامد سعيد .. لوح بكلمة .. « صعب » .. لى أنا ! ..

فى النهاية ودعته ثم ذهبت الى المنيب حيث عايده .. وأعدت حديث حامد عن التفرغ .. « صعب .. وهو للمتازين فى الفن » .

ثم استنتجت أنهم لست منهم .. ولكنى سأتقدم بترشيحى . ثم لما تبينت أن المشروع سيبت فيه ادرجت اسمى فى الكشف باسم محمد راتب صديق ..

ذكرت اسمى الكامل حتى يحار فيه «الفنان» العظيم محمود سعيد. رفضت من أول الأمر .. فكتبت خطابا لمحمود سعيد وان اسمى بالكشف هو محمد راتب صديق .. جاء الرد : سافر محمود سعيد من الاسكندرية الى القاهرة ثم فحص الكشف : راتب صديق .. هو محمد راتب صديق .. وهذا اللبس جاء فى كلمة محمد .. التى تعداها محمود سعيد .. وذكر لى هذا فيما بعد . تكلم محمود سعيد ممتدحا أعمالى فى حضور اللجنة .. قال حامد سعيد أن محمود سعيد قال ما يكفى لقبولك فى التفرغ وقد قبلت ..

أنها مرحلة صعبة .. الكل فى ابداع .. لابد لى أن اتفرغ تماما لممارسة الفن .. طالت مرحلة تدريس الفن فى مدارس ثانوية الى ثمانى سنوات مع النذر اليسير من الجهد لممارسة الفن .. ثم ٦ ست سنوات أو أكثر فى المجهود الصعب فى محاولة الربح واحراز المال .. فى المقاولات ..

أربعة عشر عاما ولم اتم الا عددا من اللوحات ·· ربما ثلاثة أو أكثر ·· وكلها من أثر ما درسته من قبل ··

هذا التفرغ ·· ربما أجد نفسي · فيه كفنان ·

***

وجدت عايده ·· تقطع بأزميل حاد ·· صخرا · ان يد وذراع عايدة ·· لا يمكن أن تتحمل هذا المجهود الشاق · كنت أتململ من هذه الحال ·· ان عايده تشعر بالفخر كي تصيب الصخر بالفكر ·· ان المجهود الشاق ·· قد يرى النور بعد لأى···هذا تمثال فلاحة من الحجم الكبير·· تقف في كبرياء والطرحة تنسدل على رأسها ·· تبرز الوجه ·· في رزانة وحكمة أهل الريف في مصر ·

مسرور أنا أتأمل تلك الصخرة الصماء وهي تنطق في يد عايدة بالجلال المصوب بالحكم ··

انبأت عايده عن قبولى في التفرغ ·· فرحت ·· ثم اننا نتزامل في الجهد للابداع ··

ثم ذكرت لها ·· أن التفرغ أعطى لخمسة من المتازين ثلاثة مصورين : تحية حليم ورمسيس يونان وراتب صديق واثنين من النحاتين : آدم حنين ومحى الدين طاهر ··

والتفرغ مدة سنة ثم يجدد سنة أخرى عندما تجد اللجنة امتيازا في المجهود ···

التفرغ ·· للفن والابداع ·· هو كل ما يحبه الفنان ··· اذا كان يحميه من وظائف لكسب العيش ·· ولو بأجر ضئيل ··

هو أفضل من الوقت الذى يبذله وراء الكسب من أجل الحياة ·

توفى أبو بكر خيرت ثالث رئيس للاتلييه بعد أول رئيس ومؤسس أتلييه القاهرة محمد ناجي وثاني رئيس كونت زغيب ·

تحرك كل الأعضاء من مجلس الادارة ·· الذين تتقدم مراكزهم عن باقى الأعضاء ، بالسن ·· بالثروة · بالجاه من وظائفهم الممتازة · كان جل الأعضاء يتوددون لباقى أعضاء مجلس الادارة ·· بطريقة غير مناسبة لمراكزهم الممتازة بل أخص بالذات ذلك السير الذى أجرى معى مشاجرة حتى أننى هددته بالضرب بالحذاء · كان يتودد الى بصفتي عضوا في مجلس الادارة ···

جال بفكرى خاطر ·· جمعت كل الأصدقاء من أعضاء الاتلييه الفنانين والمثقفين ·· وألقيت ما فى جعبتى من آراء ··

بلغت الأعضاء فى مجلس الادارة ·· أن انتخاب الرئيس يؤجل الى المجلس الآتى وخصوصا أن المجلس ينقص خمسة أعضاء ثم ان أبا بكر خيرت قد توفى · ولا يكفى أن ينتخب رئيس جديد من الستة الباقين ووافق الأعضاء الخمسة على رأيى ··

أبلغت للاصـــدقاء الأعضـــاء فى الاتلييه بما حدث فى مجلس الادارة ··

كان يوسف العفيفى · يعلم ما كنت أراه : أن يدخل منا ستة أعضاء فى المجلس المقبل ··· واذا فشلت ·· كان من الممكن أن يدخل بعض الأصدقاء من المثقفين والفنانين الجادين ·

لم يرشح الأستاذ العفيفى نفسه ·· واخترنا من الفنانين والمثقفين ستة أعضاء ·· رشحوا أنفسهم ·· وقد نجحوا · وخمسة آخرون قد فشلوا ··· ولم أكن أرغب فى أن يفشل راغب عياد ·· ولكن الأغلبية نستعين بها على الاقلال من التفاهات ؟

الأعضاء الجدد : لويس عوض · فؤاد كامل · أنور كامل ثم منير كنعان وفتحى البكرى والسادس كما أظن هو صلاح عبد الصبور · ثم جاء من المجلس القديم · صدقى الجباخنجى · على الديب · حسن مصطفى · وغاب الباقى ···

قال لى فؤاد كامل انهم اختارونى كرئيس ·· وأن لويس عوض يأمل فى أن يكون رئيسا ·· اختار الأعضاء راتب صديق ، ومانع لويس عوض وعرض التأجيل للتفكير فى الأمر ــ الى يوم يحدد لذلك ، ولكن قانون النادى ينص على ان لابد أن يختار رئيس النادى ثم الوكيل ثم السكرتير وأمين الصندوق فى اليوم الأول لانتخابات النادى فطبقنا القانون · ونادى بعض الأعضاء أن مؤسس الأتيليه هو فنان تشكيلى محمد ناجى ·· ثم أبو بكر خيرت مهندس معمارى ·· ولابد للرئيس أن يكون من دنيا الفن التشـكيلى ··

***

قالت لى عايده قبل انتخابات الرياسة ·· لابد لك من الرياسة ·· ومن الذى يمنعك من ذلك ·· ولكنى كنت أرشح على الديب وهو أكبر سنا وهو مدير ادارة الفنون الجميلة ·· وأعلمته بذلك فرفض وقال انه يرشح صديقه « حسن مصطفى » لا أذكر الاسم بالضبط · ولكن هذا

الشخص مهندس زراعــة وليس للفن منه شيء ٠٠ لما رفضت مصطفى لانه ليس فنانا ورفض على الديب أن يكون رئيسا ٠ وافقت أنا حتى يكون تجاوبا مع أمانى عايده ٠٠ وترشيحات أعضاء مجلس الادارة ٠

استقال ٠٠ لويس عوض ٠٠ واســتقال باقى الأعضــاء القدامى ولم استطع استكمال باقى الأعضاء ٠٠

فى اليوم التالى جاءنى الموظف المختص بالحسابات وهو منتدب من وظيفته الأصلية ٠٠ محمد صبرى ٠٠ رحمه الله رحمة واسعة ٠٠٠ جاءنى بالقانون الأساسى وهو يخط خطا أحمرا على بند من بنود القانون ٠٠

« يجوز لمجلس الادارة أن يختار من بين أعضاء الاتلييه من يصلح لعضوية مجلس ادارة على أن يعرض على الجمعية العمومية العادية لاختياره أو عدم اختياره للمدة اللاحقة » ٠

هذا البند ٠٠ جعلنا نختار من بين الأعضاء المثقفين والفنانين من يستفد منه مجلس الادارة ٠ كان يوسف العفيفى منهم ٠

وفى الجمعية العمومية العادية رسخنا ســتة أعضاء وهم الذين اخترناهم من أعضاء الاتلييه ٠٠ ثلاثة نجحوا وثلاثة انتخبهم أعضاء الاتلييه ٠٠ ثم أصبح المجلس كاملا ٠٠ !

١٩٦٠ بدأ تفرغى للتصوير ٠ بعد سنين طويلة من انعدام التصوير على «القماش» بالألوان الزيتية ٠ ولقد جاهدت نفسى أن أسبق الزمن فيما فقدته طوال هذه السنين من التصوير بالألوان ٠٠ سطـرت على قماش تبلغ مساحته ١٣٠ × ١٥٠ سـم لوحة : سليمان وبلقيس فى خلفية اللوحة شدتنى العمارة فى قبوات القصور القديمة بالأعمـدة ٠٠ شمال اللوحة ٠٠ سليمان بجلاله ينتظر بلقيس ٠ بلقيس تدخل اللوحة وهى تشمر عن ساقها ثوبها حتى لا يبتل ٠٠ صور سليمان أرض القاعة بأنه بحر تموج فيه المياه ويسبح فيه السمك ٠٠ لتخدع فيه بلقيس حتى تشمر عن ساقيها ٠٠ حتى يستمتع بجمالها ٠٠ هكذا تحكى القصة ٠ وكانت هذه اللوحة ٠٠

« القوقعة » ٠٠ نظام تام ونغم ملىء بقوانين الطبيعة الهندسية ٠٠ الأزلية فى النمــاء ٠٠ تلك القوانين يتــلائم موقفى أن أفهمها من تلك القوقعة ٠

رسمت القوقعة ٠ رسمت طبيعة صامة ٠٠ فاشلة ٠٠٠

ثم عدت الى القوقع ٠٠ قوقعة بها أشواك فى نظام هندسى بديــع

ذى لفات حلزونية ذات حزم تقوى بها الأشواك فى نظام ، وفى خلفيتها ورقة نبات أصابها الجفاف ولم يتم بعد تمـــاما ، القوقع والورقة ٠٠ حوار ٠ ملء بالقوة ٠٠ والفورم ٠٠٠

النحت ٠٠ والرسم بالقلم ٠ له كل اليوم ٠ النهار والليل ٠٠ ليكون واضحا لعين النحات والرسام والمتلقى ٠

فى نور النهار ـ في رأيي ٠٠ تظهر الألوان واضحة ٠٠ وأن النهار هو للتصوير ذى الألوان المختلفة٠٠هو ذاك للمصور٠ان النهار هو الوقت الذى أرسم فيه مع سماع الموسيقى الرفيعة ٠ عايدة فى المطبخ٠٠تعالج ما نأكل ٠٠٠ ثم تعالج « رأس التمثال » ٠ فى وقت فراغها ٠ وفى الليل يكون هذا مجالا لعايده فى النحت ٠٠ أنا أقرأ ٠ اسمع الموسيقى ٠ أنزلت سماعة الموسيقى فى استوديو النحت لعايدة تستمع اليها ٠

فى المساء اخطط للصورة التى اعددت لها القماش اخذت لها كروكيات لم استشير عايدة فيما أخذت ولكن عايدة ٠٠ كانت قاسية على ٠ وأنا سجلت لها تعليقا على الكروكيات واللوحة ٠٠ على مسجل ٠٠ فهى قاسية ٠ وأنها تضحك على قسوتها ٠٠٠ ولكنى كنت أحب تلك القسوة ٠٠ لها رأى سليم قد اسلم به ٠٠

ان عايدة شريكة حياتي وفني واخلاصي للفن والحياة ، عندما أفشل فى لوحة ٠٠ تشجعنى ٠ عندما انجح فى لوحة تقول أن ذلك النجاح ٠٠ يشجع لنجاح أكبر ٠٠

وأنك ستتفوق على هذا النجاح ٠٠ ! كن صبورا ٠

ان عايدة تثق فى شخصى وكفاءتى فى الفن٠٠كما انها تحبنى ٠٠ أنا أثق فيها لشخصها وكفايتها فى الفن كما انى أحبها ٠٠

ان موهبتها للنحت ٠٠ كنت أبحث عنها فى البداية قبل أن تنحت ٠٠٠ فى الوقت الحالى ٠٠ « ان عايده من أحسن المثالين فى مصر » تلك التماثيل التى نحتتها على قلتها تؤمن أن النحت ٠٠ موهبتها ٠٠

الا أن تمثال « الأمومة » وهو آخر تمثال لعايدة اشتغلت به نحتا ما يقرب من سنتين أو أكثر ٠

ان « الأمومة » تشكل خطوة هامة فى النحت ٠٠ هو العظمة والجلال والحكمة ٠٠ وانا أؤكد أن هذا التمثال بعد « محمود مختار » يعد من أفضل المنحوتات لفنانين نحاتين ممتازين ٠٠٠

عندما أتعب من معاناة لوحة ما ·· أنزل لمرسم النحت · كلما أثنيت على « الامومة » عبر نحتها ·· ابتسمت عايده ولم تعقب · انها تعي انني محب لذاتها وأن الثناء على هذا التمثال ·· هو من محب ·· انها كانت لا تجهل أني أعرف ما في نحتها من عيب أو من فضل ولكنها ·· تأمل ان يأتي المديح من الخارج ·· ان « تمثـال الأمومة » رائع بالنسبة لكافة التماثيل التي نحتتها عايده ··

جاء حامد سعيد ·· رأى التمثال ·· قد شغف به وقال ان التمثال أحسن مما حققته عايده وأنه أحسن مما ··· ؟ ولم يكمل حديثه ·

أشاد بالتمثال ·· وشرح ان التمثال من النيل الى بين النهرين · استقى نحتيته وجلاله وعظمته ·

بعد ان انصرف حامد سعيد قالت عايده ·· صادق انت يا راتب عن هذا التمثال · ان قلبي وعقلي قد ارتاح له ·· صدق قولك من محب لشخصي · وان ما سمعته من حامد سعيد قد ارتاح له فكري من محب للفن ··

حامد سعيد قال أحسن مما ·· ! ولم يكمل حديثه · ماذا يعني يا راتب ·· لم أرغب في ان أسأله · !

***

سبقتني «الأمومة» في حكمتها في نحت عايدة ·· وها أنا ذا أرفق الأمومة بدراما مأساوية · في معظم لوحاتي ·· وعنوانهـــا « في موكب السلام » ·· المأساة ·· حكمه ··· !

القتيلة الأولى ·· حمل قابيل جثة هابيل فوق ظهره ·· ودار بها في الخلاء ليلقيها ·· رأى غرابا يدفن غرابته في حفرة ·· ثم ردم عليهـــا بتراب ·· تعلم قابيل أن يدفن جريمته النكراء ليستحوذ على أخته ·· كي ينجب أطفالا ··

المسيح في « عشائه الأخير » ·· بغير تلاميذه ·· وحيدا يتأمل مصيره الموعود وقد سطر في دخيلته ·· ظاهرا ·· تلك الصلبان الثلاثة التي تكاملت مع الأبواب الثلاثة ·· في خلفيةالعمل الأكواب ··مليئة بالنبيذ ··· ومن ذا الذي يشربها ؟ والشمعات الثلاث تضيء له السموات وهو يرفع اليها ·

« الذبيح اسماعيل » ·· قد استسلم للمشيئة الكبرى ·· السكينة

فى يد ابراهيم أبيه .. المشيئة الكبرى تمنعه .. كى تعيش أمة كبرى من بعده ..

« آدم » وقد دبت الحياة فى نصفه العلوى .. يتأمل نصفه السفلى .. يتخلق من طـــين ليعتبر .. ويعرف قدر نفســـه .. ولكن هل عرف .. ؟

« موسى » .. وحيد يكلم الله .. قد هجره قومه ليعبدوا صنما من الذهب .

« ابراهيم يحطم الأصنام » .. ولكن الأصنام قد كثرت وعلت فى عالمنا هذا ..

ولم تكن الأهمية الأولى للقصة أو الموضوع بقدر ما كانت للتشكيل والقيم الجمالية . للايحاء والرمز . وصور وخطرات من التاريخ والتراث الانسانى . نحسها عن وعى . جســـدها الخيال وحققها الفكر . نفذت البصيرة الى لطائفها ورمـــوزها ، فكانت وصـــارت وقد حفرت فى نفسى الأخاديد .

طال الحديث عن الفن .. عرجت عايده على الحديقة .. التى لم تثمر شتلات المانجو التى غرسناها ـ حتى الآن .

سألتنى عايده كم من السنين تمر على هذه الشتلات .. ؟ انها فى الثالثة من عمرها .. ولما تبلغ الخامسة يمكن أن تبشر ببعض المانجو .. ولما تبلغ العشر سنوات تأتى ثمارها بوفرة وعندما تبلغ العشرين تأتى ثمارها كما ينبغى أن تكون فى أتمها . يثمر شجر المانجو وافرا .. ثم بعد عام تقل ثمارها أو تنعدم .. ويقال عندئذ عن شجر المانجو .. أنها «تقاوم» أى تعود «للاثمار» ـ اذا توالت الخدمات والسباخ والرى والعزيق لازالة الحشائش .. كان ذلك أولى للشجر أن يثمر كل عام ..

هذا ما انقله عن قريبى زارع المانجو .. الأستاذ حسن جلال .. وهذا ما حققناه أنا وعايده فى خدمة أشجار المانجو ..

فى السنة الخامسة .. ملأنا مائدة بالمانجو من كل صنف حلو .. أكلنا .. وشبعنا من المانجو من حديقتنا .. وكانت فرحتنا عندما تقطف من الشجرة عنقودا من المانجو .. ناضجة .. حلوة

وفى العام العاشر .. أعطتنا الحديقة من ثمارها ما كنا نحتاج اليه من المال .. تكفى حاجتنا اليه فى حياتنا العادية ..

بعد الثمار الحلوة من المانجو .. تعرضت عايده الى أتلييه القاهرة وما جد فيه من تحسينات .. الأعضاء من المصريين فنانون وكتاب ..

غير ما ستمح لهم من الأجانب الممتازين ·· كأعضاء ، وليس لهم الحق فى عضوية مجلس الادارة ·· كما نص عليه القانون ·

كذا من السيدات من تطوعن للمشاركة فى تجميل قاعة المعارض يكسونها بقماش جديد ·· ونقلت ماكينة الخياطة من منزلى للاتيلييه وتطوع هؤلاء السيدات بخياطة الأجزاء بعضها ببعض وتعليقها على الحوائط ·· وقام الفنانون بتسميرها ·· بمسامير غائرة · لكى لا تظهر ثم قام بالدهان متطوعا بالمصاريف عضو آخر من الفنانين وقام عضو ثان بالمصاريف لقشط الأرضية الخشب ودهانها بالبلاستيك ·· واستطاع الاتلييه بمصاريف من خزينته أن يغير القاعة ·· بشكل جيد ·· يليق بصالة عرض ·

رفعنا الايجار ·· كى يجازى ما أنفقناه ·

وهذه السنة ·· قمنا بعرض اثنين وثلاثين معرضا لفنانين مختلفين فى القاعة العليا وفى القاعة السفلى ··

ان دخل المعارض يقوم بسداد النصيب الأوفر من ميزانية الاتلييه ··

يحقق الانسان انسانية الثقافة · الثقافة هى الوعى بالقيم ·

الجذور التى تجمع الفنون : الفن التشكيلى الموسيقى ـ الأدب الشعر ·· هى جذور مشتركة بين الثقافات ·· والقيم : المساحة ـ اللون ـ النغم هى ايقاعات تحسب بالوجدان ، بالقلب والعقل معا ··

الموسيقى فى الشعر ميزان حساس ·· الاوبرات ·· حدوتة موسيقية الكلم والموسيقى ·· معادل للأوبرا ··

« فاجنر » الذى قارب أن ينطق بالكلام بمعادل موسيقى · السيمفونية الريفية ·· السادسة ·· لبيتهوفن ·· قصة درامية :

حكاية « الركب » الذى واكبته العاصفة : الرعد والمطر · ثم صفا الجو وانقطع المطر ·· وذهب الركب ليصلى ·· حكاية وصفها بيتهوفن بمعادل من الموسيقى ··

الفن التشكيلى دراما وتراجيديا الانسان والكون ، محسوب ايقاعاتها بالرياضيات والموسيقى ·

أحب أن أذكر بعض أسماء الذين شاركوا فى تجديد الاتلييه واحالته لمركز ثقافى بعروضه وندواته ·· ثم السينما · والموسيقى ··

أذكر بعض الأسـماء وليس كلهم ·· ان الفنانين والمثقفين الذين شاركوا فى هذا التجديد ·· كل الأعضاء الجادين من غير أولئك اللامبالين بالثقافة ··

من بين السيدات المثقفات اللاتى ساهمن فى تحضير الاتلييه وتجديده ·· تحيه حليم ·· جاذبيه سرى ·· عايده شحاته ·· ملك عبد العزيز ثناء البيلى ·· انجى أفلاطون ثم من الأعضاء الجديدات ·· فتحية العسال ·· وأخريات ·

ومن بين الساده ·· فؤاد كامل ·· أنور كامل ·· فتحى البكرى صفوت عثمان سعد نديم · عز الدين نجيب · صالح رضا ـ محسن حسين ومن بين الأعضاء المستحدثين ·· مدحت الجيار ·· كمال خليفة حسن غنيم ·· رضا عبد السلام · وجيه وهبه ·· طلعت رضوان ··

تطور الاتلييه ·· ثم بانت رحلته الثقافية فى يد الفنانين والكتاب فى الموسيقى ·· السينما ·· والأدب ·· الفن ·

***

كما نظمت محاضرات فى كافة فروع العلوم الانسانية بالاضافة الى ندوات الأدب مثل علم النفس والفلسفة والتاريخ والموسيقى والفن التشكيلى وغيرها ونشاط المعارض وذلك لزيادة الآفاق الثقافية للأعضاء والوافدين لأن الثقافة فى النهاية وحدة واحدة · وكانت تدار مناقشات خصبة بعد كل محاضرة ·

ومن هذا المنطلق رغبنا فى أن يأخذ أتلييه القاهرة نحوا من هذه الجذور المشتركة بين الفنانين التشكيليين والشعراء والموسيقيين · ثم بين جمهرة الأعضاء وغير الأعضاء من المتلقين ·· كان هذا ·· بداية ··

بهذه المناسبة ·· جاءنا من الفنانين المعاصرين نقلا عن الأديب والشاعر الراحل عبد الرحمن صدقى ·· أن اسم أتلييه القاهرة كان « المصـباح المستور » ··

كنت أتمنى أن يظل هذا الاسم ·· لاتلييه القاهرة · ان اتلييه القاهرة يسير الآن بخطوات وئيدة ·· نحو مستقبل ملىء بالثقافة فى كل صورها ·· ولا أظنه سيتوقف ··

***

وهأنا أقدم لكم البرنامج الثقافى « للاتلييه » عن شهر ديسمبر سنة ١٩٩٢ كنموذج للنشاط الثقافى الذى يعده على مدار العام ··

اتيليه القاهـــرة :

جماعة الفنانين والكتـــاب

برنامج شهر ديسمبر ١٩٩٢

يتشرف الاتيليه بدعوة سيادتكم لحضور المعارض والندوات والبرامج الثقافية الآتية :

١ ـ **لجنة الفنون التشكيلية :** قاعة محمد ناجى

الفنان صفوت عباس من ١١/٢٦ الى ١٢/٨ + قاعة الشباب

الفنان محمد نبيه عثمان من ١٢/١٠ الى ١٢/١٦ + قاعة الشباب

الفنان سعيد أبوريه من ١٢/١٧ الى ١٩٩٢/١٢/٣٠

جاليرى ٧٧ الفنان فتحى عفيفى من ١١/٢٨ الى ١٢/١٠ .

الفنان محمد فتحى أبو النجا من ١٢/١٢ الى ١٢/١٨

الفنان عمر جهان من ١٢/٢٠ الى ١٢/٢٦

الفنانة راندا شعث من ١٢/٢٨ الى ١٩٩٣/١/٩

قاعة الشباب الفنان ياسر كمال من ١٢/١٠ الى ١٢/٢٢

مواعيد قاعات العرض من ١٠ الى ١ صباحا ومن ٥ : ٩ مساء

٢ ـ **اللجنة الأدبية (لقاء الثلاثاء)** من السابعة مساء

الثلاثاء ١٢/١ لقاء مع الاربعائيون يدير الندوة د٠ مدحت الجيار

الثلاثاء ١٢/٨ مجموعة وشم الشمس للكاتبة اعتدال عثمان مناقشة أ ٠ مجدى توفيق ـ د٠ رضوى عاشور

الثلاثاء ١٢/١٥ مجموعة العشق أوله القوى للكاتب ابراهيم فهمى يناقشه أ٠ اعتدال عثمان ـ أ٠ ابراهيم فتحى

الثلاثاء ١٢/٢٢ مناقشة رواية انكسار الروح للأستاذ محمد المنسى قنـــديل

الثلاثاء ١٢/٢٩ لقاء مع الشاعر الجديد خالد السنديونى يناقشـــه أ· وليد الخشاب ــ أ· أحمد مجاهد

٣ ــ اللجنة الثقافية (لقاء الجمعة الثقافى) :

الجمعة ١٢/١١ مناقشة كتـــاب التراث النقدى للدكتور / جابر عصـــفور

الجمعة ١٢/١٨ محاضرة للدكتور / ماهر شفيق فريد عن حاضر النقد الأدبى

٤ ــ لجنة السينما والموسيقى والمكتبة :

(أ) **المكتبة** يومى الجمعة والسبت من كل اسبوع من الخامسة الى التاسعة مساء وقد ورد الى المكتبة مجموعة كبيرة من أحدث الاصدارات العربية والأجنبية مع القسم الثقافى لسفارة فرنســـا والمؤسسة الثقافية السويسرية بروهلفســـيا وأعضـــاء الاتيليه فلهم كل الشـــكر والتقـــدير ·

(ب) **نادى السينما** الأحد من كل اسبوع من السادسة مساء ولن يسمح بالدخول بعد بدء العرض ·

الأحد ١٢/٦ عرض الفيلم الروائى الفرنسى تزوجت خيالا اخراج روبين ديفز ترجمة عربية ألوان

الأحد ١٢/١٣ عرض الفيلم الروائى الألمانى القلعة اخراج فيرهارت فيكى ترجمة عربية ألوان

الأحد ١٢/٢٠ عرض الفيلم الروائى الفرنسى المغامرات الأربع لرينيت وميرابيل اخراج ايريك رومير

الأحد ١٢/٢٧ عرض الفيلم الروائى الفرنسى الرغبة الغامضة اخراج لويس بنويل

(جـ) **نادى الفيديو :** الأربعاء من كل أسبوع من السادسة مساء للأعضاء فقـــط :

الأربعاء ١٢/٢ عرض لفيلم فرنسى عن الفنون التشـكيلية (تحت

اللوحات فوق اللوحات + الفيلم الروائى الأمريكى صمت الحملان (الفيلم حائز على ٦ جوائز أوسكار) ٠

الأربعاء ١٢/٩ عرض فيلم أليس فى بلاد العجائب فرنسى + فيلم مزرعة الحيوان لجورج داريل

الأربعاء ١٢/١٦ عرض فيلم بعضهم طار فوق عش الوقواق + الفيلم الفرنسى العالم الأخير لمارينسياد اخراج آلان رينيه الأفلام مترجمة الى اللغة العربية

الأربعاء ١٢/٢٣ عرض الفيلم الأمريكى لورانس العرب بطولة بيتر اوتول ـ عمر الشريف اخراج دافيد لين

الأربعاء ١٢/٣٠ عرض الفيلم الروائى الأمريكى سقوط الامبراطورية الرومانية صوفيا لورين عمر الشريف ٠

(د) **الموسيقى :** الاثنين من كل اسبوع من السادسة مساء

الاثنين ١٢/٧ مع الموسيقى العربية سهرة من اعداد الفنان الموسيقى نبيل عبد الحميد يدير اللقاء أ٠ كمال خليفة

اثنين ١٢/١٤ باليه بحيرة البجع بيتر تشايكوفسكى

الاثنين ١٢/٢١ افتتاحيات أوبرا فاجنر

الاثنين ١٢/٢٨ الفصول الأربعة فيفالدى

للاستفسار تليفون ٥٧٤٦٧٣٠ من ١٠ : ١ صباحا ومن ٥ : ١١ مســاء ٠

اتيليــه القاهــرة

« البيت البحرى »

بيت من بيوت عائلة المنيب ·· تملكه أخت جدى·· أفراد العائلة كانوا يطلقون عليها « الست البحرية » · سيدة فى الخامسة والسبعين من عمرها ·· والت كرمتين زرعا حتى تتسلقا الى سطح الدار وتغطيا السطح فى مربعات من الخشب البغدادلى ·· حتى تحمل الثمار من العنب المتدلى من بين الفراغات ··

كانت صاحبة الدار ·· تعلم ما فى مذاق العنب الجيد من حلو فأمرت بأن تطرح عليه شبكا تغطيه من شر هذه الطيور والعصافير التى تأخذ طريقها الى هذه الكرمة تمتص من رحيق العنب ·· حلوها ·

كنت اسكن فوق هذا السطح فى غرفة منعزلة عن الدار ·· وأحاول الرسم بألوان الزيت للمرة الثالثة ·· واحدة فى لندن ·· وأخرى فى باريس والثالثة فى المنيب وعندما أفرغ من محاولتى ·· أغادر القرية لأستمتع بتلك الحقول الخضراء الممتدة الى حافة النظر ·· والتمتع برؤية عناقيد العنب تهتز من نضجها فوقها ورق أخضر ·· أن الشباك تحميها من الطير ·· ولكن العصافير لدقة حجمها كانت تدخل من بين انفراج فى عيون الشبكة ·· تمتص رحيق العنب المتدلى ··

راقبت ذلك بعينى··ثم راقبت ذلك بعين خيالى··استعادها الخيال من بعيد ·· تلك العصافير الصغيرة قد افتتحت شباك الكرمة ·· لتطعم ثمارها وتمتص رحيقها الحلو من عناقيدها ···

تحركت العصافير بعد أن طعمت بحلو عنبها ·· حركة دؤوبة دائمة ·· فى كل اتجاه ·· الشباك تردها ولكنها لا تيأس تستميت فى البحث عن مخرج من هذه الشباك اللعينة وهناك ·· من ثقب ضيق بعض منها ·· ينطلق الى فسحة اللامحدود ·· يغرد ··

البعض الآخر ظل يطعم من حلو العنب ·· حتى ثقلت حركته وصدمات الشباك تتوالى ·· سقطت معظم العصافير الصغيرة ·· سكرى ·· ثم نامت الى الأبد ··

صورة حركت وجدانى ·· ظلت تداعبه سنين طويلة حتى اكتملت الرؤيا ·· وقد انضجها الفكر والتأمل الطويل ··

الانسان يأتى الى الدنيا ·· يطعم بحلوها ·· ثم يسكر وينام ·· قد ينام الى الأبد ··

قلة يدفعها الشوق الى السير ·· فى طريق الشوك ·· القلة ·· تنطلق فى مســيرة ·· تنفذ من ثقب صغير ·· المســيرة تتقدم ·· طاقة من نور خفت حتى لا يكاد يرى ·· ولكنه يزهو ويتألق كلما تقدمت المسيرة · المسيرة تتقدم نحو النور ·· النور السلام ·· الله ·· السلام ··

من هذه الخلفية التى سادها الفكر والتأملات وغذاها البحث عن تحقيق الذات ·· بدأت سلسلة من الأعمال بلغت خمسة عشر عملا « فى موكب السلام » ·

أمهات ·· فى جموع متلاحمة ·· تجردت من لباسها عارية تماما ·· تهرول ·· هربا من الأسر ·· أسر القيم الدنيا ·· تطلب الفكاك منها ·· الى الأعلى ·· حملت أطفالها ·· رمزا لأعمالهــا ·· تقدمها قربانا لخلاصــها ··

الكل يعانى··المســيرة تطول··والطريق شاق··البعض يخلف ·· البعض يسقط صريعا ولكن المسيرة تستمر ··

الايقاع سريع والبناء قوى ·· واضح فى هندسية ومعمارية ··· الرمز يحتضنه الشكل · موسيقى الشكل تنساب ··· تنساب فى تدفق وقوة ، ترق فى انحناءاتها ·· تشتد فى استقاماتها ·· تتلاحم المعانى والقيم مع موسيقى الشكل عند القمة قمة تكامل العمل ووحدته ·· تلاحم الرمز والمعنى وموسيقى الشكل ·· عند نهاية العمل ··

تلاحقت الأعمال ·· من الأمهات العرايا الى أمهات ترتدين الملابس ·· من أمهات يحتضن أطفالهن ·· الى أمهات بلا أطفال تسير الى القبس ·· العمل تلو العمل ·· ببطء شديد ·· والعمل مستمر ·· الزخم يعنف والشحن يزداد ·

عملان كبيران شدانى من وسط الأمهات العرايا الأول ·· الأمهات ما زلن يحملن أطفالهن تخلين عن العرى ·· اكتسين بثياب ·· ثيــاب

إختلفت ألوانها ·· وجوه اختلفت ملامحها ·· ومن ثم اختلف تعبيرها ومقولتها ··

خوف وترقب ·· مفاجأة وتأمل ·· المسيرة تتمهل · ولكنها تستمر ·· ايقاعات تتمهل وايقاعات تسرع فى تدفقها ·· مناطق عبور محسوبة تلتحم بها مختلف الايقاعات ·

البناء المعمارى مستقيم ·· وحدة العمل تترابط ثم تكتمل ·· تحمل على أطراف فمها ·· الرمز ·· معنويات المسيرة ···

العين تبدأ رحلتها خلال العمل ·· من أقصى اليسار تستمر العين فى ملاحقاتها ·· متمهلة ·· متأملة ·· حتى أقصى اليمين · ثم ترتد ·· تبدأ من اليسار ثانية ·· هكذا العمل قد أمر ·· تصعد الى أعلى ··· الى القمة :

رؤوس شامخة فى جلال وترقب ·· تتكلم ·· فى صمت ·· تقول الكثير ·· نحن نستشعر الكلام الصامت الى جذوع قد استقامت ·· ألفات ·· ألفات ·· متراصة بحساب ·· تنفرج عن بعضها بحســاب ·· تتلاحم بحســـــاب ·

أجســاد قد حملت تلك الرؤوس بحســاب ·· احتضنت أطفـالها بحساب · العين تستقر طويلا فى هذه المنطقة الوسيطة ·· أنغام تشعبت وايقاعات تشابكت : أيد وأقدام وأجساد ·· أطفال حنت عليها أيدى وأذرع الأمهات ·· نغم طويل ومعقد ·· يمتد بعرض العمـل كله فى ترابط وأحكام ·· ثم تنزلق العين رويدا رويدا بعد أن ارتوت ·· تنزلق فى رفق مع استقامة وانسياب الأجساد ، وحتى الأقدام ·· أقدام تزحف وقد لاصقت الأرض ·· فى بطء ربما ·· ولكن الى الأمام دائما ·· ايقاع جديد ·· متصل ·· صلة الأجساد ··· رحلة العين والفكر داخل العمل ·· لاتنتهى ··

***

أود أن أنوه عما رسمته من لوحتين :

أحداهما ·· صورة شخصية لزوجتى ·· والثانية صورة شخصية « لمصر » ١٩٦٨ هاتان اللوحتان ·· اذكرهما وسأظل أذكرهما بكل حب واعزاز ·

الصورة الأولى لعايدة زوجتى ··

كل ما حشدته عايدة من نقاء وأنفة ٠٠ من جلال ٠٠ وعبور رقيق فوق الأحداث٠٠تآلفت كلها معها ٠٠ لازمتها روحانية صافية ٠٠ انبعثت من عمق وجدانها ٠

فى تسابيح ٠٠ رقت وشفت عن مكنون النفس ، رسمت سماتها واضحة٠٠جلية٠على المحيا الشامخ تسابيح أخرى تدفقت من الداخل٠٠ لكنها ظلت هناك تثرى وتثرى ٠ تآلف وجدانى ووجدانها ٠ استجابت أحاسيسى لتسابيحها ٠٠ تحقق العمل فى بناء شامخ يكتب الكثير لمن يقرأ ويقول الكثير لمن يسمع ٠٠

فى العمل الثانى : صورة شخصية « لمصر ١٩٦٨ » ٠

على أصغر مساحة من القماش « الكنفاس » من بين جميع أعمالى فى التصوير ٠٠ سطرت هذا العمل ٠٠

فى بناء محكم سيطر على كل دقائق العمل يرنو وجه « مصر » ٠٠ صادقا٠٠صامدا فى شموخ وعظمة ، وشجن رقيق انتشر كالعبير الهامس يغمر ذلك المحيا النبيل ٠٠ فى رهافة ولطف ٠٠ مصر بين يديها المستقبل ينادى ٠ مصر فى ذلك الهدير الصامت الذى يتدفق من الداخل هدءوا على السطح ٠٠ وعزما وتصميما يسرى تحت السطح فى رقة ذكية ٠٠ فى لطافة ذكية ٠٠ الشجن يلازمها ولكن الى حين ٠٠ مصر ٠٠ نعم مصر ستلبى النداء ٠

كنت أذهب الى هذا العمل بين الحين والحين وقد اكتمل ٠٠ كان يدغدغ كل جوانحى ٠

حبيب ٠٠ حبيب الى نفسى

قريب ٠٠ قريب الى قلبى

هذا الشجن الرقيق صنعته نفسى ٠٠ كان يرتد الى نفسى ٠٠ نفسى الظمأى ٠ يرويها ٠ نعم انى أحب هذا العمل ٠٠

***

انتهت منحة التفرغ فى عام ١٩٦٦ ٠٠ مرتباتنا الشهرية من المنحة هى خمسة وسبعون جنيها ٠ فى هذا الوقت كانت كافية ٠٠ كسبت من الأرض التى أملكها حوالى ثلاثين جنيها فى الشهر ٠٠ ثم انقطعت هذه المنحة ، هذه الثلاثون جنيها من الأرض لم تجد نفعا أن تفى حاجاتى ٠

لم أكن أفكر فى زيادة دخلى طالما منحة التفرغ مستمرة ، الوقت كله للفن ·· ولا يوجد فراغ ·· فكرت فى الفنانين الغير موظفين ·· الموظف يمكن أن يحصل على مرتبه من وظيفته ··

تحيه حليم ·· رمسيس يونان ··

رمسيس يونان مدت له سنة أخرى لا دخل لفنــه وابداعــه فى التصوير ·· ولكن كى يترجم « مالرو » من الفرنسية الى العربية ، مات فى هذه السنة ·· رمسيس يونان ·· يرحمه الله · مرضت : نزلة شعبية·· وانتكاسه ·· خمسة عشر يوما وأنا أصارع المرض ·· عايده بجانبى ·· زهدت التدخين · أقلعت عنه ·· ثم فى اليوم التالى أقلعت عنه ، أيضا عايده ، والى الآن ··

ان ما بقى لنا من الجنيهات الثلاثين ثم ما نربحه من زراعة الأرض بالأعلاف ·· لا تكاد تصل الى الخمسين جنيها لا تكفى ·· سوى الطعام ليس الا ···

ولحسن الحظ طلب منى الأهرام ، محمد حسنين هيكل — لوحتين ·· بتوصية تحية حليم ·· ودفع لى الأهرام مائتين وخمسين جنيها ··· ثم انى كنت وضعت مائتين وسبعين جنيها بصفة عربونا لسيارة فيــات ولم تأت السيارة حتى الآن فاسترجعت العربون ··

أصبح لى رأس مال / ٥٠٠ / خمسمائة جنيه ·

ناقشنا أنا وعايده كيف استثمر هذه « الثروة » · فأجابت عايده ·· انك تزرع الاعلاف والبرسيم فى الحديقة ·· ثم ان اشتريت عجلات جاموس ·· فانك تربيها مجانا ·· من زرع البرسيم ·· اشترينا خمسة عجلات جاموس بمبلغ مائة وسبعين جنيها لا غير ·

عندى خادم منذ أربعة عشرة سنة · وكان « محمد » يعشق الفلاحة وتربية العجلات ·· أخذ محمد تربية العجلات ·· حتى حملت ·· ثم ولدت منها ثلاث عجلات ·

جاءنا من هذه العجلات ·· خير : اللبن ·· بعنــاه ·· استقرت حياتنا من تلك الجنيهات القليلة على مشقة ، ثم التفتنا لأعمالنا : التصوير ثم النحت لزوجتى ·

فى نهاية السنة من منحة التفرغ ·· بدأت لوحة من الحجم الكبير ·· ٣ متر × ١٣٠ ســم ··

تلك اللوحة ·· بدأتها بعمل مصغر ·· واكتشفت أن العمل المصغر لا يفي بما يجول في فكري · أحضرت الكنفاس وشددته على المقياس الكبير ١٣٠ سـم × ٣ متر ·

هذا العمل كان آخر عمل حققته في هذه الحقبة من الزمان · هذا العمل فاق مساحة كل ما سبقه : تسعة وتسعون من الأمهات ·· يرثن من كل شيء ·· حتى من أطفـالهن ·· أطفـالهن أعمـالهن ·· لم يعد « للقربان » ·· هناك ·· من مجال ··

نفوس تخلصت ·· توشحت بالسواد ··

الأمهات ·· يسعين في ترقب واجف ·· صمتت شفاه وانفرجت أخرى ·· في كلم يرتد الى الداخل ·· حديث الصمت · الزحف يستمر والمسيرة تتقدم ·· في بطء ·· متمهلة وسط الطريق ·· تصيخ السمع ·· تحدق البصر ··

قبس من النور قد لاح ·· أين ·· يرقد البصر باحثا ·· متلهفا ·· عن ذلك النور ·· جهة اليسـار ·· جهة اليمين في الأمام · وفي الخلف ··

لكن القبس ليس له جهة ·· انه في كل الجهات · ترتد المسيرة ·· زاحفة في عكس الاتجاه ·· تشرئب الأعناق الى أعلى ·· الى أعلى الأعلى ·· الأيدي تهلل ·· انه القبس ··· لقد باتوا على مقربة من القبس · نوره يسطع ويسطع أكثر وأكثر ·

ولكن القبس ليس هناك ·· ان القبس في الأعماق · أعماق تلك النفوس التي خلصت وصفت··ملحمة··نعم هي ملحمة ·· أخذت مني جل ما أملكه من الصبر والنفس الطويل ·· أوصلتني اليها تجارب طويلة وتأملات متصلة ·· أحاسيس مروضة تزحف من عميق الى السطح ·· للتحقيق ··

هذا العمل أخذ ما يقرب من السنوات الثلاث عشتها مع هذه التجربة ·· في تحقيقها وبنيانها ·· بنيتها بوصة ·· بوصة بوجدان مروض وعقل صاف ·· صاح متكامل الفكر والوجدان ·· لتحقيق هذه الملحمة ·

لم أترك بوصة واحدة بغير محاولة لرفعها الى أعلى قيمة متاحة ·

وقد تستعصي على الحلول ·· اترك العمل الى حين ·· لكن العمل لا يتركني ·· يسد على كل مسالك الهروب ·· الهروب من الصعب ·· انه يعيش في وأعيش فيه ·

أبدأ عملا جديدا يخفف عنى شدة التوتر ٠٠ شدة المعاناة ٠ البداية دائما ٠٠ اذا ما بدأت ـ تسير سهلة هينة ٠٠ مبهجة الى حين ٠ ولكن المشكل مازال هناك ٠٠ يحتضنه الفكر ٠٠ يلازمنى على الدوام كل لحظة ٠٠ فى الليل والنهار ٠٠

المشكل ٠٠ قد يكون فى خط مستقيم ٠٠ لم يستقم كما ينبغى ٠٠ فى لون خرج عن نطاق الاحكام ٠٠ فى كتلة لم تأخذ حقها فى الامتلاء ٠٠ فى فراغ لم يستطع مع الكتلة ٠٠ فى رأس من الرؤوس لم يستطع تشكيله حمل المعنى والمضمون ٠

قد يكون فى تكامل وحدة العمل ٠٠ ؟

هذا هو مشكل المشاكل ٠ مع التركيز ٠ وحضانة الفكرة ٠ والتأمل الطويل لهذا المشكل ٠٠٠ تستنير البصيرة وتبرز الحلول ٠٠ الواحد تلو الآخر ٠٠

تتآلف الايقاعات على اختلافها فى ايقاع واحد شامل متكامل مترابط الأوصال ٠٠ غنى ٠٠ غنى بتعدد النغمات واختلافها ٠

يلم فى رحلته جميع دقائق العمل وتفصيلاته فى كورس متكامل ٠٠ يتغنى بالنشيد المنشود ٠٠ نشيد السلام ٠٠

***

بعد اتمام هذه اللوحة ٠٠ شعرت بضعف فى الابصار ٠

كانت عينى اليمنى ضعيفة منذ الصغر ٠٠ وقد نصح الدكتور الانجليزى فى مستشفى فى لندن ٠٠ أن أضع غطاء على العين اليسرى وكان الابصار بها على ما يرام ٠٠ حتى تتمرن عينى اليمنى على الابصار ٠٠ وكنت استعين بعينى اليسرى على القراءة والرسم وعينى اليمنى ٠٠ « تستريح » ٠٠ من القراءة ٠٠

وذكرت للدكتور اننى هنا اتعلم الرسم وانى أقرأ فى المساء حتى منتصف الليل ٠٠ واذا وضعت غطاء على العين اليسرى ٠٠ لا استطيع القراءة أو الرسم ٠٠

ثم تركت هذا الغطاء ٠٠ وتمرين عينى اليمنى ٠٠٠

كنت أرى الصورة فى « التليفزيون » تضعف ٠٠ وانى أمارس ضغطا على عينى حتى أرى الصورة واضحة ٠٠ وكنت أسأل عايده ٠٠ هل الصورة فى التليفزيون غير واضحة ؟ ٠ وهى تقول انها ضعيفة فى هذا الجهاز ٠٠ ! ٠٠

مرت الأيام وفاجأتنى عايده بأنها طلبت موعدا مع الدكتور مصطفى ناجى ، الذى دلته عليها أختها ، فذهبنا اليه ٠

كشف على عينى ٠٠ وسألنى عن سنى ٠ أجبت أنه الخمسين فقال بلطف زائد ٠٠ بعد سن الأربعين ممكن أن يضعف بصرك ٠٠ هنـــاك « ميه بيضة » كتراكت تضيب عدسة العين وتصبح غير شفافة ٠٠ مثل « الشعر الشايب » بعد هذا السن ٠٠٠٠ ثم ماذا يا دكتور ٠٠٠ ؟

انى فنان تشكيلى انى أرسم وأقرأ ٠٠ ولا يمكن أن أمارس مهنتى بهذا الابصار الناقص ٠٠ !

ان هذه العدسة غير الشفافة لابد من عملية جراحية لانتزاعها برفق ٠٠٠ ثم تزرع عدسة بلاستيك ٠٠ أو بدون زرع عدسة ٠٠ والاستعاضة عنها بنظارة ٠٠٠ ولكن قبل تلك العملية الجراحية لابد أن تعتم العدسة تماما حتى لا ترى يدك بعينك اليسرى ٠٠ ثم نبدأ الجراحة ٠ فى الوقت الحاضر أجهز لك نظارة تكفى للرسم والقراءة الخفيفة ٠٠ الى أن تعتم العدسة ٠٠

فى ذلك الوقت كان قد قارب على الانتهاء الجزء الأول من سيرتى الذاتية وقد عنونتها ٠٠ « تجربتى فى الفن والحياة » وقد كان الجزء الأول من البداية حتى نهاية دراستى فى لندن وباريس٠٠وعودتى الى مصر ٠٠! وقد قرأته عايده باعجاب ٠٠ ! ٠٠

شغلت بهذا الجزء حتى اتمامه ٠٠

فى سنة ١٩٧١ جاءنى الأستاذ حسين بيكار ٠٠ وطلب منى أن أكتب مقالا عن حامد سعيد ، فوافقت ٠٠ على أن يمهلنى أربعين يوما بالتمام والكمال حتى ألم بأفكارى عن حامد سعيد ٠٠ وقد زاملته فى اكاديمية اميدى أوزنفات فى لندن ولم نفترق حتى الآن ٠٠٠

كتبت فى بضعة صفحات فى مجلة الفنون ٠٠ العدد الثالث من صيف ١٩٧١ – بما لا يزيد على اثنتى عشرة صفحة نقدا ايجابيا لأعمال حامد سعيد وميزاته المتعددة ٠٠ مع اهتمامى بالفكر الذى حققه من أعمال جديدة فى بحر الرسومات بالقلم الرصاص وبالقلم الملون ٠٠

ثم نقدا سلبيا فى بضع سطور عما أحسسته بفارق الرؤيا للطبيعة ٠٠ هناك نظرة أخرى لفهم آخر للطبيعة ٠٠٠ !

وانى اسرد ما كتبت فى هذه السطور :

وان الوشى الرائع على لحاء الشجرة

ليس هو « الشجرة »
ان من تحت هذا الوشى حقيقة أخرى
أكبر وأعمق منه
هناك امتلاء وعصارة تتدفق ·· وحياة
هناك ثقل ووزن وانبثاق
هناك وجود وحضور
بل هناك سر دفين أشد عمقا من كل هذا
هناك حس بالمادة نفسها بل وما وراء المادة

هناك حس « بالشجرة » نفسها ، تحس بالبصيرة والفكر وتترجم بالمعادل ·

لقد فهم « سيزان » هذا السر وحققه ببضع لمسات قوية حساسة وعارفة ·

ان موسيقى الشكل لا تكفى فهى تدخل فى النطاق الزخرفى والمجرد اذا ظلت عارية من هذا الحس ·

رحب حامد سعيد بالمقالة وذكر أن له تحفظات ·· ولما طلبت منه بعد حين أن يذكر لى هذه التحفظات ·· لم يجب ···

والآن يذكر أن هذا المقال أحسن ما كتب عن حامد سعيد ، وما كتبت اطلاقا ·· على حد رأيه ·· ؟ ولكن تلك التحفظات التى ذكرها ربما كانت تخص تلك السطور التى أوردتها من قبل ، الأسطر التى سطرتها فى وجدانى عن أعمالى الفنية ·

وذلك الكتاب الذى خططته من أعماقى عن تجربتى فى الفن والحياة كانتا جديرين بالعناية ···

انتهيت من مقالى عن « حامد سعيد ومركز الفن والحياة » وتلك التحفظات التى لم أسمعها ·· وفكرت أن أقيم معرضا لى ولزوجتى فى أتيلييه القاهرة ··

ان بصرى يضعف ·· ولن أقوم بالرسم مرة أخرى ·· والبصر يكفى للكتابة على مضض ·· وصرت أكتب !

كانت عايده راغبة فى أن أعمل معرضا ·· لى ·· منفردا ، أجبت : ان أعمالك ونحتك فى الحجر سيزيد فى معرض يجمعنا نحن الاثنين ···

وبينما نجهز براويز الصور ·· ثم « الكتالوج » رأينا أن تصور اللوحات والتماثيل عند الأستاذ حسن على وقد قام بأحسن ما يمكن فى لوحاتى الزيتية وتلك التى بالقلم الرصاص ·· ثم فى التماثيل لزوجتى ··

استخلصت من هذه الفوتوغرافيات ما يصلح للكتالوج من لوحاتى ومن صور تماثيل عايده ·· ورجوت الأستاذ اسماعيل شوقى ـ وهو خبير فى الطباعة ، ومدير لدار نشر وطباعة فى « دار التحرير » أن يقوم بعمل الكتالوج ·

حامد سعيد قدم للمعرض لى ولزوجتى على صفحات الكتالوج · فى يناير استلمت خمسمائة نسخة منه · الطباعة محترمة · احتوى الكتالوج على خمسة من تماثيل عايده وستة من لوحاتى ·

حجزت ·· شهرا فى الصالة العليا بأتيليه القاهرة فى مارس سنة ١٩٧٦ ··· وهى المرة الثالثة التى أعرض فيها·· من قبل عرضت فى صالة « جولدنبرج » فى القاهرة ·· والمرة الثانية مع نحت عايده ·· فى مدرسة فاروق بالخرطوم وقد افتتحه عبد الرازق السنهورى وزير المعارف ومع الأستاذ القبانى ·· كان هذا فى ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥ ·

والمعرض الأخير فى مارس سنة ١٩٧٦ كان حسن الختام فى المعارض الفردية والثنائية ··

افتتح المعرض الأستاذ حامد سعيد ·· كان الاقبال فى أول يوم « على ما يرام » وبعد عدة أيام ·· كان الاقبال ضعيفا · كالعادة فى كل معارض الفن التشكيلى ·

كتب حسين بيكار مقالا له طابع الجد فى النقد الممتاز لى ولعايدة ، وقد اغتبطت لهذا المقال فهو موضوعى وجاد ثم فى الندوة التى دعوت اليها لفيفا من الفنانين والمثقفين · تكلم حسين بيكار وأضاف الى ما خطه من سطور فى جريدة الأخبار اضافة كلها حماس لأعمالى ، وأعمال عايدة ·

وفى جريدة الأهرام كتبت « سناء البيسى » فى عمود نقدا ممتازا عن تماثيل عايده ···

بعد هذا المعرض أصبحت عيناى لاتكادان تبصران وقد غيرت عدسات النظارة لكى أبصر ما أكتب وما أقرأ ·· حتى الرسم لم يسمح به ضعف الابصار ·

صرت اكتب ··· والكتابة تريح نفسى ·· اذ كانت تبصرها عينى ··· أما الفكر فهو طليق ·· أما الرسم فزواياه مختلفة مع الابصار ·

اكتب كي انهى الجزء الأول من « تجربتى فى الفن والحياة » وقد صار مهيأ لمراجعته بعد تكملته ٠٠ لارساله الى المطبعة ٠

أكتب بخط واضح وغليظ متسع حتى تراه عينى التى نكبت « بالمية البيضة » ٠

كنت أكتب بضع صفحات ٠٠ أقرأها لعايده زوجتى وكانت تتفهم وتعجب ٠٠ ولها ملاحظات بسيطة من النقد ٠٠ أسمع لها ثم أقوم بالتغيير اذا اقتنعت ٠٠ !

وهكذا قد قارب الجزء الأول من كتابى على الانتهاء ٠٠ وقد تم طبعه « فى الهيئة المصرية العامة للكتاب » فى سنة ١٩٨٩ ٠

***

مساحات الأرض من حولنا قد حولها الملاك الى أرض للبناء ٠

دخل المالك من بيع الأرض كان يبلغ ألفى مرة من دخل الأرض وهى مؤجرة للزراعة ٠٠

قد جر هذا فكرى نحو البيت الذى خططه وصممه لنا ٠٠ الفنان المعمارى حسن فتحى ٠٠ !

كان للكروكى الذى رسمه على ورق شفاف بالألوان ٠٠ هذا « الاسكتش » استحوذ على فكرى وحسى ٠٠ لقد رأيته بعينى وسمعت بأذنى الموسيقى المعمارية ٠٠ موسيقى الشكل ٠٠ انه خلاب ٠٠

فكرت أن ابيع بعض الأراضى الموروثة عن أمى وجدى ٠٠

ان الفدان دخله عشرون جنيها من تأجيره للزراعة ٠٠ وثمن الفدان أربعون ألف جنيه لو بعته للبناء ٠

ماذا لو بعت فدانا من الأرض ٠٠ ؟

ثم ماذا لو استغليت الثمن ادخارا فى أحد البنوك ؟ الربح ليس بقليل ٠٠ ثم هذا الثمن يعطينى من المال ما يسمح بتنفيذ هذا المخطط المعمارى الرصين ٠٠ الذى تنبهج بالفرح المغمور بالسعادة فيه ٠

كانت عايدة تفكر معى برصانتها المشوبة بالسعادة انها الأرض التى ورثتها عن الأجداد ٠٠ ؟

علام اللوم اذا كانت تهدينى البيت الذى أحببناه أنا وزوجتى ٠٠٠

وسوف اكسب من ربح الادخار فى بنك من البنوك ربحا ماديا يساعدنا على تكييف حياتنا .. من الضيق .. الى خير أسعد من ذى قبل ..

بعت الأرض .. !

أودعنا جزءا من ثمن الأرض المباعة .. ادخارا فى بنك من البنوك .. باقى الثمن رصدناه لبناء البيت الذى صممه الفنان حسن فتحى .

رحلنا مع التصميمات .. الى القلعة .. حيث يسكن حسن فتحى فى الدور العلوى حيث يكشف عن ساحة القلعة بما فيها من مآذن وقباب من المساجد .. تدعو الى التفاؤل والخير ..

البيت .. فى زقاق تتخلله بيوت أثرية بالمشربيات ذوات الخشب المخروط بدقة وفن .. هذا البيت يطلق عليه « بيت الفنانين » . فى مدخل هذا البيت .. « فى الحوش » علق حسن فتحى جرسا بحبل .. اذا ما جاء زائر له يدق الجرس ليسمع هو أو تلاميذه..ويستعلمون من الذى جاء .. ثم يأذن حسن فتحى بطلوع السلم .

ان السلم يرتفع الى أربعة أدوار والسلم عالى الدرجات .. ويصعب الصعود اذا كان حسن فتحى غير موجود .. فاذا كان موجودا .. فنصعد السلم ...

وقد كان حسن فتحى موجودا .. وشاهدنا من الشرفة .. وتعرف علينا وقال اصعد ياراتب ....

استقبلنا ببشاشته المعهودة ...

ثم سأل .. ؟ ماذا عملت فى بناء البيت .. ؟

انما كنا فى انتظار أن يمن الله علينا بتكاليف هذا البناء . والآن وقد من علينا ، فقد أحضرت لك الرسوم لكى تشرحها لى ، وقد تعاقدت مع عامل بنـاء متخصص فى بنـاء القباب والقبوات .. وقد بنى مع محيى الدين حسين بيته الذى صممه رمسيس ويصـا واصف ذا القبات والقبوات ..

رجوت حسن فتحى أن يشرح لى طريقة بناء القبة .. على الطريقة التى يبنيها عامل البناء .. اذ أن طريقة البناء معروفة من قديم الزمان وفى الريف فى مصر العليا ..

وقد شرح الفنان حسن فتحى الطريقة فى منتهى البساطة . فهمت الشرح ! ولما كانت أركان القبة المثمنات أقواس منحنية على شكل ¼ قبة .. فهمت الكلام ! وعند التنفيذ..سطرت أوراقا كثيرة حتى اهتديت للقاعدة

وفى زيارة لحسن فتحى سألته عما فهمته من تجاربى فى رسم القاعدة على الورق كعمل لتلك الأركان ‥ فعلمت منه أنها صحيحة ‥‥ وكانت تلك الأركان كما نفذها عامل المبانى زاوية مثلثة ‥ وكانت قبيحة ‥ صححناها له فكانت مستديرة ¼ قبة ‥‥ !

وظلت زيارتنا لحسن فتحى طوال المبنى كثيرة ، لسؤاله ماذا نعمل ؟ ‥‥

كنت أنا وزوجتى ‥ نخطط الموقع ‥ على نفس خريطة التصميم ‥‥ فى بادىء الأمر ندعو مهندسا من تلاميذ حسن فتحى ‥ فاخطأ فى تخطيطه ‥ ثم غيرناه ‥ وقد حللنا محله وأصبح المبنى جميلا ‥

انتهيت من القاعة الكبرى ٠ كان عليها القبة باتساع أربعة ونصف المتر ٠ وكان عامل البناء يجرى العمل فيها وكنا نزداد سرورا كلما ارتفعت القبة الى السماء ‥‥ بطوبها الأحمر المتلاصق ‥ يزداد فى دوران القبة ‥ وتقبيتها ‥ كان عملا رائعا فى البناء ‥

كنت مع « البناء » وهو يرمى طوبة مع طوبة لينحنى السطح مع اليد الخبيرة فى عمل القبة كما عملها الأولون فى صعيد مصر ‥

انتهت مبانى القاعة الكبيرة « ريسبشن » ثم المدخل وباقى أجزاء هذا المبنى من حمام وأوفيس ومطبخ ‥ ثم حجرة فى السطح للنوم ‥ حيث أن ميزانيتنا قد أفلست ‥ الا بالقدر الذى تستطيع أن تفرغ من تشطيب ذلك المبنى ‥

ثم بعنا أرضا أخرى

وبدأنا فى الجزء الثانى من المبنى ‥

حجرات النوم ‥ بينهما حمام واسع ٠ ثم استوديو للتصوير ‥ واستوديو للنحت ‥ بينهما حجرتان ‥

كان تنفيذ هذا الجزء بقبابه وقبواته والمنحنيات فى داخل الحيطان ‥ ثم حفر الأساس — كل هذا — شيئا غير سهل ٠

كان حفر الأساس أصعب علينا أنا وزوجتى ، وكانت تساعدنى فى قياس المسافات ‥

وقد نجحنا ‥ فى غرف النوم ‥ وكانت هى الأصعب ثم عملنا المرسم للتصوير ‥ ثم قلت كفى ‥‥

ثم قالت عايده ‥ ان المبنى ناقص وهذا الامتداد فى المخزن واستوديو

النحت مكمل لهذا المعمار الناجح ..

اقتنعت بهذا الرأى وقلت سأبيع أرضا أخرى ونفذنا أساس المخزن والمرسم للنحت و ...

ثم ... مرضت عايده .. وماتت .. فى نهاية سنة ١٩٨٠ . لم يكن موجودا فى القاهرة أحد من أقارب عايده .

أخت عايده مدام حبيب المقيمة فى القاهرة كانت فى كندا .. مع ابنتهـا ..

وكانت الأخت مدام شتيارة مع زوجها وأبنائها فى بـيروت .. أما الأخ الأكبر فؤاد فكان فى باريس والاخوان الشقيقان . شفيق شحاته وألبير شحاته كانا قد توفيا .. من بضع سنين ..

أما أنا فكنت وحدى .. لا أعلم شيئا عن جنائز المسيحيين وحتى قبورهم لا أعرفها .. ثم الصلاة فى الكنيسة .. والكنائس كثيرة ... أرثوذوكس .. بروتستانت ثم الكاثوليك ..

لمحت فى مفكرتى للتليفون .. اسما أعرفه حق المعرفة وهو جار للأخت الصغرى لعـايدة فى القاهرة وأعلم مسكنه وتليفونه تلفنت للأخ « انطوان زغيب » ... وأعلمته بما حصل .. ورجانى أن أذهب اليه فى الحال .. كنت متوترا وصار هو يعمل بهدوء حتى حصل على النعش ثم العربة . .ثم العاملين فى هذا المجال .. واتصـل بالبطريكخانة ثم أتم شراء قبر فى مدافن مصر القديمة : الروم الكاثوليك...لعايدة خصيصا .

ثم جاءت السيارة والعاملون فى هذا المجال ونقلوا .. عايده .. حتى باب الكنيسة الكاثولوكية ... فى مقابلة بيت الأخت الصغرى .. ورفعوا التابوت الى قاعة الكنيسة للصلاة عليها ..

وبدأ القسيس يصلى على .. عايده ..

انهـــرت تمامـا ..

دفنت عايده .. فى مقبرة خاصة .. عند مقابر الروم الكاثوليك فى مصر القديمة ووضعنا عليها الأزهار ... وتركت المكان الى البيت . مكثت فى البيت ثلاثة شهور ... كنت مندهشا لغياب عايده المستمر . موسيقى باخ تروعنى بروحانيتها .. كنت أقرأ ..

أقاربى ورفاقى يزوروننى فى الليل والنهار ..

وهم قلقون على صحتى ٠٠ لماذا تكن فى البيت٠٠ لابد أن تخرج ! ٠٠
جاء بعض الأصدقاء ٠٠ دعونى لأصحبهم فى زيارة الى سقارة ـ سقارة كنت أذهب اليها مع عايده فى صحبة أصدقاء « الفن والحياة » صحبة حامد سعيد وكنا نسعد فى تلك الرحلة ونستريح فى قاعة كبار الزوار للآثار لتناول الغذاء بعد مشاوير طويلة من الدراسة فى أنحاء المقابر لمشاهدة «الريليف» الجميل والصلب ٠٠ من ابداع «الريليف» فى مقابر الفراعنة ٠ حال الخيال بى وعايدة بجانبى ! ثم رفضت هذه الرحلة ٠٠ !

فى الأسبوع التالى جاء بعض من الأصدقاء وألحوا على أن أصحبهم الى الأهرام أم اذا شئت فسقارة ٠٠ !

وافقت ٠٠ ثم تلطفت شابة فنانة ودعتنى الى الركوب فى سيارتها ٠٠٠ كانت الرحلة فاتحة الى حياة أفضل ٠٠ صمت فى المرسم ٠٠ وحياة حزينة ٠٠ بلا معنى ٠٠

تركت البيت ٠٠ ثم ذهبت الى البيت الذى شيدناه أنا وعايده ٠٠ البناء لم يكتمل ٠٠ الا القاعة الكبيرة والانتريه والمطبخ والحمام ٠٠ حجرات النوم والمراسم للتصوير والنحت ٠٠ نصفها قد تم نشطت لاتمام المبانى ٠٠ شغلنى ذلك ٠

صرت أبحث عن عامل البناء ٠٠ ذلك النوع الذى يمارس بناء القباب والأقبية ٠٠ وجدت هذا ٠٠ البناء ٠٠

احضرت كل ما يلزم من الأحجار اللازمة لاتمام البناء ثم المواد اللازمة لبناء هذه الأحجار ٠٠ ثم قام « محمد » بما يلزم من بناء الأقبية والقباب ٠٠ ثلاثة أشهر ثم تم البناء ٠

***

البنـاء قد تم ٠٠ ثم التشطيب من الداخل ٠٠ نجارة الأبواب ٠٠ « سبرس » ٠٠ والشبابيك بغير « شيش » فيها ضلف من الزجاج وخارجها من الأسلاك لتحمينا من الذباب والناموس ٠٠

ثم مصبعيـات من الحديد المزخرف بسـمات من الحديد التقليدى المصمم لشبابيك البنايات الاسلامية ٠٠ ثم بياض بالمحارة والمصيص ، ومن قبل تكسية الأرضيات بالرخام ٠٠ والرخام قد تأخر وقد مضى وقت طويل حتى حصلنا عليه وقد تم تركيبه ثم تنظيفه وجلاؤه ٠٠ ثم الدواليب ٠٠ ونقاشة كل هذا بألوانها الخشبية ثم طلاء الحوائط باللون الأبيض ٠٠ ثم الحديد والزجاج الخ ٠٠ ثم فى غرف النوم أجهزة تكييف الهواء ٠

لقد زارنى حسن فتحى عند انتهاء المبنى وقد هنأنى على التنفيذ ٠٠ وقال على المبنى انه « لطيف » ومبروك ٠

انتهى المنزل ٠٠ كان معدا للسكن ٠٠

لم أجرؤ على السكن بمفردى ٠٠ كانت عايدة معى ٠٠

ابتعدت عن سكن هذا المنزل اللطيف بضعة شهور ثم لاحظت أن بصرى قد ازداد ضعفا ٠٠ سلكت الى الطبيب المختص أسأله اذا كان من الممكن أن تعمل عملية الكراكت فى ذلك الحين ٠٠ قال الطبيب بعد ستة أشهر عندما تظلم العدسة ٠٠

فى زيارة لاتيليه القاهرة سألت عنى سيدة فرنسية مهتمة بالفن متزوجة من شاب مصرى ٠٠ وأخبرت الموظف المختص أنها ستجىء فى الغد فى الساعة السابعة ٠٠ وأنها ترجونى أن أذهب الى الاتيليه فى ذلك الحـــين ٠٠

قابلتها ٠٠ صارت تشرح لى عن معرض للفن التشكيلى فى باريس تحت اسم الفن المقدس art sacre

والمعرض يعرض فيه الفنانون من شتى البلدان الأوربية ٠٠٠ وقد خصصت ادارة المعرض جناحا للفنانين المصريين تحت طلب هذه السيدة الفرنسية ٠٠ جوزيت فيون Jolette Vion حرم د٠ عدلى حسانين ٠٠

اقتنعت أن أقوم برحلة الى باريس بصحبة الفنانين المصرين مع جوزيت وزوجها عدلى حسانين ٠٠

جوزيت ٠٠ اعطتنى فكرة أن أقوم بمحاضرة عن الفن فى مصر فى صالون « الفن المقدس » art sacre ٠٠

كانت الفكرة قريبة منى فى ذلك الوقت ٠٠

توليت هذه الفكرة ٠٠ ثم دخلتفى صومعتى داخل المرسم حتى أكتب هذه المحاضرة قبل سفرى ٠٠ المعرض سيقام ــ فى نهاية مارس حتى ١٩ ابريل سنة ١٩٨٢ ٠

كتبت المحاضرة فى شهر وجمعت شرائح ملونة للفن المصرى الفرعونى والقبطى والاسلامى ٠٠ ثم بعض الفنانين الممتازين من الرعيل الأول ثم المعاصرين فى وقتنا هذا وشرائح ملونة وكذا فيلم راتب عايدة « الأسرة الفنية » ٠٠

سألتنى جوزيت عما اذا كنت قد كتبت المحاضرة ٠٠ فأكدت لها أن المحاضرة جاهزة وان الشرائح الملونة نيف ومائة شريحة ٠٠ للفن فى مصر مع فيلم راتب وعايده ٠٠٠

وسألت جوزيت ٠٠ هل لك أن تساعد فى المعرض بما تراه بمثلك ٠٠ ثم عايده وتماثيلها ٠٠٠

سأفكر فى هذا الأمر ٠٠

جاءت جوزيت الى الاتيليه ٠٠ وسألتنى ٠٠ اذا كنت قد وجدت حلا لتقديم بض لوحاتى وتماثيل عايده الى هذا الصالون قلت لها ٠٠ ان لوحة « العشاء الأخير » قد اهديتها الى صهرى فؤاد شحاته وهو مقيم فى باريس ٠ ممكن اســـتأذنه فى عرض تلك اللوحة فى المعرض واعادتها له بعد العرض ٠٠

وفكرت فى أن أهدى الصورة الصغيرة ـ اصغر صورة عندى وهى « ١٩٦٨ » أم محتضنة لطفل٠٠ كان من الممكن أن أضعها فى الشنطة ـ كما أن تماثيل عايده المستنسخة جبسا فى قوالب معده للتماثيل الحجرية ٠٠٠ كانت طبق الأصل وهى صغيرة ممكن أن توضع فى الشنط ٠٠

جوزيت استقبلت هذا متهللة ٠٠

ثم قالت ٠٠ ان معى كل أسماء الذين سيرافقونا فى الرحلة الى باريس وبعضهم سيبقون فى مصر ٠٠ لأن السفر والاقامة فى باريس تلزم هؤلاء الأعضاء بمصاريف فوق طاقتهم ٠

ثم أعطتنى قائمة بالفنانين الذين أحضروا لوحات وكانت القائمة ٠٠ للذكرى كما يلى ٠٠

مدام بهجة ٠٠ ناجى بسيليوس ٠٠ سمير شوشة ٠٠ أمال شكرى٠٠ صفية حلمى حسين ٠٠ محى الدين حسين ٠٠ عبد المنعم حسين ٠٠ محمود نبيه ٠٠ عمر النجدى ٠٠ جورج انى ٠٠ نعيم جابرا ٠٠ ايهاب شاكر ٠٠ منى زغلول ٠

جوزيت فيون حسانين ٠٠ راتب صديق ٠ عايده شحاته ٠

ثم سافرنا فى أواسط مارس قبل افتتاح المعرض فى ٢١ مارس ٠٠

سافرت فى صحبة عدلى حسانين وزوجته جوزيت ٠ انى لم أر باريس منذ كنت هناك لدراسة الفن مع « فرناند ليجه » فى سنة ١٩٣٩ ٠٠ وكانا جوزيت وعدلى ٠٠ الأولى فرنسية عاشت طوال حياتها فى باريس والزوج عدلى نال الدكتوراه من باريس وأقام فى فرنسا سبع سنوات ٠

وكانا خير صحبة فى رحلة باريس وهم يعلمون متاحفها ومعارضها ثم شوارعها التى لم أكن أتذكرها الا بقدر ٠٠

سافرنا والرفاق من الفنانين على نفس الطائرة ٠٠ بعض الرفاق قد جاوزونا الى باريس ٠٠ كانوا يعرفون فرنسا ٠٠ وصلنا الى باريس فى مطار « شارل ديجول » على طائرة فرنسية ٠

لم تكن جوزيت قد حجزت فندقا لنزول ثمانية أفراد فى وقت واحد .. فكان من الصعوبة ايجاد فندق لهؤلاء الرفاق ..

فى سان مينشل .. وفى شارع جانبى يوجد Hotel des levant « فندق دى ليفانت » ١٨ شارع de la Harps

ذكرت هذه الليلة وقد تمت فى فندق فى سان ميشل فى باريس - كيف كنت أركب الصعب .. فى مشوار حياتى كى ادبر نقودا تكفينى أنا وزوجتى للذهاب الى باريس .. لكى أكمل دراستى : فى السودان .. وفى عملى فى المقاولات وعملى فى أرضى ..

كانت باريس .. بعد لندن ودراستى الجادة مع اميديه أوزنفانت ثم دراستى فى باريس مع فرناند ليجيه .. ثم تلك الحياة التى عشتها فى باريس التى ضمنتها ذلك التشوق الروحى والتصوف من أجل أن أصل الى تحقيق الذات ... كان عاملا مؤثرا فى حياتى بعد ذلك .. فقد واصل عمله فى أعماق نفسى حتى الآن ..

نمت تلك الليلة .. فى حجرة منفردا .. فى ذلك الفنـدق وفكرى ينساب الى الماضى ثم الحاضر .. وصحوت مبكرا ونزلت الى قاعة الافطار وكان بعض الزملاء ومعهم جوزيت وعدلى ... قد أفطروا ..

كان الأجر فى هذا الفندق..فوق طاقة بعض الزملاء .. اشتكوا.. وجاء الفرج من جوزيت التى اتفقت مع فنانة تدعى « ميشيلين ماسى» وهى تسكن وتملك بيتا فى حى « بانبوليه «Bagnolet» وهى على اسـتعداد لضيافتنا نحن الفنانين نظير أجر بسيط للغاية ..

قلت لجوزيت .. اذا كانت حجرة لشخص فقط فأنا معكم ولأدفع الضعف وماتت زوجتى وانا أنام منفردا .. ولكن جوزيت أعربت أن لى حجرة فاخرة لشخصى .. وأنا أكبر الرفاق سنا ... !

تلفنت افؤاد شـحاته أخ لزوجتى وهو يقيم فى باريس ذكرت له انى فى باريس لوكاندة كذا بشارع كذا واعطيته نمرة تليفون الفندق .. وبعد نصف ساعة طلبنى تليفونيا واعطانى عنوان قهوة فى حى مجاور .. فذكرت له انى لا أعرف باريس ولن ابرح مكانى فى الفندق سوى بصحبة رفيق يعرف باريس .. ثم طلب أن أعطى السماعة لموظفة الفندق فتكلم معها لكى تعطيه معلومات عن موقع الفندق .. بعد ساعة جاء فؤاد شحاته . صحبنى الى القهوة فى حى « فافان » ولم أكن أعرف شيئا عن حى فافان ... شربنا القهوة وصار يسألنى عن كيف ماتت عايده ... فلم استطع الاجابة على السؤال .. ان لسانى قد كف عن الكلام ..

وبعد حين شرحت له كيف حدث هذا · ثم سألني عن المعرض الذى سأعرض فيه أنا وعايده ثم سألته ايمكن أن استعير لوحة « العشاء الأخير » وكنت أهديتها اليه مع صـورة أخرى ·· ومعى ٣ تماثيـل من الجبس لعايدة ، قال خذ ما تريده وأنا ذاهب معك عندما تذهب الى المعرض فارجوك ان تتلفن لى وأنا سأصحبك اليه ··

ذكرت له أنى اعددت حديثا مكتوبا لكى ألقيه فى المركز المصرى فى سان ميشيل ·· وهو بالعربى ·· ثم انى فكرت أن اترجمه بالفرنسية ·· ورجوته أن يساعدنى فى ترجمته والصديقة جوزيت فيون وعدلى زوجها يرغبان فى ترجمة هذا الحديث الى الفرنسية ·· ثم صحبنى الى الفندق وودعنى على أن أتلفن له عنـدما أقيم فى منـزل بانيوليه وأعطيه رقم التليفون ··· !

فى « بانبوليه » كانت الدار ذات طابقين ·· الحجرات فسيحة ومتعددة وللدار حديقة فى الخلف ثم حديقة أمام الدار مطلة على شارع سادى – كارمو Sadi-Carnt ··· نزلت فى هذه الدار فى غرفة فسيحة فى الدور الأرضى · لها مدفأة تملأ فى كل أمسية بخشب ليحترق ·· حتى تذهب برودة ذلك الجو فى مارس ··

كان هذا البيت يجتذبنى فى كل مرة اذهب الى باريس وفى آخر مرة فى سنة ١٩٨٧ علمت من ميشلين أن البيت سيباع الى ابن عمها ··· وعند ذلك فكرت فيما يمكن أن ادبره من فندق فى باريس له أجر احتمله مدة شهر ونصف ثم المطاعم ·· والغذاء فيها ٨٠ فرنكا ·· بالعملة المصرية أربعون جنيها ··

كانت ميشيلين عطوفة على الفنانين المصريين فى ضيافتها · تطعمهم فى الغذاء والعشاء بأجر زهيد ··

بعض الفنانين رحلوا بعد انقضـــاء المعرض ·· اذ أن الفرنكات والدولارات قد رحلت بغير أن يتبقى شىء ··

« ميشيلين » اعجبت بلوحاتى : العشاء الأخير ولوحة ١٩٦٨ أم وابنها وأشادت بلوحاتى فى كل مجلس من الفرنسيين والأجانب الذين كانوا يأتون لمشاهدة لوحاتها علهم يشترونها ·

كانت صداقة مع ميشيلين ·· حتى هذه الأونة وهى تســأل عنى تليفونيا من شقتها فى « بريتانى » Bretagne الى منزلى فى المنيب ··· وعن صحتى « وكان القلب مصابا » ··

وسألتنى اذا كنت أفكر فى الزواج ·· ؟

سألت مبتسـما ٠٠ !

اذا كنت تعرفين زيجة لى ٠٠ سأكون سعيدا بها ٠٠ !

قالت ميشيلين ٠٠ نعم ٠٠ أن لها صديقة فى بلدة بجوار باريس تبعد ٢٣٠ كيلومتر ٠٠ تدعى لومان Lomans ٠ والصديقة على وشك الطلاق ٠٠٠ ولها رغبة فى العيش فى افريقيا ٠٠ وربما فى مصر ٠٠ وأرتنى صورة لها فى جمع أثناء معرض فن تشكيلى وكانت ٠٠ جميلة ٠٠ وسوف نتلفن لها كى ندعوها لحضور حديثى عن الفن المصرى فى المركز الثقافى المصرى فى سان ميشيل ٠٠ لكى نتعارف ٠٠

عند انتهاء المعرض فى القاعة المخصصة « للفن المقدس » لجأت أنا وجوزيت الى المركز لكى احـدد ميعادا لحديثى عن الفن فى مصر ٠٠٠٠ ولم أجد الملحق الثقافى هناك ٠٠ فتركت له رسالة عن الموعد الذى يحدده لى وتركت رقم تليفونى وعنوان سكنى ٠٠

جاءنى الملحق الثقافى واسمه «فاروق حسن» وليس «فاروق حسنى» الذى انتقل من باريس لادارة الاكاديمية فى روما ٠ فاروق حسن نصحنى أن القى حديثى عن الفن المصرى فى القاعة المخصصة للمعرض « الفن المقدس » وليس فى المركز المصرى ٠٠ المركز لا يحوى سوى عدة موظفين ولا يأمه غير قلة من الأشـخاص الذين يهمهم ذلك الحديث عن الفن المصرى ٠

ودعت الملحق الثقافى فذهبت أشاور رفقائى فيما أفعل ٠٠

جاء الرد من جوزيت وعدلى حسانين أنهما أخبرا ثلاث جرائد باريسية بحديثى هذا عن الفن المصرى وأن الحديث يلقيه فنان تشكيلى مصرى ٠٠ فى المركز الثقافى المصرى فى سان ميشيل ٠٠ فى تمام الساعة السادسة مساء فى يوم كذا ٠٠

فى اليوم التالى نشرت جريدة هذا الخبر ٠٠

وبعد أيام نشرت الجريدتان هذا الخبر بما فيه شرائح ملونة عن الفن المصرى ٠٠٠

سأحاضر من صفحات سطرتها بلغتى العربية ٠٠ ثم نجحنا فى ترجمة هذه المحاضرة الى اللغة الفرنسية ٠٠

فتكاتفنا أنا وعدلى وجوزيت وفؤاد شحاته فى ترجمة هذه المحاضرة ٠

وخصصنا فقرات أقرأها بالعربية ثم مرادفاتهـا تقرأها جوزيت بالفرنسية ٠٠ بنفس العلامة التى علمت بها نفس الفقرات بالعربية ٠ وقد

كان هذا من أســباب النجاح للمحاضرة ·· عربيا وفى نفس الوقت فرنســيا ··

قابلت المستشار الثقافى للسفارة المصرية ، عبد الأحد جمال الدين ، وقد اعتذر لأنه سيسافر الى ايطاليا فى ذلك الوقت الذى أحاضر فيه ·

وعند اقتراب موعد المحاضرة ·· زرت أنا وجوزيت المكان وتفقدته بعد نشر الجرائد الثلاثة عن موعد ومكان المحاضرة عن الفن المصرى ·· !

ان المكان يتسع فى أسفل لأربعين فردا ، وفى أعلى يسع أكثر من ٤٠ فردا ··· وها قد اقبل المستشار الثقافى عبد الأحد جمال الدين وحيانا · انه أخر سفره الى ايطاليا وقال انه سيكون موجودا أثناء المحاضرة · وقد سألنى ان كنت أحتـاج شيئا من معدات للمحـاضرة مثـل فانوس للشرائح الملونة ·· قلت نعم لأنى أحضرت مائة وعشرة شريحة ملونة للفن الفرعونى والقبطى والاسلامى ·· ثم ما ينيف عن ثمانين شريحة عن الفنانين المعاصرين ·

وكذا فيلما تسجيليا عن « الاسرة الفنية » أنا وزوجتى ·· أرجو أن يكون المركز عنده سينما ١٦ مليمترا ليعرض هذا الفيلم ، وطلب من موظفى المكان أن يعدوا كل ما طلبت ·· وتمنى لى نجاحا ··

ربح المكان وأنا بسبب تلك الأخبار التى صدرت من الصحف الثلاثة عن محاضرتى عن الفن المصرى ··

فقد أم القاعة ما ينيف عن المائة فنان وناقد ومحب للفنون جالسين ··· وواقفين ··

كان اختيـــارا موفقا فى الشرائح الملونة ·· كانت تشرح نفسها بنفسها ·· ثم جاء الفيلم ·· أنا وزوجتى ·· ختاما ··

هذا العرض بالعربية ثم بالفرنسية كان لبقا وقد قابله الأشخاص ·· عربيا ثم فرنسيا ·· بالارتياح فقد كان ملائما ··

قام المستشار الثقافى الأستاذ عبد الأحد جمال الدين بتقديم العشاء لكل من تبقى بعد الحديث فى القاعة ··

ثم أن المستشار تعرف على ابن شفيق الدكتور شفيق شحاته وكان المرحوم شفيق شحاته استاذا لعبد الأحد جمال الدين فى القانون فى جامعة « عين شمس » ··

ثم انه طلب منى أن أزوده بنســخة من المحــاضرة بالعربيــة والفرنسية ··· واذا كانت قد ترجمت للألمانية ؟ اذ أن المركز الثقافى فى النمسا قد طلب من المستشار أن يبعث اليه بهذه النسخة ··

وزودته بالنسخة العربية والفرنسية وأما الألمانية ففى المركز الثقافى فى النمسا يترجمونها اذا عن لهم ذلك ٠

جاءت « دانييل » مع أطفالها من لومان فى تمام الساعة السادسة قبل موعد المحاضرة ٠٠ فى سيارتها ٠

وطفلاها ٠٠ ولد فى سن ١٤ وبنت فى سن ١٢ عاما وقد تعارفنا من خلال صديقتنا « ميشيلين ماس » ٠

وكانت « دانييل » حلوة ورزينة ٠٠

تعشينا سويا فى المركز الثقافى ثم ارتحلنا مع ميشيلين دانيل وطفليها الى قهوة بجوار المركز وتناولنا الحديث حول المحاضر وأثنت كل من « دانيل ، وميشيلين » على الحديث والشرائح ثم الفيلم ٠

لقد داعبت ٠٠ البنت ٠٠ انها جميلة وشيطانة صغيرة هذا ما قلته ٠ وقد ظلت هذه الكلمات الى ما بعد سنين طويلة فى أذن هذه البنت الصغيرة ٠٠ « آن سيبيل » ٠٠ عندما كبرت ٠٠

دعتنى « دانيل Danielle » لزيارتها فى بلدة لومان Le Mans وهى على بعد ٢٣٠ كم من باريس ٠ وقالت ان « ميشلين » تعرف مكان بيتها ٠٠ على مبعدة من محطة القطار بنحو ١٥ كم ٠

أعجبت بهذه الانسانة Daniell ٠٠ انها جميلة ٠٠ ثم جذابة ثم عودها ملفوف ٠٠ صوتها يزيدنى طربا فى استحسان تلك الشخصية ٠ هى مثقفة ٠٠ ذات ثقة بحيويتها ٠٠ جريئة ٠٠ ذات حكمة فيما تقول أو تفعل ٠

نعم انى قد أعجبت بها

عند عودتى الى البيت ٠٠ بيت ميشيلين ماس ٠٠ سألتنى ميشيلين عن رأيى فى هذه الانسانة ٠٠ أجبت بنعم ٠٠ !

ان « دانى » ستطلق فى بحر شهور عدة ٠٠

وقالت انى ذاهبة لأخى ٠٠ فى بلدة تبعد عن لومان بضع مئات من الكيلومترات ثم أن دانى دعتك ٠٠ فلم لاتسافر معى وسنقضى ليلة فى بيتها وفى الصباح الباكر سآخذ القطار الى بلدة أخى وقد وافقتها بحماس ٠٠

ذهبنا الى « لومان » بالقطار ٠ ميشيلين تلفنت الى دانى لكى تحضر بالسيارة لتأخذنا الى بيتها فى الغابة ٠

وصلنا الى بيت دانى وهى ترحب بى وبميشيلين ·· منزل دافىء قد بناه زوجها فى أرض مساحتها هكتار من الأفدنة وهو منزل مريح للغاية ·· به ستائر من الصلب تقفل بالكهرباء من الداخل ·· وذلك للأمان ··

بعد تناول غذائنا فى منزل « دانى » دعتنا أنا وميشلين لمشاهدة الأشجار فى الغابة الخفيفة والخلجان ·· انها قد سمعت من « ميشلز » أنى أحب الأشجار والطبيعة ··

ركبنا أنا وميشلين ·· وقادت دانى السيارة وتحدثت عن حياتى ·· وعن الزوجة التى رحلت وقد كنت احببتها ·· ثم عن عائلتى أبى وأمى ·· وأخواتى ··

فذكرت لها أن زوجتى قد أحببتها طوال ٤٠ عاما ·· وهى أفضل منى ·· ولا أزال أحبها ·· أما أبى وأمى وأختى قد توفاهم الله ·· ثم أخى ظل حيا يرزق ··

قلت لها عن المنزل الذى صممه لى ولزوجتى حسن فتحى · وقد رحلت زوجتى قبل أن نتمه ·· أنا أقرأ وأكتب ولكن عينى ضعفت عن الابصار حتى أنى لايمكن أن أرسم بهذا الضعف ··

وبعد ستة أشهر انبأنى الطبيب المعالج أنه سيعمل جراحة فى العين لنزع العدسة المشوية ·· واعطانى نظارة بدلا عنها ·

حدثتها عن النشاط فى اتيليه القاهرة للفنانين التشكيليين والكتاب ··

كما حدثتنا عما سألت عنه·دانى أعجبت بهذه المؤسسة ·· « اتيلييه القاهرة » وظلت تسألنى عن عدد الأعضاء وعمن يرأس هذه المؤسسة ··

كان هذا الاتيليه محور اهتمامها ·· فى البيت سألتنى عن ومن الذى انشأه ·· وهل يوجد مؤسسات من هذا القبيل فى مصر ·· اذ لا يوجد فى فرنسا تلك المؤسسة التى تضم أعضاء الفن التشكيلى وآخرين من الأدب والشعر والموسيقى ·· تحدثنا عما أرادت ··

فى الصباح الباكر ودعت « دانى » والابنه الصغيرة ·· والابن ودعوتهم الى زيارة مصر ·· فى ضيافتى ··

كانت « دانى » تذهب الى كليتها فى عكس الطريق الى محطة القطار ونادت على جارها لكى يوصلنا الى المحطة ··

وكانت تدرس « الأدب الفرنسى » فى كليتها ..

فى القطار سألتنى « ميشيلين » كيف رأيت « دانى » . .ثم قالت انها حلوة .. ثم جذابة ..

قلت .. نعم .. انى اعجبت بها .. ولكنها فى سن الثمانية والثلاثين كما تقولين وانا فى سن الثالثة والستين فأنا اسبقها بربع قرن ... هل اذا طلبتها الى الزواج ترضى بذلك الفارق فى السن ... أنها يمكن أن تعطينى طفلا ، يرثنى ويرث أعمالى فى الفن سأكون سعيدا اذا قبلت الزواج ...

قد تعارفنا بمجهودك ... وانى شاكر لك تلك الأسئلة التى سألتنى « دانى » اياها فهى تعبر عن اهتمامها .. وعندما أصل الى القاهرة .. اكتب اليها .. بشعورى نحوها ... وأعرض عليها الزواج ..

كتبت اليها .. خطابا طويلا .. أعرض عليها الزواج .. كتبت الى .. خطابا طويلا .. ملخصه حينما نتقابل نبحث هذا الأمر سويا .. ثم نوهت بفارق السن .. !

فى عام ١٩٨٣ بعد سنة من تعرفى على « دانى » كتبت الى أنها ستزور مصر وأن على أن اساعدها فى هذه الزيارة .. وحددت اليوم والساعة فى مطار القاهرة فى شهر مارس حيث أنها فى اجازة لعيد الفصح اسبوعين وكذلك الأولاد ..

ذهبت أنا واحدى أقاربى الى المطار وتقابلت مع الاسرة .. وكانت قلقة .. ثم ما أن رأتنى حتى اطمأنت . وركبنا السيارة الى المنيب .. أنزلت قريبتى فى بيتها فى الدقى .. ووصلنا الى البيت ..

تركت لها المكان الذى أعيش فيه : حجرتين للنوم والحمام وأقمت أنا فى الغرفة العليا من المسكن وذلك الحمام الثانى ..

فى الأيام التالية .. زرنا المتحف المصرى .. المتحف القبطى ثم المتحف الاسلامى .. وكلهم شغوفون بهذه الزيارات .. ثم زيارة الأهرام ... دخلوا الهرم .. ولم استطع أنا وخرجت من ذلك النفق المخيف ... ركبوا الجمل .. ثم الصوت والضوء فى المساء . .

ثم فى اليوم التالى .. زرنا بيت ومتحف الخزاف درويش ومحيى الدين حسين .. وصوفى حبيب فى العمرانية .

ثم زرنا بيت ومتحف زكريا الخنانى وزوجته عايدة عبد الكريم . دعتهم على العشاء فى مسكنها بالدقى فى اليوم التالى .. وكان العشاء

رائعا ٠٠ وهم كسبوا المودة من كل الفنانين والأشخاص الذين قابلوهم فى مراسمهم وفى بيوتهم ٠٠

لقد حان وقت لزيارة أتيليه القاهرة ٠ وكان اسم اتيليه القاهرة فى فكر « دانى » وعلى لسان الأولاد ٠٠

فى أمسية فى الأمسيات ٠٠ زرنا الاتيليه وقد اعجبت « دانى » بنشاط الفنانين والكتاب : ان هذا المكان ليس موجودا فى فرنسا بهـذا الاجماع بين الشعراء والأدباء والفنانين التشكيليين ٠٠٠ كنت أود هذه المؤسسة ٠ وهذا الاتيليه أن يكون فى « لومان » بلدتها ٠٠ حيث أنهـا تام بالتشكيل والأدب والشعر والموسيقى ٠ ثم زرنا حامد سعيد وأصدقاء الفن والحياة ٠٠ اشتروا من الرسومات على ورق البردى من عمل احسان خليل زوجة حامد سعيد ، اذ كانت الرسومات من الفن الفرعونى متقنة تمـــاما ٠٠

***

حسن الأعصر ٠ استاذ فى كلية الفنون التطبيقية متزوج من ايطالية وله ثلاث بنات ٠ دعانى لرحلة فى مركب بخارية تقل اساتذة وطلبة كلية الفنون التطبيقية الى القناطر الخيرية على النيل العظيم ٠٠

وهذه الدعوة كانت بمناسبة أن « دانى » وأولادها قد طلبوا منى أن أرتب لهم رحلة فى النيل ٠٠

لبيت تلك الدعوة من الصديق حسن الأعصر فى صبيحة بعد غد ٠

وفى المساء اخبرت دانى والأولاد أننا سنركب النيل فى رحلة الى القناطر الخيرية حيث الحدائق الغناء ثم الشواطىء المخضرة عـلى النيل العظيم ٠ مدة أربع ساعات فى الذهاب ٠٠ والرجوع ٠٠ وعملنا على أن نقوم فى الصباح الباكر لنذهب الى الباخرة التى ستبحر فى الثامنة صـباحا ٠

ناموا ليلة الرحلة بعشاء خفيف فى وقت مبكر حتى يصلوا الى الباخرة فى الميعاد المحدد ٠٠

سارت المركب فى الثامنة والنصف وعليها الأساتذة والطلبة وهم فى هرج ومرج يغنون ويرقصون٠وهذا الاطار المبهج من الرقص والغناء أسعد الكل والعائلة الفرنسية ٠٠ كانوا يتعجبون ٠٠ ثم يصفقون مع الغناء والرقص ٠٠ ومع المصفقين من الطلبة ٠٠ وهم سعداء ٠

بعد ساعتين وصلنا الى الشاطىء بالقرب من القناطر ثم نزلنا فى حديقة بها قهوة ومطعم ·· شربنا الشــاى والقهوة مع سندوتشـــات أحضرناها معنا ···

مشينا فى الحدائق ·· وركب الأولاد العجل ·· ثم رجعنا الى الموقع ·· اذ أن هناك شاليهات وحمامات · وفى الظهيرة أخذنا غذاءنا فى المطعم مع حسن الأعصر وعائلته ثم فى العصر أخذت الباخرة فى الرجوع ···

وكان ذلك اليوم ممتعا جدا للأسرة الفرنسية ··

مر أسبوع من اجازة « دانى » وبقى أسبوع ·

هناك فرصة لزيارة الأقصر ··

معابد الأقصر ـ الكرنك ·· الضفة الغربية من النيل ·· القرنة مقابر الملوك والملكات ·· رامسيوم ·· مدينة هابو ··

ذهبنا الى مكتب طيران مصر ·· وطلبت أربع تذاكر الى الأقصر ·· ذهابا وايابا ··

فى اليوم التالى كنــا فى الأقصر ·· بعد ســاعة ونيف · ! أخذنا « المعدية » للبر الغربى ·· فنزلنا فى فندق الشيخ على عبد الرسول وكنت أعرفه من زمن مضى ·· وقد رحب بنا ·· الشيخ على وأعطانا غرفا فى الدور الأعلى ·· وقد أصرت دانى أن أطلب من الفراش أن يجهــز لها فى حجرتها ثلاثة أسرة ·· لها ولأولادها ·

فى الساعة السابعة فى الصباح الباكر نفطر فى الهــواء الطلق فى حديقة الشيخ على ثم الغذاء فى الهواء الطلق أيضا ··· العشـــاء فى الداخل ··

زرنا··الرامسيوم · مدينة هابو قريبة من الفندق ثم الدير البحرى معبد حتشبسوت ·· وهو بعيد عن الفندق · قال الشيخ على ان هناك طريقا يخترق تلك التلال ·· ثم تجد الدير البحرى ·· أمامك ·

سلكنا هذا الطريق ··· فى المنتصف أخذ الطريق ينحنى انحناءات : نرى بيوتا آهله بالسكان ·· ولا نرى الطريق الى المعبد · رأيت صبيا سنه أربعة عشر عاما وسألته من أين الطريق الى الدير البحرى ؟ مشى أمامنا فى تلك الانحنات ومشينا جواره ·· بعد عشر دقائق رأينا الدير البحرى على مسافة منا ·· قادنا الصبى حتى المعبد ·· وقال ان ·· هذه المنحنيات ·· ربما تستعصى علينا فى الرجوع ··

وفى العودة سار الصبى أمامنا حتى وصلنا الى بيته ثم دعانا لشرب الشاى واعتذرنا ٠٠ أخرجت جنيها من جيبى لأعطيه اياه ٠٠ فاعتذر ٠٠ وأبى ٠٠

شاهدت « دانى » الصبى وهو يرفض البقشيش ، وكان هذا أجره على مصاحبتنا ٠٠ ثم قالت انهم فى فرنسا أفهمونا أن مصر بلد «البقشيش» ٠٠ ولكن ذلك الصبى أبى « البقشيش » أو قل أجره على مصاحبتنا ٠٠

أحسست أنا بفخر ٠٠ أنا ومصر ٠٠ من اباء هذا الصبى ٠

فى الصباح زرنا « راموزا » ثم مقبرة « سيتى » يمتد عمقها تحت الأرض بضع عشرات من الأمتار ٠

وعدنا الى الفندق متعبين ٠٠٠

أوصى الشيخ على عبد الرسول طباخ الفندق بطهى طعام مخصوص للفرنسيين ٠٠ « بطة بالفريك » ٠

كان الطعام شهيا ٠٠ اختفت البطة ومعها الفريك ٠٠ تماما ٠٠ شعرت « دانى » بعينيها تلتهب ٠٠ سألت اذا كان هناك طبيب للعيون فى الأقصر ٠٠ ووصف الشيخ على دكتورا اخصائيا هو طبيب مستشفى الرمد فى مدينة الأقصر ٠٠ وأن عيادته تقع فى شارع كذا ٠٠ من السابعة الى العاشرة مســـاء كل ليلة ماعدا الجمعة ٠٠ وقد استرشد تلفونيا من العيـــادة ٠٠

ذهبنا الى الأقصر المدينة ٠٠ وفى « العربة الحنطور » ٠ ذهبنا الى الكرنك ٠٠ حيث الضوء والصوت باللغة الفرنسية ٠ وقد اشترينا أربع تذاكر ٠٠ وذكر لنا الموظف المختص ٠٠ اذا لم يتم العدد الى ثلاثين تذكرة ممكن أن يعيدوا لنا التذاكر ونسترد نقودنا ٠٠٠ ولما كنا أوائل الأفراد فى ذلك الحفل ٠٠ كنا نعد كل من يأتى حتى يكملوا الثلاثين فردا ٠٠ ثم ٠٠ بعد نصف ساعة كانت المئات من الناس الذين يتحدثون الفرنسية قد قدموا لهذا الحفل ٠٠

كان الحفل رائعا ٠٠ من مدخله ٠٠ ثم الجلوس حول البحيرة المقدسة ٠٠٠ الصمت رائع ٠٠ والموسيقى تتخلل أعصابنا ، والكلام مدلوله يحكى تراث الفراعنة فى رصانة التعبير ٠٠

لقد كانت حفلة مؤثرة ٠٠ حتى الآن ٠٠

خرجنا من الحفل ٠٠ الكل صامت من تأثيره العميق ٠

تحركنا نحو « الحنطور » وكان فى استقبالنا بعد الحفل ٠ ذكرت

له عنوان الطبيب ·· نزلنا ·· وقفنا فى أسفل سلم عال ·· والطبيب بمعطفه الأبيض يميزه ·· صعدنا السلم رحب بنا الطبيب ·· وقلت له أنا مصرى وهؤلاء الأسرة فرنسيون وهم ضيوفى ··

وصفت « دانى » الداء فى عينها ·· بالفرنسية وترجمت أنا بالعربية ··

كشف الطبيب على عين « دانى » وذكر ·· أنها حساسية ·· ستزول قريبا ·· ووصف لها الدواء ···

لمحت الزيارة فى كشف معلق على الحائط : خمسة جنيهات قدمت له مع الشكر الزيارة ·· رفض الطبيب قائلا ·· أنت المصرى وضيوفك الفرنسيون ضيوف عندى ··

لاحظت « دانى » أن الطبيب لم يأخذ الزيارة وطلبت أن أشرح ذلك قلت لها ·· ما قاله الطبيب ··

تعجبت ·· ! ان هذا لايمكن أن يحدث فى فرنسا ··

نحن فى مصر ··

سعدت بموقف الطبيب ··

وسعدت من اندهاشها ··

فى اليوم التالى وصلنا من الأقصر الى القاهرة بالطائرة وفى الغد انتقلنا الى مطار القاهرة حيث تذهب العائلة الى باريس ، وصلنا الى المطار ·· اذ لابد لنا أن نصل قبل قيام الطائرة الفرنسية بساعتين ·· هذا ماقيل لنا ·· وصلنا متأخرين عشر دقائق ·· قابلتنا سيدة ·· لبنانية مصرية ·· تنطق بالفرنسية والعربية : قالت ان تذاكركم ملغاه للرحلة هذه ·· أنتم متأخرون ·· وذكرت « دانى » أن الطائرة فى المطار ولم يحن الوقت لطيرانها وأن تذاكر السفر قد أكدت فى مكتب الطيران فى القاهرة ··

ثم جاء موظف فرنسى ·· وقال ان التذاكر قد بيعت لأفراد فى كشف الانتظار « Waiting List » ·· وأن هناك أفرادا غيركم قد تأخروا وبيعت تذاكرهم ··

اشتد غضب دانى مما ذكره الموظف الفرنسى ·· ثم تركتها للشكوى الى مدير المطار ·· ودخلت مكتبا لوكيل المطار ·· فهدأ روعى واستمع الى وقلت ان هناك أربعة عشر فردا بيعت التذاكر لأفراد غيرهم ودفعوا الرشاوى ···

استدعى وكيل المطار السيدة والموظف الفرنسى ·· هذه العائلة ·· لابد أن تسافر الى باريس الآن ·· وأن هناك طائرة مصرية تقوم بعد ساعتين وليس بها الا أماكن فى الدرجة الأولى ·· أرجو أن تحولوا التذاكر الى طائرة مصر بالدرجة الأولى ·· كانت الخسارة على الطائرة الفرنسية خمسمائة جنيه ··

طارت دانى وأولادها فى الدرجة الأولى على طائرة مصرية الى باريس ·· كانت الرحلة موفقة فى مضمونها ··

طوال اسبوعين أحببت تلك العائلة ·· ومعهم أمهم ··

كتبوا الى شاكرين تلك الرحلة ، التى لن ينساها كل فرد منهم ·· ودعونى لزيارتهم فى الصيف ، فى السنة القادمة ·

باريس فى ١٩٨٣/٧/٨ ·

سافرت اليوم من بنيوليه « Bognolet » حيث منزل الفنانة ميشلين ماسى ·· مع الفنانة الى « لومان « Le mans عند صديقتها « دانى « Dany » ··

كانت الرحلة ممتعة للغاية ·· اذ كنا فى سيارة حديثة · الصديق عرض علينا أن يذهب بنا نظير ثمن البنزين لا غير ·· !

كانت الرحلة التى استغرقت ٤ ساعات مبعثا لتفكير مستمر أثناء الرحلة وبعد الوصول ·· الطريق « اوتوروت » معبد بطريقة ترقى الى الامتياز ·· العربة تنزلق انزلاقا مريحا طوال ٢٤٠ كيلومترا دون أن نشعر بخدش ولا أقول بمطب أو حفر ··

الطريق رائع ـ العلامات الدقيقة تعطينا كل ما نرغب فى معرفته ·· بعد كل عشرات الكيلومترات ·· ينسحب من الطريق العام طريق جانبى ·· لكى تستريح السيارة ويستريح فيه المسافرون ·

دورات المياه فى غاية النظافة ·· والعناية بمظهرها الخارجى والداخلى على أكمل وجه ·· كما وضعت طاولات من الخشب ثم المقاعد لكى يتناول المسافرون مما أحضروه من مأكول ومشروب ·· اذا رغبوا وتتعدد محطات البنزين والكفاتيريات ذات الخدمة الذاتية فى بعض المحطات ··

شىء رائع ·· نظيف للغاية ·

كانت هذه المشاهدات السريعة طوال الطريق ·· مبعثا لتأملى طوال الرحلة ·· هلا يمكن لنا فى مصر أن نبنى مثل هذا الطريق الرائع مع

ما شاهدته من أنظمة أشعرنى بكرامة الانسان ٠٠ كرامة الانسان حيث شعر بها من نسق هذا الطريق بمشتملاته ٠

فى أول الطريق كان يعطى للسائق تذكرة بالكيلومتر الذى بدأ منه٠عند وصوله الى المكان الذى يريده يعيد التذكرة الى الموظف المختص٠٠ فى كشك ٠٠ الموظف يدخلها الآله الحاسبة ثم تخرج القيمة والثمن الذى يجب على السائق أن يدفع نظير استعمال هذا الطريق ٠٠ كل هذه العملية لا تستغرق ثوان معدودات ٠٠ هذه المبالغ يعاد استثمارها فى صيانة الطريق أو عمل طرق أخرى ٠٠

هل أحلم قليلا وأرى طريق مصر الاسكندرية سواء الطريق الزراعى أو الصحراوى قد عبد بهذه الطريقة الممتازة ، وأدخل عليه ما شاهدت من أنظمه ٠٠ وليكن رسم المرور مجزيا ٠٠ مثلا دفعنا فى مسافة ٢٠٠ كيلومترا حوالى خمسة جنيهات ٣٨٠ فرنكا ٠٠ ودفعنا مثلها عند العودة ٠٠

ان هذا المبلغ ليس بكثير اذا قيس بالراحة الكبرى التى شعرنا بها أثناء الرحلة٠٠٠ أرجو أن يتحقق هذا الحلم فى يوم قريب٠هذا سيجلب السعادة لكل من يستعمل الطريق ٠ ٠

بل انه سيشعرهم بآدميتهم وكرامتهم ٠٠ انه ليس مجرد طريق ٠٠ ولكنه فن « التربية » لسلوك الناس ٠

بعد رحلة أربع ساعات من باريس بالسيارة وصلنا الى بيت « دانى » فى « لومان » ٠٠ دانى مع أولادها « جان كريستوف وآن سيبل » يرحبون بنـــا ٠٠٠

وتحدثنا بعد الغذاء عما يمكن رؤيته من الأماكن الأثرية أو الأماكن الجميلة ٠٠ القريبة أو البعيدة ٠٠

فذكرت « ميشيلين ماسى » أن مكانين لابد لى أن أزورهما ٠٠ قصور « اللوار » أو « مونت سان ميشيل » ٠

لقد اتفقنا ٠٠ فى الفن أن نزور قصور اللوار ٠ أمضيت الليلة فى بيت «دانى» الذى يقع فى وسط بقعة غابة من الصنوبر ٠٠ مكان جميل ٠٠ وبيت نظيف منسق ٠٠ وأفردت لى دانى حجـــرة مريحة ٠٠ ونمت حتى الصباح ٠٠

فى السادسة صباحا ٠٠ استيقظت من النوم ٠ بعد الحمام لبست ثيابى ونزلت من حجرتى ٠٠ فتحت الباب ٠٠ كلبان كبيران ينامان داخل المنزل للحراسة ٠٠ كان الجميع مازالوا نياما ٠٠

أخذت كراستى هذه لأدون فيها هذه السطور ·· !

خرجت الى الحديقة ·· وهى غير منسقة بالمرة ·· تنبثق فيها أشجار الصنوبر على طبيعتها ·· فى رفعة وجلال · وقد بدأت اشعة الشمس المبكرة تضفى على جذوعها ·· ألوانا دافئة ·· تختلف من شـجرة الى شجرة فى المساحة التى تضيئها ·· تنتقل من أسفل الى الوسط ومن الوسط الى الأطراف العليا ·· ثم تعود ثانية الى أسفل الجذع · كنت أراقب هذا الضوء من الشمس الذى يلعب سيمفونية على جذوع ووسط وأطراف هذه الأشجار ·· فى بهجة وفرح داخلى صامت ··

كان القلم وما أسطره ·· يفسر لى على الورق فى طريقه – فى لمحات خاطفة تنتقل من العين الى الفكر والحس بما يغنيه وما يبهجه ·

***

كانت الكلاب وقد اطلقتها من المنزل تزعجنى قليلا · فقد دأبت على معاكستى ·· فوق المنضدة التى كنت أكتب عليها فى الحديقة ·· تقف على كراستى تمـــاما تمنعنى كلية من الكتابة · كنت أربت على رأسها الضخمة وقد أظهرت أنيابها من خلال هذا الفم الضخم ··

فكرت فى حل لهذه المصيبة ·· ذهبت الى الحظيرة لحبس الكلاب فى نهاية الحديقة ·· وفتحت بابها فدخل الكلبان مطمئنين تماما ·· انهما يلعبان اللعبة معى ·· ثم انى اغلقت الباب عليهما ولم يكن الغلق محكما ·· وما شعرت الا والكلبان يفتحان الباب عنوة ·· ثم يهجمان على · معاقبين عن الطريقة الماكرة التى عاملتهما بها ··

انهما يلعبان معى ويحاولان مداعبتى وأنا أرد المداعبة بالربت على رأسيهما تارة وعلى ظهريهما تارة أخرى ··

ماذا جرى ·· أنا قمت بخداعهما ·· وحبسهما ·· كانا يلعبان معى من قبل فى سرور ·· ولكن الآن لقد شعرا بالخديعة ·· انهما يحاولان الانتقام ·· كان هجوما خاطفا ·· قفزات عالية حتى أعلى رأسى أنا ·· فاغرين فاهما ·· مكشرين عن أنيابهما ··

عمدت الى اللين ·· محاولة الربت على الرأس ·· ولكنهما يبتعدان عنى سريعا ويعاودان الهجوم مرة أخرى ولكن ·· قد خفت حدته · وعادت المحاولة والربت على الرأس فهدآ قليلا ·· ولكن آثرت الدخول الى المنزل · ومعاودة الكتابة فى الداخل · أسرعت الخطى نحو المنزل ·· ولكن متثاقلا

بعض الشيء ودلفت الى الباب بخفة · حاولا ملاحقتى ·· أغلقت الباب توا ·· وها أنذا أكتب داخل المنزل · أرى الكلبين من خلال الباب الزجاجى · جاثمين أمامى ·· يرقبانى ··

انى لارجو أن تنسى هذه الكلاب تلك الطريقة الخادعة التى سجنتهما بها بالحظيرة ·· وأن يفهما أن هذا لم يكن للاساءة اليهما ··

حدث ليلة أمس أن زارتنا زميلة لدانى فى كليتها ·· تناولت معنا الشاى فى الحديقة خارج المنزل ·

هى فى الثلاثين من عمرها ـ تزيد قليلا كما قيل لى ·· وكنت ألمح الشيب دق خط شعرها··ولكن وجهها لايزال شابا · انها ليست جميلة ـ لكن لها عينان واسعتان تلفتان النظر لأول وهلة · ربما لا تتسق هاتان العينان مع وجهها الضئيل نسبيا ولكن هاتان العينان · تحرك فى الناظر اليها مشاعر كثيرة ··

بدأت الحديث معى ·· عرفت منها أنها مدرسة وزميلة « لدانيل » وقد عرفت انى من مصر وأن مهنتى مصور ·· وبعد قليل كانت تدلى بملاحظات فى غاية الدقة · من الحس والفهم ·· بل انها مليئة بالمشاعر الفياضة ·· طلبت منى بعض الفوتوغرافيات لبعض أعمالى ·· تذكرت انى أحضرت معى بعض نسخ من كتالوج معرض ١٩٧٦ ·· أنا وزوجتى الراحلة عرضت عليها الكتالوج وبه من صورى وتماثيل عايده ··

ثم أبدت ملاحظات فى غاية الدقة والرهافة بغير ابداء الاعجاب الزائد · كنت اندهش من موضوعيتها فى قراءة العمل الفنى من صورة فوتوغرافية صغيرة ·· بهذه الدقة والموضوعية ·· فى تذوقه ··

انها « بريجت » ·· هذا هو اسمها ··

جلست معنا فترة طويلة حتى موعد العشاء ·· تناولنا قليلا من المشروب ثم تناولنا العشاء ·· أنا ودانى وأولادها · والفنانة ميشيلين ماسى ثم بريجيت ·· وفى نهاية العشاء دق التليفون طالبا « بريجيت » · وأن صديقها « جان فرانسوا » قد توقفت به السيارة وأنه مريض ·· ثم طلب بريجيب أن تنجده ·· انه فى « ديجون » وهى تبعد عن « لومان » ما يقرب من ثلثمائة كيلومتر فقامت بريجيت ·· تتحسس أنوار سيارتها الصغيرة ·· أنوارها ضعيفة ·· ! وقد عرضت دانى أن تذهب معها فى سيارتها ·· ولكن بريجيت رفضت · اذ كان صديقها محبوبا من الجميع ·

أخذت سيارتها ·· وهي غير مضمونة بالمرة ·· لتقطع ٦٠٠ كيلومترا فى الغدو والرواح الى لومان ·· لكنهـا تحبه ·· ولتذهب الى الجحيم وراء الحبيب ·

لقد وصلت بريجيت مع صديقها فى السابعة صباحا ·· بعد عشر ساعات ·

استيقظت مبكرا فى تمام السابعة من صباح اليوم بالرغم من اننى لم انم الا بعد الثالثة صباحا ·· وكنت أفكر فى هذه البريجيت التى تغامر بسيارتها الصغيرة القديمة ذات الأنوار الضعيفة ·· ثم تلاقى الصـديق المريض ·· وتنقله الى « لومان » ·· بعد عشر ساعات فى بهيم الليل ··

اننى لا أعرف بالضبط اسم المكان الذى نزمع زيارته ولكنى أعرف أنه كنيسة ما ·· ينشدون فيها الأناشيد الدينية « الجريجورية » · استمعت الى مثل هذه الأناشيد من اسطوانة وكانت ممتازة وأرجو أن استمع اليها من المنشدين رأسا ·· اليوم ·· فى الكنيسة ··

أعدت دانى طعام الافطار · تناولناه سويا مع بنتها « سيبل » ثم عدت الى الكتابة ثانية ··

ان الكلبين الكبيرين ·· يداعبانى مداعبة ثقيلـة ــ فى الحـديقة لااستطيع الاستمرار فى الكتابة وهما فى هذه المداعبة المقلقة · عزمت على الدخول الى المنزل ·· أقفلت الأبواب حتى أتمكن من التخلص من هذه المداعبات · دخلت المنزل بالرغم من ثقل الجو وحرارته · اذ كنا فى شهر يوليو ·· الأبواب مغلقة وكذا النوافذ ·· عدت أكتب هذه السطور فى هذا الجو الثقيل ·

***

« دانى » سيدة مثقفة ·· على جانب ليس بالقليل من الجمال الساخن ·· المشرب بخفة فى الروح ··

تنتمى فى بعض أصولها الى ايطاليا ·· هى فرنسية المولد مدرسة للأدب الفرنسى ومنزلها جميل ·

انها سيدة محترمة محبوبة من الجميع ·· موضوعية التفكير والتصرف لا تعرف الحلم ·· الا ما تعرف أنها ستحققه ·· قريبا وقريبا جدا ·· انها واقعية · انها لا تحلم ·

ذهبنا أمس الى مطعم « مدموازيل راباش » هذا المطعم حائز لشهرة فى « لومان » انه مطعم جيد ·

« مدموازيل راباش » سيدة تجاوزت الستين من عمرها تشتهر بطعامها الجيد الذى تتعدد ألوانه وطهيه على الطريقة الفرنسية القحة ·· ليأكل الزبون ما يريده من السلاطات ·· والأسماك ·· واللحوم ·· وكل شىء من قبل أن يقدم له الطعام بنظام على المائدة ··

انه مطعم شهير فى ضواحى بلدة لومان ·· وهو غالى الثمن نسبيا ··

الغذاء مائة فرنك فى هذا اليوم للفرد ·· حوالى ٤٠ جنيها ·· الحر كان شديدا فى المكان المقفل وليس هناك استعداد لاستعمال التكييف ، أو المراوح ··

لما دعوت « مدموازيل راباش » الى مصر لتفتح محلا مماثلا فى جودة الطعام على ضفاف النيل ·· قالت انها لا تحب الحر وأن اليوم هو آخر أيام المطعم اذ ستأخذ أجازة الصيف حتى آخر سبتمبر ·

***

« دانى » فاجأتنى ·· فى اليوم التالى ·· بأن بريجيت ·· صديقتها ·· تصلح للزواج « منك أنت وأنها شعرت باعجابها بى وكانت تنفرد بالحديث معك أطول مدة ممكنة » ·

قلت ·· لدانى ·· اننى لا أفكر فى الزواج الا من دانى وان عندى من الصبر الكثير ·· أن لها مشاكل كثيرة ليس من السهل حلها ·· طلاقها ·· أولادها ·· وظيفتها ·· فارق السن بينى وبينها ··

هكذا كنت أفكر معها ·· وأعتقد أن الصداقة بيننا ·· أبقى !

***

غدا ·· يوم عيد فى فرنسا ·· عيد الحرية ·· عيد الأخاء ·· عيد الثورة انهم لا يزالون يحتفلون به ··

لقد حضرت ١٤ يوليو سنة ١٩٣٩ فى باريس ابان دراستى · قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية ·· مباشرة ·· كانت شوارع باريس تغض بأفواج الباريسيين من رجال ونساء ·· يرقصون ويمرحون فى صخب وفرح وها أنذا أعود الى فرنسا فى ١٤ يوليو سنة ١٩٨٣ هل هم مازالوا على نفس النهج فى احتفالاتهم يرقصون ؟ ·· نعم ··

كان الاحتفال بعيد ١٤ يوليو سنة ١٩٨٣ ٠

يبدأ فى منتصف الليل تقريبا بالألعاب النارية « الصواريخ » ٠ ذهبنا الى بيت أحد أصدقاء دانى لمشاهدة الاحتفال ٠٠

وبعد انتهاء الحفل عدنا الى المنزل حيث شاهدنا حلقات الرقص فى الشوارع ٠٠ كما اعتدنا رؤيتها فى سنة ١٩٣٩ ٠

***

تناولنا الغذاء أمس « البط مع البرتقال » قامت ميشيلين بعمله وهو من ابتكارها ٠٠٠

تناولت معنا الغذاء صديقة « لدانى وميشلين » ٠٠ كوليت وهى سيدة شقراء قد جاوزت الأربعين بقليل ٠٠ تقطن على بعد ٦٠ كيلومترا من « لومان » تدير منتدى للرقص فى بلدتها يفتح فى العاشرة مساء حتى الرابعة صباحا ٠٠

تنام نهارها وتسهر لياليها ٠٠ تدير هذا المنتدى منفردة ٠ قالت لى أنها بدأت حياتها « فلاحة » تعمل فى مزرعة أبقار ٠٠ ترعاها وتحلبها ٠٠ كانت حياتها شاقة للغاية حينذاك !

ولقد سألتها ٠٠ « هل حياتك الآن أفضل ٠٠ ! »

أجابت ٠٠ نعم ٠٠ وهى ناظرة الى باستغراب ٠٠

« نعم انك تربحين أكثر الآن ٠٠ بلا شك » ٠

خفضت بصرها قليلا ٠٠ بغير تعليق ٠٠

غادرت « كوليت » فى الثانية مساء بعد أن دعتنا لتناول العشاء عندها ٠٠ فى بيتها الذى يقع بمقربة من الطريق الى «مونت سان ميشيل» وقد أكدت دعوتها لى أكثر من مرة ٠٠٠

ذهبنا الى « دير ليفار » ٠٠ هناك وجدنا خليطا من الفن الرومانى والقوطى فى العمارة ٠٠ كانت القاعة الكبرى مخصصة لنوم الرهبان ٠٠ طولها ٤٦ مترا وعرضها ٢٠ مترا وقد أقيم فيها معرض للوحات ثلاثة من الفنانين أحسن ما فيهم ٠٠ ردىء ٠٠

فكرت دانى فى عمل معرض « لميشيلين ماس » فى هذه القاعة ٠٠ اتصلت بالمسئولين ٠٠ وكان « باتريك بورجوت » هو المسئول عن هذه المعارض ٠٠ وقد عرضنا عليه وقد رحب بمعرض لميشيلين ٠

ميشيلين فنانة ٠٠ تلقائية ٠٠ تقريبا ٠٠ بغير دراسة اكاديمية ،

ترسم ما تحبه .. أشجارا ومياها .. منازلا وكباريا .. واذا ما حاولت اضافة أى شيء لهذا المنظر .. مثل الأبقار أو الدجاج . قد تبدو مضحكة .. لا تنسجم مع بقية العناصر التى أحستها من خلال تلك الأنوار التى تنبع من أسفل . تلك العناصر المائية التى برعت فى التعبير عنها بالألوان الزيتيــــة .

وهى حساسة للمناظر الطبيعية .. والزهور .. تبيع لوحاتها .. لتعيش منها .. تستطيع فى بضع ساعات انهاء لوحة متوسطة الحجم .. واذا احتاجت بعض « الرتوش » فانهـــا تفعل ذلك عنـــدما تأتى الى الاســـتوديو ..

تقضى ساعات طوال فى تأمل الطبيعة والمنظر .. ولكن بالرغم ذلك فهى تعكس شخصيتهـــا .. بغير قصـــد أو بوعى منهـــا ـ عـــلى كل ما ترســـمه ..

ان « ميشيلين » شخصية غريبة..انها تأكل وتعب الخمر من أردأ أنواعها .. حتى تفقد وعيها وحينئذ تنقلب من انسانة طيبة .. محبوبة المعشر .. خلاقة بانية لكل شيء ـ الى انسانة متوحشة .. هدامة لكل شيء : انها لتأتى بأفعال لا يمكن أن تصدق .. بل اننى أخجل مما تأتى به اذا ما سكرت . انها تفعل أى شيء .. أكرر أى شيء ..

ولكن عندما يذهب عنها سكرها .. تعود الى هدوئها وطبيعتها ثم مجاملتها لكل من تعرفه ومن لا تعرفه ..

اعطتها « دانى » ملابس جديدة .. بنطلونات وقمصان وفساتين .. لأنها جاءت معى .. وهى تلبس بنطلونا ممزقا ومن هذه الثقوب وتمزقاتها .. كاد بعض أجزاء حساسة من جسدها يظهـــر للرائى .. كنت أشعر بحرج شديد من هذا المنظر .

ولكن الاعجب من هذا أنها لبســـت بنطلونا شبه جديد أخذته من دانى .. وكذا قميصا جميلا بأكمام طويلة .. ثم خرجت بها فى الصباح الى رسم منظر طبيعى .. وعندما عادت فى الساعة الواحدة بعد الظهر .. كان المنظر غريبا .. لقد قطعت أكمام القميص .. بالسكين .. ولما سألناها عن السبب فقالت : أكمام القميص تعوقنى فى عملى .. وكذلك قد قطعت رجل البنطلون .. اذ لم أجد خرقة أمسح بها فرشاتى .

لكنها اضطرت الى قطع الرجل الثانية حتى لا تظهر مضحكة .

اعتادت « دانى » أن تذهب الى باريس فى يوم الثلاثاء من كل أسبوع

الى الطبيب المعالج لجار فى العشرين من عمره والعودة به الى لومان فى التاسعة مساء ٠

كانت كنيسة « شارتر » فى منتصف الطريق من لومان الى باريس ٠٠ اقترحت على « دانى » أن أصل الى شارتر فى الرابعة ٠٠ وأعود معهم فى التاسعة مساء فى نفس السيارة ٠٠

ولقد كنت أرجو أن أزور « كتيدرال شارتر » ، بعد أن أقمت بها حوالى الشهرين فى أجازة الكلية ٠٠ من عام ١٩٣٩ ٠

من الرابعة حتى التاسعة مساء فترة يجتاحنى فيها ما أحسسته فى عام ١٩٣٩ ٠٠ لما كنت طالبا ٠ واتفقنا على أن نتقابل فى القهوة المقابلة للكتدرائية ٠٠ « ملكة سبأ » ٠٠

فى الطريق ٠٠ ومازلت فى السيارة ــ لمحت أطراف الأبراج فى الكتدرائية ٠٠ تشق عباب الفضاء فى حده وتحد ولكن ٠٠ فى رفق وتؤده ٠٠ فى عظمة وشموخ ٠٠ فى جلال ٠ ملك الملوك يسبح فى تمهل وقوة فى كبر ونبل٠٠انه يشق الفضاء شقا : سيف صقيل حاد٠٠قاطع ٠ هزتنى حدته وهزنى شموخه بنبله ورفعته ٠٠ ولكن ما ان دلفت الى داخل الكتدرائية ٠٠ حتى وجدت هذه الحدة بالرغم من أنها احتفظت بشموخها ــ قد لفتها الرحمة ٠٠ ولفها الحنو ٠ وقد بذلت جهدا للانتقال من ذلك السيف القاطع من خارج الكتدرائية الى ذلك الحنو الغريب فى الداخل ٠ ذلك الحنو اعتصر قلبى ٠٠ امتلأت حنايا النفس بذلك الهدوء القلق ٠

ها هى الكتدرائية قد اظلمت الا من الأضواء الخافتة التى تتسرب من النوافذ ذات الزجاج المنسق بالرصاص ، والتى حوت من الرسوم الملونة الرائعة ما يضفى على هذا الجو رونقا رائعا ومزيدا من قوة التأثير فى ذلك الحس الذى اعترانى ٠٠ والذى يتمهل فى طريقه متلصصا الى قلب ٠٠ قلب النفس الانسانية ٠

هأنذا انتحى جانبا فى مقعد قصى عن الزائرين لأقرأ ما سطر من هذا الجو ٠٠ الآخذ فى تلابيب النفس والممسك فى خناقى ٠٠ لكن فى رفق وحنو ٠٠ وحب ٠٠

بل جلست أتأمل٠٠داخل نفسى ٠٠ وخارج نفسى ــ جلست أتأمل تلك العمارة الرائعة ٠٠ داخل المكان ٠٠ وكيف كان لها هذا التأثير ٠٠ المريح الحانى ٠٠ المتعب القاسى فى آن واحد ٠٠ هل ٠٠ معمارية العمارة ٠٠ ضخامة الحس الذى نفذ الى نفسى ٠٠

زرت هذا المكان « شارتر » منذ ٤٣ سنة ٠٠ أعجبت به ٠٠ للتركيب الرائع المترابط ٠٠ الذى يشق عنان السماء ثم التماثيل وأعمال النحت البارز ٠٠ تكاملت مع هندسة المارة وروحها ، التى استنفذت من عمر فرنسا ما يربو على مائتى عام ٠

عاش بانوها حس المبنى وروحه طوال أربعة أو ثمانية أجيال ٠٠ والعمل ينمو ويتكامل بنفس الروح والحس الرائع ٠٠ !

انه روح وحس فرنسا ٠٠ فى تلك الحقبة من الزمان ٠ «شارتر» فى اعتقادى هى أعظم عمل معمارى فى أوروبا قاطبة انها فرنسا فى أوجها وعظمتها الروحية والمعنوية ٠

***

بعد كسل نام جسمى متعبا من رحلة « شارتر » ٠

فكرى يعمل ٠٠ يشتغل ٠٠ بل يتوهج لحظات قصار ٠٠ ممتلئا بذلك الحس الجبار الذى كان يشع من « شارتر » بينما جسدى يستريح تماما ٠٠ لايجد أى دافع أو ارادة تحركه ٠

ان الارادة كلها تجمعت لتحضير الجو الملائم للتأمل وسط تلك الاحاسيس الرائعة ٠٠ ملكتنى منذ أمس ٠٠ مصدرها الخلاق « شارتر » ٠ انى أسترجع تلك الأحاسيس ٠٠ فتعود ليس بارادتى ٠٠ ولكن طغيانها وتوافقها مع ارادتى ٠٠ كفيلان ٠٠ بفيض جديد من الأحاسيس المستعارة من النفس ٠٠ أقوى بكثير من سابقتها المباشرة ٠

***

فى الغد ذهبنا الى منطقة اللوار : قصور اللوار ٠٠ وأمضينا يومنا هناك ٠٠ القصور جميلة بالموقع الجميل ٠

كان اليوم التالى الموعد المحدد لزيارة **Mont St Michil** مونت سان ميشيل » هذا المكان بعيد أكثر من مائتى كيلومترا عن « لومان » بخلاف الانحرافات الواجب اتباعها فى الذهاب والعودة حيث كانت زيارة منزل كوليت ٠٠ على البحر ٠٠ وكذا تناول العشاء أرهقت « دانى » ارهاقا شديدا فى قيادة السيارة ٠٠ الجو حار بل شديد الحرارة فى بعض الأحيان ٠٠ تغدينا فى منتصف الطريق فى مطعم لطيف ، ثم عاودنا السير حتى وصلنا « جبل سان ميشيل » ٠

موقع ممتاز .. ترتفع الكتدرائية أكثر من مائة متر فوق الصخور .. تحبط بها المنازل القديمة ..

صعدنا ثلاثتنا .. أنا ودانى وميشيلين .. فوق الدرج وقد سبقته طريق صاعدة ..

ان صعود الدرج فى هذا الجو الحار الرطب كان نوعا من العذاب .. تحملته فى مشقة .. وبعد المشقة أجد الراحة والعزاء .. ان المنظر لرائع حيث أطل عليه من عل : يمتد الشاطىء ثم البحر فى هذا الجو الرمادى المائل الى الزرقة وهو نادر فى فرنسا ..

كان امتداد البحر اللانهائى يشدنى أكثر من عمارة الكتدرائية عشر مرات .. انه الاحساس باللا محدود ..

وذلك غير الاحساس بالمحدود داخل المكان نفسه.. داخل الكنيسة . لم يرق أبدا الى ذلك الذى أحسسته بالنظر من شرفات المكان الى أسفل .. ثم الى الأفق الذى يمتد أكثر وأكثر كلما أرنو اليه من أعلى .

هكذا كانت متعتى بزيارة « جبل سان ميشيل » رائعة .. المكان ككل وموقعه .. أشدنى بالاتساع « جرانديز » اللانهائى . غمرنى بموسيقى تمتلىء بالروحانية والسمو ..

ان الموسيقى بالنسبة لى هى توأم العمارة .. اذا ما تعدى النطاق المحلى ومجرد ادخال السرور والرضى على نفس الانسان .. انها أكثر وأكبر من ذلك .. ترتفع بنا الى آفاق أعلى وأعلى .. حتى نشعر اننا فقدنا الشىء الكثير من الشعور بالذات .. والتشبث بهـــا الى حد التوقف عن حدودها .. حدودها الضعيفة ، حـدودها الخائفة والقاتلة فى كثير من الأحيان بالرغم من تطلعنا الى غير المحدود .

ارتحلنا بالسيارة الى قصور اللوار .. وهى عديدة . سرنا أكثر من ١٥٠ كيلومترا . ثم وصلنـــا الى « شـــامبور » فى الظهـــر .. كان ميعاد الزيارة الأولى قد انتهى وسيبدأ الثانية بعد الظهر بمقدار ساعتين . اقترحت أن نتناول الغذاء فى أقرب مطعم .. تناولنا غذاءنا فى الهواء الطلق .. حيث لم يكن هناك غير غطاء خفيف « تنده » .

كان الطعام جيدا ..

أكلت جبن الماعز فى هذه المنطقة .. كان جيدا للغاية وقيل لى ان هذه المنطقة شهيرة به .

هى أحسن منطقة تنتجه .. ربما لجودة المراعى .. ثم لطريقة صنعه وحفظه فى الكهوف الطبيعية التى تكثر فى هذه المناطق .

هل ميعاد الزيارة للقصر .. كان القصر للملك فرانسوا الأول بنى فى القرن الثالث عشر ..

كان القصر كبيرا رحبا ذا قاعات رحبة ومتعددة ، ومازال كل شىء تقريبا محتفظا به الى حد كبير كما كان فى زمانه مع التجديد اللازم لصيانته. هو متحف أكثر من قصر .. لوحات عديدة « أبيسون » وكذا المرسوم بالألوان الزيتية ..

لاشك أن لها قيمتها التاريخية اذ لم يكن لها قيمة جمالية فهى أكاديمية المستوى فى جملتها .. الغرض توضيح مواضيع معينة والتزيين وتجميل الحوائط ..

للقصر أبراج متعددة .. حوالى اثنى عشر سلما يلتقيان بالتبادل فى الأدوار المختلفة .. وتتحدد طريق الزوار تماما باشارات واضحة .. وعوائق فى الطريق الخاطىء .. نبدأ السير فى طريق مرسوم .. تنتهى الى خارج القصر .

كانت البانوراما الرائعة لحدائق القصر .. تمتد آلاف الأفدنة .. ثم ما يتلوها من خضرة لا تنتهى حيث تقطع السـهل الأخضر الممتد ، أما الناظر من فوق سطح القصر فيرى صفوفا مستعرضة .. عمودية من الأشجار .. التى تضرب عنان السماء حيث تتصل خضرة السهل برمادية السماء ، التى تتسع فى رحابة غير حانية ليبتلع القصر والسهل والشجر .. فى امتداد أفقى ورأسى .. لاينتهى . لقد كان هذا فى الواقع ! هو ما هزنى فى « شامبور » وليس شىء آخر ..

لقد استمرت معى هذه البانوراما طوال الرحلة . وحتى اليوم التالى .. تحتل مركز الصدارة فى خيالى .

وهأنذا أسترجع المنظر الطبيعى المصرى خارج السهل الأخضر المنزرع .. المنظر الصحراوى الصخرى الجاف القاسى لجفافه فى بعض الأحيان .. ولكن .. امتداده الأفقى اللانهائى يصيبنى برجفة ما بداخلى .. انها رجفة شعرت بها فى مصر .

« شـامبور » فى اطلالتى .. على البانوراما التى لا تنتهى .. مثلهـا مثل الرجفة التى شعرت بها أمام امتداد المنظر الصحراوى فى مصر الممتد الى ما لا نهاية عبر الأفق ..

ان الاحساس يتقابل فى الاثنين ·· ولكن اللون يختلف أحدهما أخضر والثانى صحراوى ··

***

لم تبرح هذه الصورة وهذا الحس مخيلتى طوال الوقت ·· فى السيارة · « Le chos Lucé » هذا المنزل الذى أقام فيه ليناردو دافنشى ابتكر فيه معظم اختراعاته توضيحا بالرسم كما قيل لنا ·· وذلك المنزل الذى كان يزوره فيه الملك فرنسوا الأول · كانت معلومة جديدة بالنسبة لى ·· ان رسوم اختراعات «دافنشى» معروفة الى من الكتب ·· ولكنى لم اهتم بها كاختراعات حربية أو غيرها · كانت مجرد مهارات ·· اضافات لاشك فيها ·· تضاف الى امكانيات ليوناردو ·· من رسم ونحت وعمارة · واختراعات لاحصر لها وبحوث وتجارب فى استخدام الألوان ·· لم تتم كما ينبغى ولم تصل الى نتائج حاسمة ·· حتى بدأت ألوان « دافنشى » تتساقط من « عشائه الأخير » قبل موته ·

***

عدنا الى «لومان» مباشرة ·· الجو كان حارا جدا ٣٥ مئوية والرطوبة عالية ·· أصبح الجو خانقا وثقيلا ·· لقد شعرت « دانى » بارهاق شديد ··

***

زارتنى سيدة ألمانية ·· فى منزلى بالمنيب ·· قدمها لى الاستاذان على رأفت الأستاذ فى كلية الزراعة وسامى رافع الأستاذ بكلية الفنون الجميلة ·· وقالوا هذه السيدة فنانة تشكيلية ·

هذه الفنانة ·· تنطق الانجليزية بطلاقة ·· وتنطق الفرنسية فى ركاكة ·· فى ختام هذه الزيارة دعتنى أن أزورها فى ألمانيا · وأعطتنى عنوانها وتليفونها ·

فى رحلتى الى فرنسا ·· أخذت الفيزا الى ألمانيا ··

كتبت خطابا من باريس الى «ماريان شولين» وهذا هو اسمها وسألت ان كانت مستعدة لمقابلتى فى ألمانيا ·· وانى مقيم فى فرنسا لمدة ثلاثة شهور : يونيو ويوليو وأغسطس ··

وأرجو أن تخطرنى بخطاب تحدد المدة التى ستستقبلنى فيها ٠٠٠
انتظرت فى « لومان » حتى جاء تليفون من جوزيف الفرنسية وهى مقيمة فى المنزل الذى أقيم فيه : « بانيوليت » وقالت ان هناك خطابا باسمى من ألمانيا وقلت هل لك أن تقرأيه ٠٠ وقد كان بالانجليزية ٠٠ وذكرت أن السيدة الألمانية مستعدة أن تقابلنى فى هذا الشهر ٠٠

***

عدت من « لومان » مع « ميشيلين » بالقطار بعد أن ودعتنا دانى فى المحطة ٠٠ كان القطار مزدحما ٠٠ وصلنا الى باريس بعد أن دفعت أجر القطار « لميشيلين » وكذا بعض الفرنكات ٠٠ لأنها لم تكن تملك سوى « شيك » لن تتمكن من صرفه سوى بعد بضعة أيام ٠٠

استقللنا تاكسى حتى Gare de L'est « محطة الشرق » لكى أحجز تذكرة من باريس الى فرانكفورت بألمانيا حيث تقيم « ماريان شولين » ولكى أخبرها بموعد قدومى ٠٠ كى تنتظرنى فى المحطة ، بيتها لا يبعد كثيرا عن المحطة ٠

حجزت ليوم أحد ٣١ يوليو سنة ١٩٨٣ ٠٠ وكذا العودة ثم فى المساء أخبرتها « ماريان » تليفونيا بوضـــوح تام بالانجليزية ووعـدت بانتظارى فى المحطة ٠٠

بعد أن تلفنت «لماريان» تليفونيا ٠٠ صحبت ميشيلين واشتريت لها الفاكهة وأعطيت لها ١٠٠ مائة فرنك على أن تدبر أمرها حتى تستطيع الحصول على نقود ٠٠

أمضيت أول يوم فى منزل ميشلين فى « بانيوليت » بلا مشاكل وحاولت ميشلين مصالحة زوجها جوزيف ٠٠ الذى كان ينكر عليها سكرها المتكرر حتى فقدان الوعى والاتيان بأعمال مخلة بالكرامة وبكل القيم ٠ وتصالحت فعلا بمساعدتى لها بعد أن وعدتنى بأنها لن تعود الى السكر مرة أخرى ٠٠ وأن شربها الخمر سيكون فى حدود المعقول والمسموح به طبقا لما هو جار فى فرنسا ٠٠

وفعلا تمكنت من مصالحة زوجها جوزيف ٠٠

ولكن لم يمر يوم واحد حتى لم تظهر ميشيلين فى الدور العلوى وكانت تظل فى الدور الأرضى حيث كان مرسمها وكانت تصعد الى من حين الى آخر لتقول لى « لا تقلق فكل شىء على ما يرام » ٠٠ ولكن كنت فى كل مرة أشم رائحة الخمر تزداد رويدا ٠٠ رويدا ٠٠ وحركاتها بدأت تشير

الى أننا قريبون من المتاعب . لم تمض سوى ساعة الا وسمعت صوت « ميشيلين » وهى تحطم كل شئ فى مسيرتها .. وكذا الأبواب والنوافذ .

جوزيف زوجها . يصفعها بشدة . سمعت صوت ارتطامها بالأرض وهى تصرخ .. قائلة «افتح لى الباب» .. لم أفهم شيئا من هذا القول .. سوى أنها مخمورة تماماً وزوجها يؤدبها ..

وفجأة وجدت الاثنين .. أمامى فى الدور العلوى هى تصرخ .. « افتح الباب » وزوجها يلطمها بشدة .. « ان الباب مفتوح » ولكنها لاتزال تكرر الجملة .. وهو مازال يلطمها .. حتى وقعت على الأرض ثم قامت بصعوبة فلطمها ثانية وثالثة .. ومازالت تصرخ افتح الباب .. وهو يقول الباب مفتوح ..

لا أفهـــم شـــيئا .. انها تصـــل الى نهاية درامية مثـــل مسرحية « بيكيت » ..

ميشلين تدعونى لأنزل معها لأرى اذا كان الباب مفتوحا .. أم لا .. ولكنها عادت تكرر : مسيو راتب تعالى معى - رفضت بصوت حازم : لن اتدخل بينك وبين زوجك .. لتحلوا مشاكلكم سويا .

وأنا شخصيا لن ابقى معكم طويلا .. سأرحل الى ألمانيا بعد غد .

نسيت ميشلين زوجها .. ثم نسيتنى أنا .. ولم أسمع صوتها بقية اليوم والليلة وكذا اليوم التالى .. كنت أهرب من البيت مبكرا فى الساعة السابعة صباحا لأستقل الاتوبيس ٧٦ .. حتى نهاية محطة اللوفر .. هناك أتناول افطارى فى ركن يطل على السين فى هدوء تام ثم اتمشى قليلا حتى يفتح متحف اللوفر فى حوالى العاشرة صباحا وأدلف اليه لأعيش بقية اليوم حتى بعد الظهر بقليل مع بعض الروائع الانسانية مما ابدعه الانسان الفنان . ثم أذهب الى مطعم قريب .. اتناول غذائى . ثم أعود الى متحف آخر ..

فى الخامسة أركب الاتوبيس من نهايته حتى منزل ميشلين فى بانيولد .. ثم اشترى المأكولات والفاكهة بكمية وافرة تكفينى وأهل البيت ...

وهكذا مرت الأيام الأخيرة قبل سفرى الى ألمانيا بخير .. فى الليلة الأخيرة جاءت الى ميشلين .. لتقول لى أنها ستذهب معى الى المحطة فى الصباح الباكر لتساعدنى فى ركوب القطار . وقد ساعدتنى فى ركوب القطار وأرشدتنى الى مقعدى المنمر ..

كان الجو حارا ‥ خلعت الجاكتة ‥ فتحت نافذة القطار بحساب رافقنى بعض الشباب الفرنسى وكذلك فتاتان ألمانيتان ‥

الكل ذاهب فى أجازة ‥ للعمل ‥

دخل رجل كهل فى القمرة أخيرا وأخذ محله أمامى وبدأ يقدم نفسه للمجموعة على أنه نمساوى الأصل ولكنه خير بعد أن شارك فى الحرب على أن يختار الجنسية الألمانية أو النمساوية فاختار الألمانية ‥ ولكنه لم يوضح لماذا ‥؟

كان يتحدث بالفرنسية ٠ كان الجميع يعرفها ‥ ولكنه بدأ يتحدث الألمانية بعد ذلك مع الفتاتين ٠

كان شابان وفتاة من الفرنسين يرقبون الحديث بالألمانية بشغف ‥ ومعهم كتب صغيرة لتعلم الألمانية ٠

كان الرجل الكهل يلقى بعض الألفاظ الكلامية لكى يقلدها الجميع ٠ وعندما يفشلون ‥ يقول انها ليست بالعربية كلغة ‥ حتى يعجزون عن ترديدها كما رددها هو فى سرعة وسهولة ٠

كمثل فى العربية « طبقنا وطبقكم دخلوا الفرن أما طبقنا طبق فى طبقكم ‥ » الخ ٠

كانت اذنى تلتقط بعضا من الكلمات المتبادلة بين رفقاء السفر من ألمان وفرنسيين ‥ كانت عيناى لا تبتعدان عن النافذة حيث الطبيعة الخلابة ‥ تتغير مناظرها بين السهل والتل بين المنازل البيضاء ذات الأسقف الجمالونية الحمراء تتناثر فى السهل ثم تتناثر على التل صاعدة ٠ هابطة ‥ تكتنفها الخضرة الدائمة فى هذا الفصل من السنة : الصيف ‥

تلك الغابات التى تتكثف فى مناطق وتتفرق فى مناطق أخرى على امتداد الطريق والأفق البعيدة ٠

توقف القطار نصف ساعة فى « متز « Metz »

لم أعرف السبب ‥ ثم رحلنا ‥ ولكن بعكس الاتجاه ‥

كانت المشاهد تأتى من أمامى والآن تأتى من خلفى ‥

كنت أتصور أن القطار لابد وأن يغير اتجاهه ‥ ولكن هيهات ‥

أحد رجال الشرطة الفرنسيين يفحص أوراق المسافرين بعد أن فحص التذاكر مفتش القطار ‥ ! ولكن سرعان ما جاء مفتش آخر ألمانى هذه المرة وفحص التذاكر مرة أخرى ٠ اذن نحن دخلنا فى الحدود الألمانية ٠

الطبيعة لم تتغير حتى مسافات طويلة داخل ألمانيا ٠٠ المبانى والمنازل أصبحت تختلف قليلا ٠٠

وصلنا الى فرانكفورت متأخرين حوالى الأربعين دقيقة ٠ كنت أخشى أن لا أجد « ماريان » ٠٠ وهنا كانت ستبدأ متاعبى ٠

نزلت من القطار ومشـيت على الرصيف متمهلا ٠٠ حتى رأيت « ماريان » وهى تجر عربة صغيرة من عربات المحطة لحمل الحقائب ٠ حيث تركت سيارتها ، ثم وضعت الحقيبة داخل السيارة ٠٠

ادارت محرك السيارة ورجتنى أن أركب بجوارها ٠٠ سارت فى اتجاه « وتنـبرج » ٠ لم أكن أعرف أن وتنبـرج تبعد عن فرانكفـورت ستين كيلومترا ٠ كانت ماريان تقود السيارة فى سرعة متزايدة ٠٠ ألمح عداد السيارة ٠ وقد تعدى المائة ٠٠ ثم المائة والعشرين ٠٠ واربعين ثم الخمسين بعد المائة وبدأ يصعد ٠٠ ؟ فلمست كتف ماريان ٠٠ « الى متى » ؟ فقالت ببساطة « لا تخف » فكل شىء هنا على ما يرام : الطريق ٠٠ السيارة ٠٠ القائد والنظام ٠٠

آمنت على كلامها ٠٠ وسرنا حتى وصلنا الى Geissen ثم الى وتنبرج Wettenberg الهدوء تام والشوارع تكاد تكون خالية ٠ الكل يعمل من السابعة صباحا حتى الثالثة بعد الظهر ٠٠ كل شىء يسير بنظام وبساطة تامـة ٠

البيت ٠٠ نظيف للغاية ٠٠ به كل ما يحتاج اليه ساكنه من راحات ٠٠ النباتات والزهور فى كل مكان ٠٠ المطبخ به كل ما تحتاج سيدة من أدوات حديثة تسهل لها عملها على الدوام ٠٠ ان هذا هو ما رأيته فى فرنسا وأعتقد أنه فى ألمانيا ٠٠ أحسن ٠٠٠ !

قامت ماريان بأن أعطتنى حجرة فى بيتها فى الدور العلوى ٠

فى سيارتها نخرج سويا نزور بعض الكنائس فى باربرج وغيرها ٠٠ وكذا بعض القصور القديمة ٠٠ ثم نتنـاول غذاءنا فى الخارج فى مكان تختاره هى ودائما كان موفقا لجودة الطعام والموقع الجميل ٠٠

مرت ثلاثة أيام ٠٠ على هذه الحال ٠٠ عزمت أن أزور « ميونخ » ٠ ان لوحة « تشيبان » ٠٠ المسيح « يتوج بتاج من الشوك » ، تلك اللوحة فى متحف « بناجوتيك » فى ميونخ — كانت تجـذبنى طوال دراستى للفن ٠٠ بل طوال حياتى ٠ قد رأيت هذا الموضوع بالذات وقد عالجه « تشيان » فى لوحة صاغها فى أواسط حياته ثم مرة أخرى فى أواخر حياته ٠٠ هذه اللوحة التى أسعى اليها فى ميونخ ٠

لم أر هذه اللوحات الا فى الكتب ٠٠ كنت ألمح الفرق الشاسع بين الأولى والثانية من صور فوتوغرافية ٠٠

ألححت على ماريان ٠٠ لتصـــاحبنى الى ميونخ ٥٠٠ كيلو متر من ويتبرج حيث منزلها ٠٠

لقد أخذت ماريان أجازة من عملها أربعة أيام لاغير ولم يبق سوى يومين غير الاجازة العادية ٠٠

لقد اقترحت أن نأخذ القطار ولنذهب ولو لمدة يومين فقط لأرى تلك الصورة وصورة أخرى « لألتدرفر » altdorfer « الموقعة » ٠٠ ألمـــانى

وبعد تفكير دبرت هى الأمر بنفسها ٠٠ نذهب الخميس بالسيارة ونعود الأحد ٠٠ حيث تبدأ عملها الاثنين ٠٠

كان هذا جميلا منها ٠٠ ورائعا فى نفس الوقت حيث نستمتع برحلة السيارة ٠٠ بين مناظر ألمانيا فى ريفها ٠٠ غاباتها ٠٠ تلالها ووديانها ٠٠ المنبسطة بالخضرة الدائمة فى مثل هذا الوقت من السنة ٠

اشترطت على ماريان أن تكون جميع المصاريف من بدء الرحلة حتى نهايتها ــ أدفعها جميعا ، وكان هذا طبيعيا ٠٠ !

بدأنا الرحلة فى السادسة والنصف صباحا ٠٠

التلال الخضراء والوديان يخالط خضرتها لون القمح الذهبى ، كانت تواجهنا ثم ترحل عنا ٠٠ ثم تتجدد ثانية فى سرعة مذهلة ٠ ماريان تقود السيارة ٠٠ بسرعة مذهلة ١٨٠ كيلومترا فى الساعة ٠

فى منتصف الطريق طلبت اليها أن تستريح قليلا ٠ وفى أقرب استراحة توجد دائما دورة مياه ومحطة بنزين وكافيتريا أو مطعم كامل ٠٠٠

تناولنا بعض المأكولات الخفيفة ٠٠ وأخذنا ما يلزمنا من بنزين للسيارة ثم انطلقنا ثانية ٠

وصلنا الى مشارف ميونخ حوالى الساعة الواحدة بعد الظهر أمام مكتب استعلامات فى مدخل ميونخ ٠٠

دخلت ماريان ٠٠ لتحجز لنا غرفتين فى فندق ما ٠٠

وفعلا تمكنت من حجز غرفتين ٠٠ اشترت خريطة لميونخ ٠٠ اذ كانت لا تعرفها من قبل ٠٠ « واستأجرت » سيدة مرشدة ٠٠ لتذهب بنا الى الفندق ٠٠ الذى لا نعرفه ٠٠ لقد دفعنا لها ٢٦ ماركا ألمانيا لمجرد ركوبها معنا فى السيارة وارشادنا عن الطريق ٠

كانت الحجرات نظيفة وجميلة وقد أراحني وجود حمام كامل فى غرفتى ٠٠

ذهبنا فور استراحة قصيرة بالفندق الى مطعم حيث لا يوجد بالفندق مطعم ٠٠ الا الافطار ٠٠

تركنا السيارة ٠٠ حيث أنها لا تعرف شوارع ميونخ ٠٠ استأجرنا تاكسيا ليقودنا الى مطعم ٠ كانت منطقة الفندق خالية تماما من المحلات والمطاعم ٠٠ هى منطقة هادئة تماما ٠٠٠ !

كل شىء فى ألمانيا مرتفع الثمن حتى عن فرنسا ٠٠

لقد تناولنا الغذاء : طبقا من اللحم مع القهوة وزجاجتين صغيرتين من البيره وأخرى من المياه المعدنية ـ « لماريان اذ كانت لا تشرب الخمر » ٠ لقد دفعت ما يقرب من مائة مارك ٠٠

ذهبنا بعد الغذاء ٠٠ الى المتحف « بيناكونيك » ٠٠ كانت الساعة الثانية والنصف ٠٠ المتحف يغلق أبوابه فى الرابعة والنصف ٠ ساعتان لا بأس بهما ٠

مرت الساعتان ٠٠ كأنهما دقائق ٠٠ أنا أعيش مع بعض اللوحات التى لم أرها الا فى الكتب ٠٠

اثنتان منها ٠٠ تسمرت قدماى تماما ٠٠ أمامهما ٠٠ الأولى ٠٠ وهى التى كانت محور رحلتى الى ألمانيا ٠٠ لوحة « تشيان » « تتويج المسيح بتاج من الشوك » ٠

والثانية ٠٠ كنت رأيت فيلما لها فى مصر « أبيض وأسود » استعرناه من المركز الثقافى الألمانى « جوته » فى اتيليه القاهرة of alixander the great « The Battle ٠٠ موقعة اسكندر الأكبر ٠

اللوحة للفنان الألمانى « altdorfer » « التدورفر » ٠

آخذت منى الأولى لتشيبان معظم الوقت ٠

ثم أسرعت فى التعرف على ما فى المتحف من روائع ٠

بعد المتحف تجولنا فى شوارع ميونخ وهى تحمل أسماء الموسيقين الألمان ٠٠ أكثر من ساعة ونصف ٠٠

أرادت ماريان أن تركب المترو ٠٠ سألت عن مكان ما ٠٠ ذهبنا اليه عن طريق المترو ٠٠ تناولنا عشاءنا هناك ٠ وعدنا بتاكسى الى الفندق ٠٠

شعرت ماريان بتعب شديد في «كليتيها» ، وكانت مجهدة بعد الرحلة الطويلة ٠٠

في صباح اليوم التالى ذهبت الى « طبيب » بعد أن أوصلتنى بالتاكسى الى المتحف ٠ أنها ستلحق بى ٠٠ وفعلا بعد ساعتين جاءت ماريان وقالت أن الطبيب أعطاها « مضادا حيويا » وبعض الادوية ٠٠ وقلت لها ماذا كلفك هذا من المال ٠٠ قالت « ان التأمين على صحة المواطن يدفع » ٠٠ !

انها الراحة لماريان ٠٠ ولكنها لم تسترح على الاطلاق ٠٠

من متحف « ببناكوتيك » القديم الى متحف « ببناكوتيك » الحديث ٠٠ وهذا المتحف يواجه القديم ٠٠ تجولنا ما يقرب من الساعة ٠٠ لم يستوقفنى فيه الا عملان «لسيزان» منظر طبيعة صامتة و Self Portrait وصورة شخصية له ٠ وكذلك المدرسة الفرنسية للقرن التاسع عشر والعشرين ٠

التأثيريون : سيسلى ٠٠ بساور ٠٠ مونيه ٠ رنوار ٠ سيراث ٠٠ وفان جوخ وهى مجموعة ليست كبيرة ولكنها مهمة ٠٠

فى اليوم الثالث زرنا متحف الفن الحديث وبه مجموعة قيمة من أعمال بول كلى Paul Klee » وكاندفيسكى نولد ٠ وكوكوشكا وغيرهم كما انها تضم قاعة كبيرة كاملة من الأعمال الأكثر حداثة Ultra Modern

ولم أجد فيها ما يثير اعجابى سوى الغرابة والتفاهة فى التفكير الذى يدل على ٠٠ سخط : عدم قبول للحاضر بل للحياة ٠٠ ولكن أين البديل ٠٠ البناء ٠٠

فى المساء ٠٠ ذهبت الى حجرة ماريان ٠٠ كانت تعبة وتشعر بالحمى ٠٠ قالت آنها تستعد للذهاب معى لتناول العشاء وعندما تفرغ ستأتى الى حجرتى ٠٠ ثم جاءت الى بكامل ملابسها وهى ترتعش من الحمى ٠٠ قلت لها كيف تجرؤين على الخروج وأنت بهذه الحالة ٠ قالت سأخرج معك لكى تتناول طعامك ٠ انى أعرفك ٠٠ فلن تخرج الا اذا كنت آنا معك ٠٠

أرغمتها على الذهاب الى حجرتها ٠٠ وتناول دوائها حتى تشفى ثم النوم المبكر ٠٠ ذهبت فورا الى حجرتها ٠

كنت أفكر فى هذه المخلوقة ٠ ٠ماريان ٠٠ انها جاءت وهى ترتعش من الحمى ٠٠ لكى تساعدنى أن أتناول عشائى ٠٠ هذا شعور طيب للغاية ولن أنس هذا ٠٠ ولكنه كان يتناقض مع بعض مواقفها الخشنة ، وكثيرا ما تكون فظة ٠٠ تناقض أثار اهتمامى وتفكيرى ٠

كنت أفكر في الغد · لقد عزمنا على الرحيل من ميونخ الى وتنبرج صباحا ·· انها مريضة ولا يمكنها قيادة السيارة مسافة خمسمائة كيلومترا وهي في هذه الحالة ·· اقترحت أن نؤجل سفرنا حتى تشفى تماما ولكنها ردت على هذا الاقتراح بعنف ، وبرفض بات · قالت لابد أن تذهب الى عملها صباح الاثنين ، وأن العمل في ألمانيا « مقدس » وليس كما هو في مصر · أخذت « الصفعة » بهدوء مؤقت ، لأنى أعرف أن ما قالته يقرب من الحقيقة ·· « لكنك مريضة والمرض يمنع من العمل ·· ! » « سأتغلب على المرض وسأذهب الى عملي في الوقت المحدد ·· وسترى ·· » ·

حدث ما قالت ·· أفاقت في الصباح وقد زالت عنها الحمى ·· تناولنا افطارنا · كنت مسرورا فعلا لحالتها الطيبة · ركبنا السيارة بعد أن استفسرت عن الطريق للخروج من ميونخ ··

قد أصرت ماريان أن تزور ابن عمتي ·· رفعت اسماعيل شوقي ، وهو متزوج من ألمانية على بعد ٦٠ كيلومترا من ميونخ · في بلدة اجزبرج « Augaberg » وهناك وجدت الابن رفعت ومعه زوجته ثم والده ووالدته الذين تصادف أن حضرا من مصر لزيارته · شربنا القهوة وحييناهم ورحلنا الى « وتنبرج » ·

السرعة تزداد حتى وصلت الى مائة وثمانين كيلومترا في الساعة قلت كفى ·· ؟ فقالت ضاحكة ·· هل أنت خائف ؟ ·· فقلت قد يحدث أى شىء ·· ! ثم انها رحلة جميلة في هذا الطريق الرائع ولكن لماذا هذه السرعة الزائدة · انك لن تذهبى الى عملك في نهاية الرحلة ، ان العمل مقدس فعلا ولكنه يبدأ غدا ·· !

***

عندما زارتنى ماريان في مصر مع بعض الاصدقاء ·· عرفونى أنها فنانة تشكيلية ·· وعلى هذا الزعم بدأت منذ اللحظة الأولى ـ أعاملها على هذا المستوى · كل يوم يمضى معها كنت أشعر بأنها بغير ثقافة تذكر ·· وأن ما تفعله من فن التصوير لايزيد على بعض الزخارف المنقولة حرفيا من الفن الألمانى الشعبى ثم ترسمها كما هى على بعض الصناديق والعلب ثم تلونها محاكية الألوان الأصلية لتلك الزخارف ··

لا بأس ·· ! أردت أن أضع أمامها بعض الآفاق الأعلى ·· من الفن والثقافة · كان هذا تحديا كبيرا لها ، لم تأخذه على المحمل الطيب ، على محمل معاونتها على الانتقال الى مستوى أرفع بل على أنى أسخر منها وانتقدها · كانت تثور بنوع من رد الفعل الفظ وفي النهاية وعند عودتنا من ميونخ وصل الحال بها الى القمة · ان انتقادى لها المستمر ـ على حد قولها ·· يجعلها تشعر بضيق ··

انها لم تفهم واعتقد أنها لن تفهم ٠٠ ! كنت أرجو أن أرفع من مستوى الحديث والمناقشة ٠٠ التى لابد وأن تدور بيننا ، وخصوصا بعد الرحلة الممتازة فى متاحف ميونخ ، وتلك الوجبة الضخمة من الثقافة التشكيلية المكثفة التى مازالت فى طريقها الى التمثيل والهضم ٠٠

ضاقت ولم تفهم ٠٠ طلبت منى الرحيل فورا ٠٠

ثرت من فظاظتها ٠٠ « انك أنت التى طلبت منى المجىء وأنك أنت التى أصررت أن أقيم فى بيتك » ٠٠

« أنت لم تفهمى شيئا مما حدثتك به ٠٠ ان حديثى كان دائما تحديا لجهلك ٠٠ كنت أعتقد أنك سترتفعين ولو قليلا الى مستوى الفكر الذى أتحدث عنه ٠٠

هذا التحدى وشعورك بالجهل والضعف ، هو الذى دعاك الى هذا التصرف الجاهل غير المؤدب ٠٠ سأذهب غدا فى أول قطار ٠٠ !

بعد نصف ساعة جاءتنى وهى مستعدة للخروج رجتنى أن أذهب معها الى زيارة صديقتها ٠٠ « هلجا » ٠٠ لاحضار كلبتها « هكسا » ٠٠ حيث تركتها عندها طوال رحلتنا الى ميونخ ٠ ذهبت معها ولم انبس بكلمة واحدة ٠٠ لقرفى من هذا الوضع ٠

عند هلجا ٠٠ قدمت لنا الشاى ـ ولكن لم أرغب فى تناول أى شىء ، ومن عند هلجا قادت السيارة فى طريق علوى ، وبعد مدة وقفت ٠ نزلت من السيارة وطلبت النزول لزيارة قصر قديم ٠٠

رفضت النزول ٠٠ لقد رأيت ما يكفى ٠٠ !

ذهبنا الى البيت وبدأت ماريان تشعر بخطئها ٠٠ قالت « لقد وصل العداء بيننا الى القمة ٠٠ الآن لنعد الى الود والصداقة ٠٠ انك لن ترحل غدا انك ستقضى اسبوعا أو شهرا اذا شئت » وصعدت الى غرفتى ٠ « سأفكر فى الأمر » ٠٠

ذهبت ماريان فى الصباح الباكر الى عملها ولم تدع لى فرصة الرفض أعدت لى طعام الافطار وكذلك طعام الغذاء قبل رحيلها الى عملها ٠٠ وتركت لى كلمة موضحة لى ما يلزم لطعام الغذاء ٠٠

عادت من عملها فى الرابعة عصرا ٠٠ باسمة ٠٠ وطلبت منى ملابسى لغسلها اذ أنها فى صدد غسل بعض الملابس ٠ فعلا أخذت ملابسى لغسلها ٠

في المساء بعد تناول العشاء سويا فى الفراندة . بدأت الحديث عن زيارتنا للمتاحف فى ميونخ .. وكان حديثا .. ينم عن جهـــل .. بلا ثقافة ..

فلم أستطع السكوت أو المجاملة . « سأرحل فى أول قطار غدا »
« ان ملابسك فى الغســالة .. لازالت مبتلة .. لا يمكنك الرحيل غدا »
تركتها وذهبت الى غرفتى . لكنها بقيت ســاهرة الى ما بعد منتصف الليل ..

فى الغد أعدت طعاما شهيا .. للعشاء ودعت صديقة لطيفة تدعى « جزيلا » .. كان وجودها ملطفا للجو . ماريان كانت تنتقى الكلمات ولاتلقى بالآراء جزافا ..

كان الرحيل بعد غد .. دعت للعشاء صديقتها هلجا .. طلبت منها ملابسى . جاءت بها مرتبة وأظهرت اعجابها بالقطن المصرى . الذى نسجت منه ملابسى الداخلية ..

ثم جاءت لى بشراب خفيف . جلست أمامى بعد أن ارتدت ثوبا جميلا فعلا .. ذكرت لها أن ثوبها جميل .. قالت شكرا شكرا انك قد وجدت فى شيئا جميلا فى النهاية ..

كانت هذه بداية المصالحة الثقيلة . ظل الحديث ناعما بيننا حتى بعد منتصف الليل ..

فى الصباح أوصلتنى الى المحطة بعد أن أعدت لى طعاما خفيفا كى آكله فى القطار . كان اللطف كله فى عينيها وفى كلماتها بل فى لمساتها لى .
« انها ستكون سعيدة اذا ما ذهبنا سويا الى برلين فى العام القادم » .

***

تركت ألمانيا .. ومن باريس طلبت ماريان بالتليفون لأشكرها على ضيافتى عشرة أيام فى ألمانيا ..

وياللعجب .. قالت ماريان « لاتشكرنى فأنا التى ينبغى أن أشكرك . لقد فكرت فى كل ما قلته لى .. فى كل ما رأيناه سويا فى مختلف ميونخ وتلك الملاحظات التى أدليت بها أمام بعض اللوحات فى متاحف ميونخ .. ان عيناى قد تفتحت على أشياء جديدة لم أكن أراها قبل مجيئك . وانى أنتظرك لنذهب سويا الى برلين فى العام القــادم ، وهكذا انتهت المعركة مع ماريان . شعرت بالارتياح .. !

في باريس ذهبت الى عرض ممتاز لفناني « نابلي » ايطاليا في القرن السابع عشر « كرافاجيو » ومدرسة . « Caravagio »

كان العرض ممتازا ... النور ... هو المحور لهذا العرض ، موسيقى الضوء .. بل عمارة الضوء كما ينبغي أن تسمى ..

في رأيي أن « رمبراندت » لابد وقد رأى بعضا من لوحات كرافاجيو ولو لم ينتقل الى ايطاليا .. لأن الدراسة المعمقة في لوحات رمبراندت مع الاختلاف المهم : الاضاءة عند كرافاجيو .. « تجريديه » الى حد ما ... انها في لبها موسيقية معمارية .. لاتدخل في صلب الموضوع الى الحد الذي يمكن للمشاهد أن ينسى هذه الموسيقى الضوئية في حد ذاتها . ويركز على الموضوع . ولكنها هي الموضوع عند رمبراندت .

ان الاثنان يلتحمان تماما . ان الكل يتكامل ويتحد في جلال ورفعة لخدمة المعنى والقيمة .. انها جزء لا ينفصل بما يتضح عنه العمل من القيم ..

***

ذهبت اليوم الى اللوفر لاستعيد رؤية لوحة كرافاجيو الوحيدة في متحف اللوفر .. عن موت السيدة مريم ..

تحقق لي أن ما كتبته فيما سبق عن استعمال كرافاجيو للضوء والانارة كان استعمالا مجردا .. موسيقى ومعمارية موقع الضوء على الأجسام .. إنها موسيقى رائعة لا شك في هذا .. لكن هل كان لهذه الموسيقى الضوئية فعالية ؟ وتأثير ذلك في الرفع القيمي للموضوع ؟

المعنى الأدبي للموضوع ظل حبيس الرسم التوضيحي له .. بالتعبيرات العادية بل السذاجة على وجوه الحزاني من الرجال والنساء حول جسد العذراء المسجى ، وكأنها حية لم تمت . كرافاجيو بالغ في انتفاخ بطنها حتى ليظن أنها حبلى . والرجال قد وضعوا أيديهم على عيونهم وهم لا يبكون ..

تفسير ساذج لايمت لجلال التعبير الفني لمثل هذا الموقف الدرامي .. ركاكة في اختيار الايماءات .. والتعبيرات النفسية .. لكن .. هناك تكوين معمارى رائع .. زاده في روعته تكامل وقع الضوء على الأشخاص ثم على الأشياء في موسيقية ومعمارية تشد من صلابة التكوين وترتفع به الى قيمة بلاستيكية عاليـــة .. ان كرافاجيو درس ممتاز لكـــل من يرغب ..

متاحف باريس تزدحم بالزوار من الأجانب .. أغلبهم .. كما لاحظت من الايطاليين .

أذهب الى المتحف دائما في التاسعة صباحا .. حتى أكون من أول الداخلين .. حيث يفتح أبوابه في العاشرة الا ربعا .. ولكن أجد المئات من الراغبين في زيارة المتحف .. وقد سبقوني .. أقف في الطابور الطويل .. حتى يأتي دوري ...

لاحظت هذه الظاهرة في معظم المتاحف .. !! ثم المعارض الهامة مثل معرض « مانية » ومتحف التويلري « depaune » للتأثيريين أقف أكثر من ساعة حتى يأتي دوري ..

في زيارتي الأخيرة لمتحف اللوفر توقفت فترة طويلة في القسم الاغريقي القديم « اركايك » .. أمام Hera of Samoth « هيراوساموث كنت أعجبت بهذا التمثال في سنة ١٩٣٧ عندما زرت اللوفر في ذلك الوقت .

لكن رؤيتي هذه المرة « لهيرا » أدخلت على نفسي سرورا جديدا . مرت صور الماضي سريعا في مخيلتي وهأنذا بعد مرور ستة وأربعين عاما أمام « هيرا » مرة أخرى واعجابي بها لا ينقص بل يزيد .. كان اعجابا بغير حماس..حماس الشباب..عندما يكشف لنفسه عن عمل ممتاز ..

***

« جوستاف مورو » « Gostave Moreau » .. ذهبت لزيارة « بيته ـ المتحف » . ولكن تبين لي أنه يغلق أبوابه الاثنين والثلاثاء من كل اسبوع ..

جوستاف مورو فنان عاش حياة .. غير لامعة بالمرة ولكنه أعطى الكثير من القيم في فنه ... ثم أهدى بيته وأعماله للدولة ..

هذا البيت أصبح متحفا يحمل اسمه .. وهذا عنوانه في باريس . « 14, Rue la Rochifancauld » محطة فلو انى أذكر عنوانه بالضبط .. لأني مع دراستي الكاملة لخطوط المترو على الخريطة الموصلة للمحطة المذكورة ـ بعد لأي وصلت الى المحطة .. لكنني صرت أبحث عن الشارع المذكور .. ساعة كاملة بغير سؤال ؟

وعندما سألت .. ابتسم المسئول .. انك في الشارع المطلوب

فعلا ! ولقد كنت أعرف مكان معظم المتاحف فى باريس .. ويسهل على من قراءة خريطة « المترو » أن أجد هذه المتاحف .. بغير سؤال ..

الا هذا المتحف الصغير .. بيت الفنان « جوستاف مورو » .

عرضت أعماله من رسوم وتصوير زيتى وغير زيتى فى ثلاثة طوابق يصعد اليها بسلم «دوران» خشبى تحف به قاعات فسيحة مراسم للفنان. فنان غريب .. تغلب على لوحاته « الفانتزى » Fantasie والغرابة . هذه « الفانتزى » تفتح أبوابا عديدة لمدارس جديدة للفن التشكيلى ليست سيريالية ولا واقعية وعلى الأخص ليست تجريدية بالمرة ..

انها تحوى الكثير من القيم .. يمكن التقدم منها الى قيم أخرى .. أعلى .. بعد تصفيتها من الاغراب المبالغ فيه ..

انه فنان قدير بلا شك.وله بضع لوحات من المناظر الطبيعية أودع فيها قيما عالية من الحس بالنور واللون وكذا « legrandeur » عظمة وعمق اللوحـة ..

هذا الفنان كما علمت مهضوم غير معترف به كما ينبغى .. فى زحمة المدارس الفنية التى تزخر فى باريس وفى أوربا ..

عندما زرت بيت ـ متحف هذا الرجل لم يكن به من الزوار سوى ثلاثة .. سيدتين ورجل واحد .. علما بأن اليوم كان الأربعاء والزيارة مجانية .

●●●

زرت متحف رودان .. بعد بيته .. ولكنى خرجت منه .. صفر اليدين . انه فنان رومانسى .. ملك أدواته تماما ولكن .. لم يرتفع رودان أبدا الى الاسمى والأرفع من القيم .. انصب جهده على الجنس فى أغلب أعماله . معالجة الجنس لم تكن أى احترام للجنس فهى معالجة سطحية لم تثر فى سوى « عدم الاهتمام » .

عالج رودان الأيدى.وأعتقد أنه نجح فى واحدة ليدين غير مصقولتين .. أما الأيدى المصقولة .. فهى فى رأيى أقل قيمة ..

ثم زرت متحف بورديل Baurdelle هو مثال ذو جرأة.وذو قيمة فى النحت ..

زرت المتحف الصينى راعتنى الآنية الفخارية .. خصوصا تلك التى

صنعت ابان غهد Chang-Yin شانج ين » من القرن ١٧ ــ ١١ ق٠م وقفت صامتا تماما ٠٠ أمام قطعتين من هذا العصر ٠٠

لم أعتقد أنى رأيت نظيرا لهما سواء فى الشكل أو القيمة ٠

أن الآنية الاسلامية سواء الخزفية أو النحاسية ٠٠ قد وصلت الى قمة رائعة من القيمة ٠٠ ولكنى لم أذق ــ حتى اليوم ــ من احداها هذا الشعور الدافق بالجلال ٠٠

لم أجد لهذين القطعتين صورا فوتوغرافية فى المتحف لأشتريها وما وجدته كان أقل فى القيمة بكثير ٠٠

هناك أيضا بعض الخزفيات الصغيرة من عصر Tang من القرن السابع الى القرن العاشر بعد المسيح ٠٠ لها جمالها ورقتها في بساطتها ٠٠أما حيوانات Han من القرن الثالث الى الثامن بعد المسيح ٠٠ فقد جذبتنى دراميتها وعنفوانها ٠٠

خرجت من المتحف الصينى فى « متسنو » وأنا مشحون بما قالته لى « الآنية » ٠ كنت أتمنى لو أن خزافينا فى مصر وقفوا وقفة احترام واجلال لفن « الآنية » الرائع فى مصر وســـوريا وايران الاســـلامية ٠٠ وفى الصـــين ٠٠٠٠

***

أشعر بتعب وارهاق ٠٠ لم أنم بالأمس ٠٠ من « لفحة » برد ٠ ثم « الكحة » ٠٠ امسكت بتلابيبى طوال الليل ٠ أخذت حبوبا مسكنة ٠

الجو فى باريس هذه الأيام من أغسطس ٠٠ متقلب للغاية بينما يعتدل فى الصباح ويصبح الهواء باردا الى حد ما ٠٠

اضطر الى لبس « الجاكتة » ٠ وما أن أدخل « المترو » حتى أتصبب عرقا ٠ وما أن أخرج منه الى الشارع حتى يلفحنى هواء بارد ، وهكذا لا أعرف أن أتكيف لهذه التقلبات المفاجئة ٠

★ ★ ★

بعد أن فقدت زوجتى ٠٠ وقد تعديت الستين من عمــرى ٠٠ اننى فى صحة جيدة لا بأس بها الآن ٠٠ ولكن بعد بضع سنوات ٠٠ كيف سيكون الحال ٠٠ وكيف أعيش بغير رعاية من أحد اذا مرضت ، وهذا وارد على الدوام فى هذه السن ٠٠

انى أفكر فى الزواج جديا٠٠لكن هيهات أن أجد الزوجة الملائمة ٠٠ فكرت في الأجنبيات ٠٠ في « داني » بالذات ولـكن بعد ما عرفت – عن قرب – مشاكلها وحياتها فى « لومان » ووظيفتها وأولادها وكذا فارق السن الكبير – وجدت أنه ليس هناك أى تناسق بين حياتى وحياتها ٠٠ نعم انها جذابة ولكن العقبات كثيرة ٠ ؟ ثم هناك شك كبير فى أن أوفق الى زوجة أجنبية كما كنت أعتقد أكثر من أن أوفق الى زوجـة مصرية ٠٠

صحيح انى متحرر من التقاليد٠٠وأن أفكارى يشوبها الفكر الأوروبى ٠٠ لكنني مشدود بحبال رواسخ الى مصر ٠٠ الى قلب مصر ٠٠ نعم ان المرأة المصرية اذا ما صلحت كانت أكثر من ممتازة ٠ نسبة الصلاح فى المرأة المصرية أكثر بكثير فى رأيى منه فى المرأة الأوروبية ٠ وما أقصد من الصلاح ليس الصلاح الخلقى فقط ولكن هناك الرحابة في النفس والطيبة الأصلية فى المرأة المصرية ٠ هى سند رائع للرجل ان صلحت ٠٠ !

لقد رأيت العجب فى فرنسا وألمانيا ٠٠ فى فرنسا تعرفت بعدد لا بأس به من السيدات ٠ أكثر من ٣٠٪ منهن مطلقات و ٢٠٪ منهن غير متزوجات ٠٠ ولا يرغبن فى الزواج ٠ انها الصداقة الشبيهة بالزواج فى كل شيء ٠٠ سوى الارتباط المقدس ٠ وتقول الاحصائية فى فرنسا ان كل ثلاث سيدات متزوجات منهن واحدة مطلقة ٠٠ وهذه النسبة لا أجد لها مثيلا الا فى ألمانيا ٠٠ !

لقد تعرفت على سيدات منهن ثمانى مطلقات فى قرية صغيرة بالقرب من فرانكفورت ٠٠ ولا يرغبن فى الزواج مرة ثانية ٠٠

ان منطقهن واضح ٠٠ ان الطلاق اذا ما تزوجن شبه مؤكد فى الكثير من الحالات ٠ الطلاق له التزامات مادية كثيرة ٠ وهكذا حياة حرة بلا زواج ٠٠ للعيش مع صديق ٠٠ حياة زوجية كاملة بغير زواج رسمى ٠٠ فى هذه الحالة ان التغيير من الحالتين جائز فى أى لحظة بدون خسائر تذكر ٠٠

سمعت من بعضهن أن بعض الرجال في ألمانيا يحجمون عن الزواج لأكثر من سبب ٠٠ والأعجب ٠٠ بعض الرجال يحجم تماما عن الاتصال الجنسي ٠٠ فهو يخشاه ٠٠ ويفضل أن يعيش مع أحلام الجنس ٠٠ !

***

ذهبت الى « متحف الانسان Musée de L'Homme » في علم ١٩٣٩ ٠ رأيت هذا المتحف بصحبة « جورج حنين » ٠٠ والآن أرى أنه تغير كثيرا ٠

ثم أستطع المرور .. مجرد المرور المتأني فى جناح واحد طوال ساعتين كاملتين . فضلت ارجاء الباقي لزيارات أخرى . بعد أن شعرت بالتعب .

جذبني النحت الافريقي بشدة . المجموعة التى يحتويها المتحف مجموعة رائعة .. تتمثل فيها معظم الاقطار الافريقية .

ان افريقيا هى مهبط الانسان الأول كما تقول الاكتشافات فى هذا المتحف ...

●●●

لقد حددت الذهاب الى مدريد فى اسبانيا . فى ذلك الاسبوع تركت باريس ظهرا الى مدريد على طائرة فرنسية ..

أنا لا أعرف كلمة واحدة من الاسبانية .. كما لا أعرف أين سأقيم .. سوى عنوان واحد أعطاه لى زميل من أتيليه القاهرة كان يدرس فى أسبانيا .. « طلعت » . كتبت خطابا لهذا العنوان أطلب فيه غرفة من صاحب البنســـيون « انطونيو » ، وقلت ان طلعت زميلى اعطانى العنـــوان ..

وصلت الى مدريد ... وقد حررت العنوان مكتوبا على ورقـــة 71 Calla de Magor «بنسيون المدينة» وناديت تاكسيا وأعطيته العنوان ..

وصلت الى البنسيون .. ودفعت الجرس ففتحت لى البـــاب فتاة ممشوقة القد .. لطيفة .. « روسا » ابنة صاحب البنسيون .. كانت تنطق كلمات بالفرنسية .. واحتفت بى عندما ذكرت زميلى .. طلعت . وأوصلتنى الى غرفة صغيرة . بها كل ما يلزم ..

كانت مصادفة طيبة عندما سمعت أحد النزلاء ينطق اسما عربيا بلهجة مصرية صميمة .. سألته على التو .. هل أنت مصرى ؟ فأجاب بنعم .. وكان يتحدث الى صاحبة البنسيون بالأسبانية بطلاقة ظاهرة .. حليم وهبه الذى جاء الى مدريد ليتقن اللغة الأسبانية كلاما حتى يعود مرشدا سياحيا بالأسبانية ..

حليم وهبه . انسان لطيف ودود .. قد ساعدنى وجوده معى فى البنسيون على التفاهم ، بقيامه بالترجمة أحيانا وبالشرح أحيانا أخرى وعلى هذا أمضيت عشرة أيام طيبة فى مدريد .. فيها يوم واحد فى توليدو .

زرت فى مدريد متحف البرادو ست مرات ، ثم كنيســـة ســـان « انتونيودى تلوديدا » حيث رسمها .. جويا ..

ان ما رأيته فى « البرادو » كان دسما للغاية ٠٠ متحف غنى جدا ٠٠ قاعات عديدة « لفلاسكويز » وأخرى أكثر عددا « لجويا » ٠٠ زوربران وقاعتان كبيرتان ل « تيشبان » وأخريان لتنتوريتو ٠٠ وقاعة كبيرة لاجريكو ٠ وجميع المدارس الفنية فى التصوير ممثلة تمثيلا جيدا ٠٠ أما النحت فلم أجد له شأنا يذكر ٠

انها مدة قصيرة فعلا تلك التى أمضيتها فى مدريد ٠٠ ولكن أظن أننى حققت رضى من هذه الزيارة ٠٠ جميع ما شاهدته جدير أن يحظى بالتفكير والتأمل الطويل حتى تتم التجربة المرجوة من انعكاس ما شاهدته على النفس ٠٠

زرت متحفا صغيرا ملحقا بالبرادو على مقربة منه ٠٠ بيكاسو لوحة « جيرنيكا » اللوحة معروضة عرضا جيدا فى صدر قاعة كبيرة ٠٠ وقاعتين قاعة كبيرة ٠٠ وقاعتان أخريان تضـــمان التحضيرات والرسومات التى أعدها بيكاسو للوحة ٠٠

ان لوحة جرنيكا من أعظم الأعمال الفنية الاعلامية على جانب من الفن الجيد ٠٠ فى قرننا هذا ٠٠

ان مدريد ليست من المدن الكبيرة فهى تضم أربعة ملايين نسمة بها الميادين والنافورات والحدائق المنسقة ٠

ما استدعى انتباهى أن هذه الميادين تمتلىء بالتماثيل من كل لون ٠٠ فى حشود هائلة ٠٠ مع كل هذه الحشود من التماثيل لم أخرج من مدريد الا بذكرى رائعة للمدرسة الاسبانية فى التصوير من الجريكو الى فلاسكويز، من جويا الى زرباران ٠٠ وغيرهم كثيرون ولكن لم أعثر على تمثال واحد استوقفنى فعلا ٠٠ !

ان الشعب الاسبانى شعب طيب ٠٠ «عشرى» ٠٠ يرحبون بك فى كل وقت ٠ يسيرون فى الشوارع فى تمهل ما ٠٠ عكس الفرنسيين تماما ٠٠ ولكن ما شاهدته شى ال « كوريدا » ٠٠ الصراع مع الثيران ٠٠ جعلنى أشك كثيرا فى هذه الطيبة ٠٠

رأيت ما يقرب من خمسين ألفا ٠٠ يشاهدون : يصفقون ويهللون لثور يذبح ٠٠ ان ذبح الثور ٠ شىء عادى ٠ فالعديد من الثيران تذبح كل يوم فى مدريد ٠٠ ولكن كى يلتف أكثر من عشرة أشخاص ٠٠ يثخنون هذا الثور المسكين ٠ بالحراب حتى ينزف دمه ٠٠ ويضعف تماما ٠٠ ثم يخرج « البطل » يلاعبه قليلا ثم يغرز سيفه فى رأسه ليخر الثور قتيلا ٠٠ ولكن يحدث أن السيف لايصادف مقتلا ٠٠ فيعالجه أحدهم بسكين فى رأسه ٠ لا انسانية قط ٠٠ فيما يفعله هؤلاء الناس ٠٠ انها عملية غاية

فى الحساسة ، ان ستة ثيران يذبحون بهذه الطريقة الوحشية ٠٠ كل يوم أحد ليس فى مدريد وحدها ولكن فى معظم مدن أسبانيا الكبيرة ٠٠

مما شاهدته أن هذا « البطل » الذى يخرج فى النهاية ليجابه الثور بعد أن أثخن بالعشرات من الحراب حتى ينزف دمه وينهك تماما ٠٠ ان هذا البطل لن يجابه الثور وهو سليم معافى ٠

أرجو أن تبطل هذه الطرق الوحشية لتسلية هذا الشعب الطيب ٠٠

بعد رجوعى من مدريد الى باريس ٠٠ بعد أن تخلصت من ذلك الشعور بوحشية الثيران المذبوحة ٠٠ كان لزاما على أن اهدأ الى صومعتى مع ذلك الفكر الذى اختزنته ٠ من تلك القيم الرافعة لثقافة النفس من القيم التشكيلية التى شاهدتها فى متاحف باريس ٠ مدريد وميونخ ٠٠

ان لى أياما ثلاثا فى باريس ثم أعود الى القاهرة ٠ ان صومعتى فى القاهرة ٠٠ المنيب ٠٠ وليس فى باريس الا الحدائق المنتشرة فى قلبها ممكن أن تخلو الى نفسك وأفكارك فيها ٠٠

ذهبت من منزل «ميشلين ماس فى بانيوليه» الى حدائق التويليرى ٠٠ كنت أذهب الى تلك الحدائق للراحة والتأمل ٠٠ بجانب النافورة ٠٠ ومتسع من بحيرة صغيرة من الماء ٠٠ اصفى أفكارى وأعود بمشاهداتى الى الخلفية من فكرى أتأملها وأناقشها حتى أقوم من القيم التى أحوزها من الفن التشكيلى ثم مع النفس ٠٠

ركبت الطائرة من باريس الى القاهرة ٠ فى هذه الفترة ـ الأربع ساعات من الطيران الى القاهرة استرجعت فى مخيلتى ما عرفته من أناس لهم ذكرى فى ذهنى ٠

« ماريان شولين » من « جيزن ألمانيا » « روسا » ذات القد السمهرى والوجه الشاحب العربى من مدريد اسبانيا « وميشلين ماس » ذات القلب الطيب والسكر العنيف من باريس ثم دانيل والاسم المختصر « دانى » من « لومان » فرنسا ذات الجمال المشرق ثم الحزم ٠٠

استوقفتنى الأخيرة ٠٠ فى بيتها فى لومان ٠٠ عشت ٢٠ يوما بالكامل تتابعت الأحداث فى هذا البيت ٠٠ والفكر يدور ويحلل جميع المشاهد من الناس الذين قابلتهم ٠٠

هناك أشخاص كثيرون ٠٠ قابلتهم لمرة واحدة يرحبون بى وبمصر ٠٠ كان هذا من دواعى اغتباطى ٠

بعض أصدقاء « داني » يتصلون بها تليفونيا ليخبروها أنهم ذاهبون الى مصر وأنهم يهتمون بنصيحة « داني » التي كانت هناك منذ شهور عدة ·· كانت داني ترد عليهم « ان مصر عندها الآن » ممثلة في شخصي ··

***

الاصدقاء والمعارف كانوا يقصدون زيارة « داني » فى بيتها فى الصباح والمساء يستفسرون منى عن مصر ··

وكنت أجيبهم على أسئلتهم ·· كنت سعيدا حقا ·· بمصريتى ·· ثم لمصر ··

اختتم هذا الجزء الثانى من « تجربتى فى الفن والحياة » وأنا أهبط فى مطار القاهرة ·· ثم أعود الى صومعتى فى المنيب ··

***

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١١٨٨١/١٩٩٤

ISBN — 977 — 01 — 4115 — 1

فى هذا الجزء الثانى يحدثنا الفنان عن حياته بعد عودته إلى الوطن وعن محاولاته الدائبة لإتقان فن التصوير الزيتى ومحاولاته الفاشلة لإكتساب بعض المال للسفر هو وزوجته إلى باريس لإستئناف دراستهما الفنية من خلال العمل فى المقاولات أو التجارة. ثم أزمته المالية حين انتهت منحة التفرغ مما اضطره إلى زراعة الأرض القليلة التى يملكها لتربية المواشى وكيف باع بعضها ليحصل على ما يساعده على العيش ويحقق له أمله فى بناء البيت الذى صممه له المهندس العالمى حسن فتحى. ثم يحدثنا بعد ذلك عن أسفاره إلى ايطاليا وفرنسا والمانيا ويتحدث حديثا علميا عميقا عما شاهده من الآثار الفنية فى تلك البلاد..

ثم يتحدث عن التحاقه بنادى إتيليه القاهرة والذى أصبح رئيسا له على مدى ثلاثين عاما.



٤٥٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب